

تأمر إبراهيم

منتديات قلعة طرابلس

الليلة

الثالثة والعشرون

الجزء الثاني

من ثنائية صانع الظلام



«يعبر تامر إبراهيم بسلسلة ذلك الحاجز الفاصل بين التشويق والرعب،
ليبرهن على أنه لا يوجد حاجز أصلاً، وأن هرولة الوقت ذاتها قد تكون
مرعبة أكثر من قبو يعج بالتوايت. في الوقت ذاته هو قادر تمامًا على ارتياد
عوالم رعب لا أجرو على ارتيادها» - د. أحمد خالد توفيق

هذه هي المواجهة الأخيرة!

سيخوض يوسف وسوسن ما تبقى من فصول اللعبة التي أوشتت على
نهايتها... فهل سيكتشفان أخيراً الحقيقة في الليلة الثالثة والعشرين؟

بعد كل ما خاضه يوسف في «صانع الظلام»، وكل ما رآه وعرفه، وبعد أن
حصل على أجزاء من الحقيقة - دافعاً ثمنها بأسوأ طريقة ممكنة - لا تزال
الحقيقة الكاملة بعيدة المنال، ولا تزال اللعبة مستمرة بقواعدها الرهيبة،
حاملة له المزيد من الخيارات المربكة، والمزيد من الأسرار...

يتألق تامر إبراهيم، أحد أبرز كُتّاب الرعب في العالم العربي اليوم، مرة
أخرى في هذا الجزء الثاني والأخير من ثنائية «صانع الظلام»، لنستكمل
معه رحلة قمة في التشويق والإثارة، نهايتها لن نحسم مصير يوسف
فحسب، بل مصير العالم كما نعرفه.



دار للنشر - مؤسسة قلاع النشر
EL OUBSURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



تصميم الغلاف: أحمد مراد

١
اعتقد أنه قد حان الوقت أخيرًا لتعرف ما الذي حدث لسوسن.

تركناها طويلًا وكانت آخر مرة رأيناها فيها - لو تذكر - حين التقت يوسف في ذلك الكافيه قرب كُليتها، يوم كلفته بالبحث في كتب التاريخ عن الشيء، قبل أن تتركه محذرة إياه من أنه سيزوره قريبًا، وأن عليه أن يستعد.. كيف عرفت أنه سيزوره قريبًا؟ لأنه كان قد زارها.. وزيارة الشيء الأولى لسوسن ستكون هي النقطة التي ستبدأ معها قصتها.

ستتركها الآن تجثم على صدر يوسف تهتم بغرس ما تبقى من سكينها في عنقه ودموعها تسيل على وجهها، وستترك عصام الذي يسرع الآن هابطًا الدرج بهم بأن يواصل مطاردة يوسف - الذي لم تنتو ليلته بعد، وستترك أبواب سيارات الشرطة التي تقترب وبسرعة، وستعود إلى الماضي، إلى اليوم الذي التقت فيه سوسن الشيء لأول مرة لتبدأ لعبتها معه.

لعبتها التي - وإن كانت تختلف نوعًا ما عن لعبة يوسف - دفعت ثمنها غاليًا كما ستري بنفسك.

* * *

كانت أمها تردد كماداتها في هذا اليوم:

- أنت تُخفين عني شيئاً ما.. أعرف أنك تُخفين عني شيئاً وسأنتظر أن تأتي طواعية لتخبريني به.

فكانت سوسن تجيبها بنظرة طويلة صامتة قبل أن تتركها لتعود إلى غرفتها حيث وحدتها الاختيارية، وحيث أطنان كتب التاريخ في انتظارها لتبحث فيها عن الشيء الذي سيُزورها اليوم.. إن أمها تستخدم معها الحيلة الشهيرة التي تستخدمها كل الأمهات في كل زمان ومكان.

الذنب.

تريد أن تشعرها بالذنب وكأنها تعرف الحقيقة كاملة وتتحمّل قسوتها ومرارتها في صبر إلى أن تأتي هي لتعترف لها بكل شيء، وهي حيلة كانت ستجدي معها لو كانت تحب سراً.. كما تظن أمها.. لكن «الحقيقة» أنها.. ومهما شعرت بالذنب.. لن تستطيع أن تخبرها بما دار بينها وبين الدكتور مجدي في لقائهما الأخير معه، والذي تغيرت من بعده شخصية سوسن تماماً إلى الحد الذي دفع أمها إلى أن تشك في أنها تخفي «الحقيقة».

حتى لو فعلتها وأخبرتها بكل شيء، فكيف لأمها التي لم تكمل تعليمها أن تفهم أن هناك «شيئاً» ما موجوداً منذ بداية التاريخ، وكان السبب الرئيسي في كل الفترات المظلمة فيه، وأنه الآن موجود هنا يطاردها ابتها يبغي تدمير حياتها تماماً كما فعل مع أستاذها مجدي الذي أتى به إلى عالمنا بعد أن كان حياً لسنوات طويلة؟

ضع نفسك مكان سوسن، فستجد أن الصمت هو الخيار الوحيد المتاح، وستجد.. وإن كانت سوسن مُحقة في صمتها هذا.. أن أمها كذلك

مُحقة في شكها، وهي التي ترى ابتها تنطوي على نفسها أكثر فأكثر كل يوم كالمُدمنين.

هذه الفرضية تحديداً دفعتها إلى مراقبة ابتها وتفحص جسدها في أثناء نومها بحثاً عن آثار محاقن، ثم تفتيش غرفتها أكثر من مرة في غيابها بحثاً عما يشتها، لكنها لم تكن تجد في كل مرة إلا كتب التاريخ وأوراقاً مليئة بتواريخ وملاحظات لم تفهم منها شيئاً.. وفي النهاية أعلن أبوها سحق هذه الفرضية، قائلاً:

- إنها الامتحانات.. لقد اقتربت.

وهو تفسير معقول ويتفق مع الساعات الطويلة التي كانت تقضيها سوسن كل يوم تقرأ كتبها ذات العناوين الكثيرة والأغلفة غير الجذابة، لكنه لم يُرضِ أمها قط، ولم يخفف من قلقها ولو ذرة.. سوسن مجدة في دراستها منذ طفولتها، فما الذي استجد عليها؟ سوسن تعشق قراءة التاريخ منذ أن تعلمت القراءة، فلماذا تحول هذا العشق إلى هوس حقيقي كأنها تريد حشر التاريخ كله في رأسها الجميل وقبل فوات الأوان؟

لا.. إنها ليست الامتحانات.. وربما ليست المخدرات.

إذن إنه الحب.

هذا هو الاستنتاج الذي انتهت إليه أمها، وهي تعرف أنه كان هناك «سامح» وأنه رحل تاركاً فجوة في حياة ابتها، ولا بد أن هناك «آخر» قد جاء ليملا هذه الفجوة، وهو السر في انشغالها.. هذا يفسر انطواءها وشرودها وتحولها المتزايد، وأما عن نظرة الخوف في عينيها فتفسيرها موجود أيضاً.. إنها تخشى أن تخسر هذا «الآخر» كما خسرت سامح.. لكن..

مَن هو؟

سوسن لم تذكر اسمه قط، وبحثُ أمها الدُّؤوب في غرفتها لم يسفر عن خطابات عاطفية أو رسائل في هاتفها تشي بهويته، وهذا لا يعني إلا أن سوسن تسعى جاهدة لإخفائه عنها.. لماذا؟ لأنه وغدا!

الشاب الذي يرتبط بفتاة فيدفعها لإخفاء علاقتها به عن أمها هو وغدا حقيقي لن يتزوجها، بل سيحصل على ما يريد منها وسيتركها بعدها فريسة لألسن الناس وأعينهم.. بل ربما هو حصل على ما يريد من ابنتها بالفعل.. نعم.. ربما قطف زهرتها.. وربما الآن ابنتها تجلس في غرفتها تحمل جُرمه في أحشائها تنتظر اليوم الذي سيعلن فيه عن نفسه حاملاً العار لها ولأمها التي لن تتحمل الصدمة.. ستأتي إليها سوسن باكية وستروي لها ما حدث، وستصاب هي بأزمة قلبية أو بجلطة ستفقد بها القدرة على النطق والحركة.. بعدها سيقتلها أبوها تمامًا كما قتل الدكتور مجدي ابنه.. هذا الموضوع بالذات كانت ترفض مناقشته أو مجرد ذكره أمامها.. وسينفطر عقد هذه العائلة بلا رجعة، وستموت هي على فراش قدر في أحد المستشفيات الحكومية، التي لا يخرج منها مريض حيًا.

كل هذا سيحدث لأن سوسن تُخفي عنها سرها!

لكننا.. ولأننا نعرف أكثر.. سترك أم سوسن وأفكارها السوداء هذه وسنتقل إلى سوسن في غرفتها لنبحث معها عن الشيء في كتب التاريخ، ولنسترجع معها ذكريات لقائهما الأخير مع أستاذها مجدي الذي لم تعرف بعد أنه مات في مستشفى السجن، فهي لم تلتق يوسف للمرة الثانية بعد.

الكتاب الذي كانت تقرأه يومها كان «سنوات الحرب والدم في القرن

العشرين»، وهو كتاب لم يحمل ذرة من جاذبية عنوانه، بل على العكس تمامًا كان كاتبه قد ملأه بأكبر كم ممكن من المغالطات التاريخية والمقاطع المترجمة بركاكة، وبإحصائيات يستحيل أن تكون دقيقة إلا إذا كان صاحبها يمتلك قدرات إلهية لا حد لها، لكنها لم تكن تقرأ لتستمتع أو لتدرس أو لتبحث عن الشيء حتى هذه المرة.

لقد كانت تقرأه.. فقط.. لمجرد أنها تحاول طرد صورة الدكتور مجدي من مخيلتها بتلك النظرة الخائفة الحزينة التي حملها وجهه في آخر لقاء لها معه.. إنها لم تلتقه ثانية قط، ففي اليوم التالي للقائها الأخير معه عرفت أنهم قبضوا عليه لأنه قتل ابنه، وأن السجن فالإعدام سيكونان في انتظاره.. لكنها كانت تعرف الحقيقة.. تعرفها وتعرف أنها لن تنقذه من مصيره، فاحتفظت بها لنفسها وقررت مواصلة ما بدأه هو مرغمة، محاولة تجاهل كل ما حدث ويحدث لأستاذها الوحيد.

هو مَن طلب منها هذا.. هو أخبرها بأنها ستكون نهايته، وأنه يستحقها، فهو من أعاد الشيء إلى عالمنا.. وهو الذي أخبرها بأن دورها آت، فالشيء لن يتركها، ولن يترك التاريخ كله إلا لو عثرت هي على طقوس القضاء عليه.. وهذه هي مهمتها التي عليها تنفيذها إن بقيت على قيد الحياة.

أن تنسى الدكتور مجدي الذي كان بمنزلة أبٍ لها أكثر من كونه أستاذًا، وأن تركز طاقتها كلها في البحث عن الشيء والقضاء عليه قبل قوات الأوان.. ويا لها من مهمة!

سوسن كانت فتاة طبيعية قبل لقائها الأخير مع الدكتور مجدي كما ذكرنا من قبل.. مجرد فتاة طبيعية تعشق التاريخ بصورة مبالغ فيها نوعًا ما، لكن عشقها هذا لم يحرمها من لقب «طبيعية»، بدليل أنها وجدت وقتًا

لشعب سامح قبل أن يتركها من أجل فتاة أخرى أقل انشغالاً بالتاريخ - الأمر الذي لم تُخبر به أمها قط - وبدليل أن إحساسها بوجود شيء ما غامض في التاريخ كان يندرج أسفل الشك العلمي كباحثة في التاريخ، إلى أن أتى الدكتور مجدي ليحوّل لها هذا الشك إلى يقين رهيب.. بعدها..

بعدها تحولت سوسن إلى شيخ فتاة تعرف أكثر مما كان ينبغي لها أن تعرف.

فتاة عليها أن تتجاهل تمامًا أخبار أستاذها الذي ألغى القبض عليه لتعلا صورته الجرائد والمجلات تديّلها صور ابنه - الذي هو ليس ابنه - والذي تحول إلى أسطورة حضارية في كُليتها.. لقد أصبح اسمه يتردد مع كل همسة، وفي كل نظرة مصوبة إليها - فهي كانت تلميذته المفضلة والكل يعرف هذا - ولقد كان ينتظرها ينتظرته الخائفة الحزينة في كل مرة تفتح فيها كتابًا أو تغلق فيها عينيه محاولة طرده من مخيلتها.

كانت تراه، وكانت تتخيل ما حدث له على يدي الشيء، ثم تتخيل أنه سيحدث لها، فهو أخبرها بأنه سيزورها وأنه سيدمر حياتها كما دمر حياته.. أخبرها بأن الشيء سيقاوم، فهو لن يتركها تعثر على طريقة القضاء عليه بسهولة، وأخبرها بأن عليها انتظاره فهو قادم.

ومن يومها تنتظر سوسن زيارة الشيء، وترقبها كمريض بالسرطان ينتظر الموت الآتي لا محالة، حتى أكسبها ذلك الانتظار عادة التلقّت حولها كالمجاذيب طوال الوقت، كأنها تنتظر ظهور شيء ما في أي لحظة.. كأن الشيء سينبت فجأة من العدم وفي اللحظة التي لن تتوقع فيها ظهوره.

صحيح أن الدكتور مجدي ترك لها طقوس استدعائه، لكنها لم تجرؤ

على تجربتها قط.. لقد رأت صورة ابنه الذي احتل الشيء جسده في الصحف، ولم تتحمّل تلك النظرة المخيفة في عينيه، فما بالك بأن تنفذ طقوسًا لاستحضاره بنفسها؟ ليأت هو حين يقرر أن يأتي، وإلى أن يفعلها ستبحث هي عنه في التاريخ علّها تجد طقوس القضاء عليه.

لكن يوسف أتى أولاً.

حاملًا تحوله ونظراته الحادة وأسئلته عن الدكتور مجدي وابن - الذي هو ليس ابنه - أتى إلى كُليتها، وقد بدا عليه أنه أتى ليحصل على الحقيقة، لا تلك الأكاذيب التي ألغىها الكل في وجهه بلا حساب، فلم تشغل بالها به، وتحاشته كما فعل الأستاذ قدري في بداية أمره، إلى أن عرفت أنه النقي أستاذها في السجن، ليكون الوحيد الذي رآه منذ أن أودعوه سجنه.

وعلى الرغم من أن الدكتور مجدي طالها بنسيانها، فإنها لن تستطيع مقاومة رغبتها في معرفة أي شيء جديد عنه، فانتظرت يوسف أمام كُليتها لتجده وقد فقد حماسه للموضوع كله، فشحذته ثانية مخاطرة بقولها:

.. ابنه على قيد الحياة فعلاً.. ويجب أن نجده قبل فوات الأوان.

كانت مخاطرة بالطبع، فهي لم تكن تعرف ما يعرفه يوسف بعد، لكنها كانت كافية لاتباعها إلى ذلك الكافي القريب من كُليتها، حيث منحتة جزءًا من الحقيقة، ليمنحها هو عدم تصديقه - كما توقعت - وليتركها ويرحل بعد أن عرفت منه ما يهمها معرفته.

الدكتور مجدي لا يزال حيًا.. الشيء لا يزال موجودًا.. وفيما يبدو سينضم هذا الصحفي سيئ الحظ إلى قائمة ضحاياه تقريبًا.. حتى مطلب الدكتور مجدي من يوسف أن يبحث عن ابنه ليقتله بدا لها رسالة موجهة لها

شخصياً، فاستقبلتها لتذكر وعدّها إياه، ولتقرر تجاهل يوسف - مؤقتاً - لتعود إلى كتبها وبحثها الذي طال من دون أن يقودها إلى أي نتائج.. لكن اليوم سيتغير كل شيء.

فاليوم سنلتقي سوسن الشيء لأول مرة في حياتها.
وفي المرة الثانية ستبدأ لعبتها معه.

كانت سوسن تجلس على فراشها وسط كتب التاريخ تحاول إنهاء قراءة كتاب «سنوات الحرب والدم في القرن العشرين»، وقد أخذت تسلي نفسها بتصحيح الأخطاء بقلم وضعت خلف أذنها.
كان الفصل الذي تقرأه يتحدث عن «معركة السوم»، وكان كاتبه قد صاغه بأسلوبه الركيك على هذا النحو:

وقعت معركة السوم في فرنسا، على ضفتي النهر من نفس الاسم. وتألّفت المعركة من هجوم شتته الجيوش البريطانية والفرنسية ضد الجيش الألماني، والذي منذ غزو فرنسا في أغسطس ١٩١٤ قد احتل مساحات واسعة من هذا البلد.. وكانت معركة السوم واحدة من أكبر المعارك في الحرب العالمية الأولى وفيها سجلت أكثر من ١,٥ مليون إصابة من قبل القوات المشتركة.. ومن المفهوم أن تكون واحدة من العمليات الأكثر دموية العسكرية التي سجلت على الإطلاق.

ثم تعالى صهيل حصان فجأة خارج غرفتها!

تعالى فانتفضت وسقط الكتاب من يدها على الفراش، ثم تجمّدت مكانها وقد أعجزتها المفاجأة عن التفكير أو الحركة.

حصان في صالة منزلي؟! لا بد أنني أهذي!

بالطبع هي تهذي، فما الذي سيأتي بحصان في شقتها؟ لا بد أنه التلفزيون.. أمها في الخارج الآن، ولا بد أنها فتحت التلفزيون، ولا بد أنها رفعت من صوته فجأة ليتعالى صهيل الحصان منه، وهذا هو التفسير المنطقي الوحيد، الذي لا يعيبه إلا حقيقة واحدة.. أنها سمعت أمها تغادر المنزل منذ قليل!

إنها الرابعة عصرًا وأمها اعتادت الخروج في هذا الوقت لتقضي بعض الوقت عند جارتها، ولتشكو إليها من قسوة ابنتها التي تخفي عنها أسرارها، وهي سمعتها وهي تخرج من الشقة منذ قليل وسمعت صوت باب الشقة الثقيل وهو يغلق وراءها، لكن.. ربما عادت أمها من دون أن تشعر بها.. عادت وفتحت التلفزيون فتصاعد منه صوت صهيل الحصان، والدليل عليه هو أن الصوت تعالى مرة واحدة، ثم توقفت الأصوات بعدها تمامًا. كل الأصوات توقفت ليخيم صمت ثقيل على الشقة، ولتستعيد سوسن قدرتها على الحركة والتفكير تدريجياً لتقرر تجاهل الأمر كله، ولتمسك بكتابها من جديد وتهم بمواصلة القراءة فيه و.. و..

وتعالى صوت الصهيل ثانية!

وهذه المرة انتفضت سوسن وصرخت، فالصوت كان أعلى وأكثر وضوحًا، وكان بالنقاء الكافي ليؤكد لها حقيقة أنه لم يتصاعد من تلفزيونهم العتيق الذي تخرج الأصوات منه مكتومة أقرب إلى الضوضاء.. لا.. هذا

الصوت خرج من حنجرة حصان مباشرة، وهذا الحصان يقف الآن أمام باب غرفتها مباشرة، يضرب الأرض بحوافره كأنه يستعد لاقترحام غرفتها. لكن.. كيف؟

وهنا استبد بسوسن خوف طفولي زرعه أمها فيها في صغرها، قبل أن تتركها في المنزل بمفردها لأول مرة حين كانت طفلة.. يومها أجلستها أمامها وأخذت تلقي عليها بسيل لا ينتهي من الوصايا والتحذيرات وكلها كانت تدور حول نقطة واحدة.. سأتركك بمفردك وستجلسين في غرفتك ولن تخرجي منها حتى أعود.. وإياك.. إياك أن تفتح باب الشقة لأي غريب.. ومهما كان السبب.

يومها منحتها سوسن طاعتها بلا جدال أو مناقشة، فتجربة أن تقضي اليوم بمفردها في الشقة بدت لها مثيرة بما يكفي، وهي لم تكن لتخاطر بإضاعة الساعات التي ستقضيها وحيدة مع كتبها، لكن أمها.. التي لا تحمل في رأسها سوى الأفكار السوداء.. افترضت أن سوسن ستخالف أوامرها ما إن تخرج، فأخذت تروي لها قصصاً مروعة عن أطفال فتحوا باب الشقة لغرباء، ليعود ذووهم في النهاية ويعثروا عليهم جثثاً ممزقة محترقة، لمجرد أنهم سمحوا لهم بالدخول.

«وهذا هو ما سيحدث لك يا سوسن لو خرجت من غرفتك في غيابي.. سأعود وسأجد أن الغرباء قد قتلوك ومزقوا جثثك، وسيحرقونها ويحرقون المنزل، وسيعاقبك أبوك أشد عقاب لو حدث هذا».

كيف سيعاقبها أبوها بعد أن تُقتل وتُحرق جثثها الممزقة؟ لم تعرف سوسن إجابة هذا السؤال قط، لكن طريقة أمها كانت مجدية حقاً.. ومن

يومها، وفي كل مرة كانت أمها تتركها، كانت سوسن تحبس نفسها في غرفتها لتظل فيها مع كتبها تقرأ وتحاول تخيل الغرباء الذين يقفون الآن خارج باب الشقة ينتظرون أن تفتح لهم الباب ليمزقوها حية.

وها هي الآن شابة بالغة في السنة النهائية في كلية الآداب قسم تاريخ، تجلس على فراشها ترتجف وقد أخذت ماثتها في الثقلص، عاجزة عن مغادرة مكانها لاستكشاف مصدر صوت الصهيل الذي تعالي للمرة الثالثة خارج غرفتها مباشرة.

إنهم الغرباء.. لقد دخلوا الشقة بأحصتهم، وسيمزقونها حية، وسيحرقون ما سيبقى من جثتها، وحين يعود أبوها ويرى ما أصابها سيعاقبها!

أو إنها تهذي وهو التلفزيون وأمها تجلس أمامه الآن، وهذا هو التفسير المنطقي الذي يصر على فرض نفسه الآن في عقلها.

لا أحصنة.. لا غرباء.. لن يقتلها ولن يحرق جثثها أحد.. وكل ما يحدث الآن هو نتاج طبيعي لإرهاقها وعدم حصولها على ساعات نوم كافية طوال الفترة الماضية.. «المنطق» يصر على رأيه، وكل ما عليها الآن هو أن تقتنع به، وأن تغادر فراشها لتخرج من غرفتها، لتجد أمها تنتظرها بنظرة اللوم في عينيها وبسلاح الذنب في يدها، وهو سلاح ستلقى سوسن ضرباته راضية مطمئنة بدلاً من الخوف الوحشي الذي يمزق أحشاءها الآن.. ثم إن ماثتها المتقلصة هذه لن تتحمل أكثر من هذا وهي لن تبلل فراشها في هذه السن!

خارج غرفتها توقفت الأصوات من جديد لتشجعها على تقبل

«المنطق»، فتحركت سوسن في بطن حذر لتغادر فراشها، ولتتجه إلى باب غرفتها على أطراف أصابعها محاولة ألا تصدر أدنى صوت.. لو كان التلفزيون فلا بد أنها ستسمع صوته الآن.. أو على الأقل صوت أمها في المطبخ وقد شرعت في إعداد الغداء.. أو على الأقل أيا من تلك الأصوات المعتادة التي تصدرها الشقق حين تخلو من سكانها.. أي شيء.. المهم أنها لن تسمع صوت الـ...

وللمرة الرابعة تعالى صوت الصهيل خارج غرفتها، فصرخت سوسن وتراجعت قافزة لتسقط على ظهرها في اللحظة التي انفتح فيها باب غرفتها فجأة، لتجد سوسن الذاهلة نفسها تحديق في تلك الصحراء القاحلة خارج غرفتها، والتي وقف فيها جواد ضخيم رفع قائمته الأماميتين في الهواء للحظة، قبل أن ينقض عليها مباشرة!

صرخت سوسن وأغمضت عينيها غريزياً، وقد انتقل تقلص مثانتها إلى قلبها في صدرها، وكانت الفكرة الأخيرة التي ترددت في عقلها هي أن الأحصنة ليست بالجمال الذي كانت تظنه.. ذلك العشق السرمدي الذي يربط بين الفتيات والأحصنة تبدد في أعماقها، وإلى الأبد، وقد أصبحت على وشك الموت أسفل حوافر حصان وجد طريقه إلى غرفتها بمعجزة ما، لكن وبعد مرور لحظات ليست طويلة تلاشت هذه الفكرة من رأسها، ليحل مكانها اكتشافان يستحقان بعض الاهتمام: أولهما أن الحصان لم يهشم عظامها بحوافره بعد كما كانت تتوقع منه. والآخر أن أرض غرفتها تحولت إلى رمال!

الملمس الصلب البارد لأرضية غرفتها اختفى، وحل مكانه دفة الرمال وخشونتها، ومن دون أن تفتح عينيها حركت أصابعها لتجدها في

النهاية تقبض على حفنة من الرمال التي سالت من بين أصابعها مخلقة وراءها الذهول والحيرة.

وبيضاء فتحت سوسن عينيها فوجدت أن غرفتها لم تعد هناك.. عالمها كله تلاشى من حولها، وبدلاً منه وجدت أنها تجلس على رمال تلك الصحراء القاحلة وقد أخذت الرياح الساخنة تضرب وجهها بلا هوادة.. حتى الحصان الذي كان سيتقبض عليها اختفى من دون أن تترك حوافره أثراً على الرمال، فتلفت سوسن حولها للحظات تبحث عنه بمزيج من الذهول والحيرة، وقد أخذ صوت المنطق يتعالى في رأسها من جديد ليمنحها حقيقة جديدة.

لقد فقدت عقلها!

التفسير الوحيد لما يحدث لها الآن هو أنها فقدت عقلها أخيراً بعد أشهر من الضغوط النفسية والجسدية التي قاومتها طويلاً.. وهو حقها بالمناسبة. بعد كل ما عرفتته ومرّت به من حقها أن تفقد عقلها وأن تجد نفسها الآن في تلك الصحراء الممتدة من حولها بلا نهاية، وأن تشعر بالرمال الساخنة تتطاير مع الرياح لتضربها في وجهها كأسهم متناهية الصغر.

أوريماء هو كابوس!

في هذه الحالة عليها أن تخوضه مضطرة حتى نهايته، وستستيقظ في النهاية لتجد نفسها على فراشها في غرفتها - كما أمرتها أمها - وستنساه على الرغم من دقة تفاصيله الحالية.. وسيتهي الأمر كله عند هذا الحد.. لكنه إن لم يكن كابوساً، ولو كانت قد فقدت عقلها فعلاً، فلن تستيقظ

منه إلا بعد أشهر من العلاج بالصدمات الكهربائية، لتجد أنها أصبحت ضيفة شبه دائمة في مستشفى الأمراض العقلية. وفي الحاليتين سيكون هذا أفضل بكثير من أن تكون قد انتقلت فجأة ومن دون أي مقدمات إلى صحراء قاحلة لن تحمل لها إلا الموت عطشًا.

هكذا وقتت سوسن في النهاية، فتساقطت الرمال عن ملابسها. وهكذا وجدت نفسها تحاول الإجابة عن السؤال ذاته الذي واجهه يوسف حين وجد نفسه في تلك الغابة في الماضي السحيق: إلى أين؟

الصحراء من أمامها ومن ورائها ومن على كل جانب لا تحمل لها إلا أطنانًا من الرمال والرياح الساخنة، من دون علامة واحدة تدلها على الاتجاه الصحيح، فإلى أين ستتحرك الآن؟

في السماء حدقت فيها الشمس تنتظر قرارها، فترددت هي قبل أن تتخذ له ليكون القرار ذاته الذي اتخذه يوسف في فصله الأول من فصول لعبته مع الشيء... ستجبه إلى الأمام.

إلى أين سيقودها هذا الاتجاه؟ إلى مكان ما، أو إلى نهاية هذا الكابوس، أو ستواصل طريقها إلى أن تستعيد عقلها، أو تهلك عطشًا في هذه الصحراء.. هذه هي كل الاحتمالات المتاحة ولا توجد بدائل أكثر إغراء تدفعها إلى تغيير هذا الاتجاه.. إذن.

خطت سوسن خطواتها الأولى إلى الأمام فانغrust قدمها الحافية في الرمال الساخنة، لكنها تحمّلت سخونتها وواصلت طريقها إلى الأمام.. ومن جبينها بدأت قطرات العرق تحشد لتسقط أنهارًا على جانبي وجهها، فأدركت أن بقاءها في هذه الصحراء لن يطول.. حلقها الذي جف فجأة

يؤكد لها هذه الحقيقة، وهي لن تشغل بالها بنهايتها هنا، فالأهم الآن هو أن تشغل نفسها بـ«لماذا» هي هنا.
إنه الشيء..

بالطبع هو الشيء.. قال الدكتور مجدي أخبرها بأنه سيزورها، وهي انتظرت زيارته هذه طويلًا، وتخيلتها بأسوأ الطرق الممكنة.. تخيلته شبحًا ماردًا سيخرج لها من وسط الجدران أو من أسفل الفراش أو من خزانة ملابسها، ليكشف لها عن نفسه وليبدأ تدمير حياتها، لكنه بدلًا من هذا كله اختار هذا الكابوس ليكون مسرحًا للقائهما الأول.. فقط عليها الآن أن تنتظره وأن تتمنى أن يكون هذا كابوسًا حقًا، وألا يكون الشيء قد نقلها - حرفيًا - إلى تلك الصحراء حيث ستهلك مهما طال بها الوقت.

لكن.. أين هو؟

لو كان الشيء هو من أحضرها إلى هنا فأين هو؟ ولماذا لم يكشف لها عن نفسه حتى الآن؟

ولماذا الصحراء تحديدًا؟

ليستفد قواها قبل أن يواجهها؟ أم إنه ستركها هنا لتهلك من دون أن يلتقيها حتى لينهي دورها في القصة من قبل أن يبدأ؟

أسئلة لن تعثر على إجاباتها في رمال الصحراء، وكل ما عليها الآن فعله هو أن تواصل طريقها.. إلى أين؟ إلى الأمام!

هكذا واصلت طريقها حتى جف العرق على وجهها، وحتى تحوّل لسانها إلى قطعة من الخشب الخشن في فمها الذي فتحت لتلهث بإنهاك

لم تتوقع سرعته، إلى أن اكتشفت في النهاية سحب ما تحاول فعله،
وألقت بجسده على الرمال وقد قررت أن توقف عنده الحد. ما حدودي
المواصلة وهي لا تمسك هدفًا ولا طريقًا ولا محرًا معًا هي فيه؟

لتنظر مكانها إلى أن يأتي الشيء أو إلى أن تحب الحياة في جسده
أسفل هذه الشمس الحارة و... و.

وفجأة تعالى صوت الصهيل محدداً!

لكنه لم يكن صهيل حصان واحد هذه المرأة.. لا.. الصوت الذي
سمعته سوسن فانتفضت كان صوت أحصنة.

قطيع كامل من الأحصنة يصهل بقوة.. ويقرب.

الرمال أسفلها ترتعش، والأرض ترتع، وصوت عشرات الحوافر
تضرب رمال الصحراء وتقرب منها وبسرعة.

ها فقدت سوسن مطلقاً تماماً، وهتت واقفة لتتلفت حولها باحثة
عن مصدر الصوت الذي أحد يقرب ويقرب، قبل أن تحدد مصدره
لتطلق تعدو في الاتجاه العكسي بأقصى سرعة وقد شفت صرخاتها
حلقها الجاف وبقرة.

ولو كانت سوسن قد احتفظت بذرة من منطقها لما حاولت الهرب،
فسرعة عدوها على الرمال لن تكفيها أبداً للابتعاد عن قطيع من الأحصنة
يطلق في إثرها، لكنها كانت قد فقدته تماماً ليحل الحوف محله، فاندفعت
صارحة وقد أحد صوت الحياد التي تصدرها يقرب ويقرب، إلى أن
تعالى الصهيل من ورثها مباشرة هذه المرأة، فصراحت وألقت بنفسها على
الأرض تحاول دفن جسدها في الرمال وقد أيسأت أنها بهائنها هذه المرأة.

هذه المرأة سندسها عشرات حوافر، وستتركها مهشمة العظام ترف
على رمال الصحراء إلى أن تفيض روحها، ولو كانت محظوظة فليس بطول
عديها.

ستهلك ولن تستيقظ في عرقها على فراشها، ولن تحدد نفسها في
مصححة للأمراض العقلية، بل ستتحول إلى بقعة دامية دائمة لثابتة الأبعاد
في هذه الصحراء حيث لن يعثر على حثتها أحد.

هكذا أعمست عيها في قوة وانتظرت الهدية، ومن على حثتها
شعرت بعشرات لأحصنة تمر وتقف من فوقها، فم نعو حتى على لصرح
محدداً، ولم تكن صرخاتها لتعدو على نكت الصوصاء الهدئة التي أصدرتها
الحبد من حوفاً، وقد مترح لصهيل بصوت الحوافر وبصوت لرمال
تني انتفضت من مكانها لتتحقق في الهواء من حولها في عاصفة شعرت
بها سوسن وإن لم تجرؤ على فتح عينيها لتراها.

ثم انتهى كل شيء فجأة!

في لحظة واحدة تلاشى الصوت وتلاشت الأحصنة وتلاشت عاصفة
الرمال حتى أصبح من حولها لادب ساكن وحده، فوحدت سوسن
نفسها تمتع عيها بظء لنجد أنها وحيدة تماماً في قلب صحراء امتدت
حولها بلا نهاية.. لكن مهلاً.. إنها ليست وحيدة تماماً.

هناك ومن وسط الصحراء تحرك شيء ما أشبه بالسرب أممها، قبل
أن يقرب إلى لحد الكافي لتمييز ماهيته ولتشعر بشك الرودة العجيبة
تسري في جسدها على الرغم من حرارة الصحراء.

إنه... لكن... مستحيل!

لكه كان هو ذلك الجسد الضئيل، وذلك النوح الطعولي ذا النظرات الحادة، وهذه الملابس التي رأتها في الصورة.. إنه.. إنه..

ابن الدكتور مجدي!

بخطوات هادئة وباتسامة عائشة على وجهه الشاحب أخذ يقترب منها وقد أحدثت الريح نعث في حصلات شعره الأسود الناعم، إلى أن بدعها يوقف أمامها مباشرة، فحدقت هي فيه بمريح من الرهبة والدهول والرعب، لبدأ هو بصوت حمل من العيث ما كاد قلبها يتوقف له هلعاً.

- تأخر لقاءنا كثيراً.

إنه هو.. إنه هو..

الشيء.

هي هيئة ابن أستاذ مجدي، وهي وسط هذه الصحراء، يقف أمامها ويستسم مواصلاً:

- سبباً لعبتنا قريباً. وستكون ممتعة. أعدك بهذا. ولكن قل أن نبدأ.. يجب أن تذهبي إليه أولاً.

قلها وأشار بيده إلى اتجاه ما، فتحرك رأس سوس لاشعورياً لتظهر في الاتجاه الذي أشار إليه، ولتجد نفسها تحديق في تلك الساية حديثة الإشاء والتي - وإن بدا وحودها شاداً في هذه الصحراء - تعرفتها على الفور، فهي كانت قد رأتها سابقاً على أرض الواقع. إنها الساية التي انتقل إليها سامح، والتي سيتروح فيها قريباً كما عرفت من أمها.. لقد مرّت من أمامها في أحد الأيام وحفظتها لتحفظ على ابتعادها

عنها، حيث قررت ألا تحاول رؤية سامح مجدداً مهما كان السبب، لكن هي الآن تحديق فيها وسط الصحراء، وصوت الشيء يسعث عائشاً من جسد الطفل، يقول:

- ستكون بدايتك هناك.. وسأكون في انتظارك.

فراصت سوس لتحديق هي لساية التي أحدثت تلاشي تدريجياً كسراب أمام عيبيها، فل أن تنفت مجدداً إلى لطمس لنجده قد احتفى هو الآخر.

وفي اللحظة التالية أضمت لذي من حولها فحاة وشعرت بحسده يهوي.

ثم وجدت نفسها على مر شها في عرفتها

هكذا ومن دون مقدمات استعدت عالمها كاملاً، لكنها لم تستعد قدرتها على التفكير إلا بعد بساعات طالت قصتها على لهراش نكي وترجع حتى حمت دموعها، لتعادره في الهدية ولتبدأ التفكير في خطواتها التالية.

لقد تنقت ريارتها الأولى من الشيء. لقد كت أسوأ من كل تحيلاتها نمماً كما وعدتها الدكتور مجدي. لقد بدأت بهيتها، وكل ما عليها الآن هو أن تعثر على طفوس الفضاء عليه قل أن يقصي هو عليها. وقس هذا كنه عيبيها أن تذهب إلى سامح في مرله لتراه بعد سنوات طالت قصتها تحاول نسيانه.

لكنها وفي اليوم التالي التقت يوسف أولاً لمرّة الثانية.

* * *

وأنت تذكر لقاءها الثاني مع يوسف وتذكر ما حدث فيه.

منه عرفت أن أستاذها مات أخيراً ليستهي دوره في هذه القصة، ومنه عرفت أن يوسف تورط مثلها فيه بحدث ولم يعد يملك مجالاً للتراجع، فطلبت منه مساعدتها في البحث في كتب التاريخ، وإن شعرت بأن مطلبها هذا لن يجدي شيئاً، لكنه كان مطلباً من باب إراحة الصمير لا أكثر. لو كان سيحدث قريباً فمن حقه أن يعرف الطريقة الوحيدة للرجاء من سيحدث له.

لهذا منحتة قائمة بالكتب التي لن تجد الوقت الكافي للبحث فيها، وتركته يومها بعد أن حذرته من زيارة الشيء، من دون أن تحكي له عن زيارته لها - فهي لن تحاظر بعدم تصديقه أو بصدقه بالمريد من الهلع - ثم أحدث تجوّب الشوارع محاولة التعلّب على مشاعرها، وقد امترح حربها على الدكتور محدي، بالحواف من زيارة الشيء الأولى لها، بالإشفاق على يوسف الذي يبدو أن سوء حظه سيقوده إلى بهائته، وترددها وعجزها عن اتحاد قرار بهائي بشأن زيارة مراد سامح، حيث ينتظرها الشيء كما وعد.

وهو لن يصيغ وقتاً في محاولة فهم الطريقة التي اتحدت بها سوس قرارها في النهاية، فمن المستحيل أن تجد طريقة لفهم تفكير الأشياء - وهي فعدة مطبوعة لا تقبل نقاشاً أو حداً - فقط سبيل إلى اللحظة التي حسمت فيها أمرها لتطرق إلى سامح في شقته في البناية الحديثة التي رآها

في لصحراء، وسنتقل معها إلى هناك حيث ستهي زيارتها بحثة سامح وقد حترقت من الدخان إلى الخارج كما رأيناها آخر مرّة.

كيف حدث هذا؟

لأن ستعرف

* * *

يومها استعدت سوس بحبرات توارثتها الفتيات عبر الأجيال، ويمكن أن سمّيهن «دليل الفتاة المهددة لزيارة شبيب أعرب في شقته من دون أن نشر لشبهات»

أولاً: البحث عن اسم فتاة تعيش في البناية ذاتها.

وهي الخطوة الأولى التي ستمكك من تحاور أول عقدة والتمشية في حارس البناية العجوز.

في كل ساية حديثة ستجدين واحداً يسدد إليك بصرات شكه وتهامه من إن يراك، كنت فتاة ليل أتت لتعرض بضائعها من دون أن تمنحه نسبته المستحقة، وستجدين فتاة مقاربة لك في العمر - بالطبع ستجدين فلا يوحد أكثر من الإثبات على هذا الكوكب - لو ذكرت اسمها فأت صديقتها وقد حنت لريارتها لأنها تختصر على الأعلب، هذه هي القاعدة في أغلب لمحتومات الشرقية، ولست هنا لأحدثك بل لأساعدك للتعبد عنها بحظرات ميسرة وفي متناول الفتاة المهددة.. ولكن..

كيف ستحصلين على اسم فتاة تعيش في ساية لا تعرفين فيها أحداً؟
الإجابة: من الحارس ذاته!

إن سوسن فتاة ذكية حقاً، ومنها تعلمي عزيزتي الفتاة المهدبة طريقة الحصول على اسم فتاتك التي ستزعمين زيارتها، فسوسن حين وجدت الحارس المحور في انتظارها أصابت نفسها سوبة سعال حادة تمرق بياض القنوب، لتخرج الكلمات منها متقطعة غير مفهومة على النحو التالي
- أنا.. صاعدة.. لزيارة.. منرد اليهيام.

فصحح لها الحارس:

- تقصدين علياء؟

- نعم هي.

- الطابق الرابع.. شقة رقم ١٤.

فهرت سوسن رأسها شاكراً وسعلت قبل أن تسرع إلى المصعد لتأخذها إلى الطابق الرابع، وتركته هناك لتواصل الصعود على الدرج إلى الطابق السادس حيث يعيش سامح كما عرفت سابقاً هكذا تجاوزت الخطوة الأولى بنجاح، وهكذا يأتي دور...

ثانياً: التظاهر بالحماسة.

وهي موهبة تملكها كل الفتيات بلا استثناء، ولا داعي لصنيع وقتنا في الحداد في هذه النقطة. تذكرني عزيزتي القصة المهدبة كيف تظهرت بالحماسة حين صارحك ذلك الشاب بحبه.. حين سألتك أمك عن سر تأخرتك. وحين قدت سيارتك أول مرة لتضطدمني بها لأول سيارة مرت جوارك وبأول شرطي مرور.

الواقع أنه لا توجد فتاة تحترم نفسها لا تحيد التظاهر بالحماسة، وكل

المطلوب منك الآن هو استغلال هذه الموهبة لتطرقني على شقة شاب أعرب، ولتفعلي مثلما فعلت سوسن حين فتحت سامح الباب ليفاجأ بها تنف أمامه، تقول:

- أليست هذه عيادة ال... من؟ سامح؟

- سوسن!

وهنا.. وعلى الفور.. تأتي القاعدة التالية وهي:

ثالثاً: إخفاء مشاعرك الحقيقية بأي طريقة.

وهذه الخطوة كانت الأصعب على سوسن فهي - على الرغم من كل شيء - صعبة.

لقد تحدثت المشهد التالي في رأسها مئات المرات، وفي كل مرة كنت تتخيل الأسوأ حتى بها طست أنها ورثت موهبة الأفكار السوداء من أمها ستطرق الحرس وسيفتح سامح الباب ليجدها تقف أمامه وستتدى الدهشة على ملامحه الوسيمة، فماداً سيكون أول شيء تقوله هي وأول شيء يقوله هو؟

ماذا لو أغلق بابي وجهها رافضاً رؤيتها؟

ماذا لو لم يكن بمفرده؟

ماذا لو تبدت اللهفة في عينيه؟

وماذا لو لم يتذكرها؟

هذا الاحتمال بالذات استوقفها طويلاً وبدا لها أشد قسوة من أي

احتمار آخر.. لو رآها سامح ولم يتذكرها فيكون هذا قد سب عليها حق.
فما من امرأة تتحمل أن يساهم الرجل الوحيد الذي أحته في حياتها لو
لم يتذكرها أو لو استغيبها سرود من لا يريد رؤيتها فستقبل نفسها على
الفور ومن دون لحظة تردد.

في كل الأحوال سيكون عليها أن تداري مشاعرها، وأن تتصالح إني
أن تنتهي مهمتها هنا، لكن سامح حاشا توقعاتها بأن شغقت الهبة في
ملامحه الوسيمة، ليقول:

- سوسن.. يا لها من مفاجأة سعيدة!

فحاولت هي الالتزام بقاعدة إخفاء مشاعرها لتجد أنها أشد صعوبة
منما تحسنت وقد كشفت في هذه اللحظة بالذات أنها لا تزال تحبه!

في لحظة واحدة ستعدت سوسن كل ذكرياتها معه كل طرائفهما
كل همسهما كل كلمة حب تدلاها وكل وعد أحلفه هو حين آخرها
في النهاية بأنه سيرحل وأن «النصيب» لم يكن في صالحهما كما كان
يتمنى في لحظة واحدة ستعدت سوسن كل ما كان وكل ما تحسنت أنه
سيكون، فتندى الحزن في عيناها وارتكت، بنصيب ارتكها سامح الذي
حرج صوته متحذلاً هذه المرأة.

- كيف، كيف حالت؟

فحسنت سوسن عن أفصل رد ممكن، لتكون إحسانها في النهاية هي

- سامح.. أسمح لي بالدخول؟

وكان هذا عملاً منها بالقاعدة الأخيرة وهي:

رابعاً: احصلي على ما جئت من أجله وارحلي بسرعة

كان يمكنها هنا أن تبحث عن عذر للدخول، أو أن تتظاهر بالدوار
تسمح نفسها مراراً عملاً بقاعدة الانتظار بالحكمة - لكن سوسن كانت
تريد برحيل حقا وقد أدركت أنها لم تتمكن من إخفاء حقيقة مشاعرها
صوباً.. لهذا كان هذا ردها، ولهذا أصيب سامح بدهشة، ليرتسم التردد
عنى ملامحه، فوجهته هي إليه لتريحه من طريقها داخل شقته، من دون
أن تمنحه فرصة للتفكير، فالرفض.

بصرف وقح؟ بالطبع لكها أنت إلى هنا ولن تعود إلا بعد أن تفهم
ماذا طلب الشيء منها المجيء.

هكذا فوجئت نفسها بحظوظ حسن شقته، وفوجئ بنفسه لا يعترض،
بل سعيه إلى لدخل نرك باب شقته مفتوحاً - انتصرف الوحيد اللائق
في موقف كهذا - وقد تعاطفت دهشته، وهو يقول:

- لكن.. تفضلي بالدخول!

لقد تحبه هي وقد فشلت في عشور على شيء بقدر فقط اكتفت بالوقوف
في صالة شقته ترمق لأثاث بني حمى نمسة أنوية وصحة لقد تروح بأخرى
بد، وهو في طريقه بدروح.. هذا يعني أن تلك الأخرى هي أو أنها ستجد
صورته على لأقل في نعمه هاهي صورتها مع سامح في طرأيق موضوع
على إحدى بطولات. صورة حظوة لا ردف بد هو لم يتروح بعد

تياً.. لماذا تشعر بالغيرة الآن؟!

ورأى هو صورتها إلى صورة حظيه فقام على الفور مشيراً إليها كأنه
يدكر نفسه بوجودها في حياته:

- إنها هدى. حظيتي ستروح قريباً.

قالتها ثم فوحى: نفسه يشعر بالدم وكأنه تسرع في قوله هدى. أو
سوس فحادثت لإحفاء غيرتها وأشاحت بوجهها بعيداً عن صورة من
تركها لأجلها، لتقول

. سامح أن لا أعرف لماذا أتيت إلى هنا.

قالتها لأنها الحقيقية، ولأنها كانت أول جملة تكلم بها عقلها عليها
فأحبها سامح بالمريد من الارتباك والحيرة، ومرّت اللحظات ثقيلة عليهما،
قل أن يقول هو محاولاً السيطرة على نفسه:

- سأعد لك شيئاً تشريته.

وأسرع ناحياً نفسه إلى المطبخ، فطلت هي مكثت تفوم رعدة كسحة
احتاحتها بأن تفر من الشقة لقد أطاعت الشيء وأتت إلى هنا ولم تحده
والآن لم يعد لديها مرر لتقى هنا أكثر من هدا، وكل ما عليها فعله الآن
هو الرحيل وقبل أن يخرج لها سامح من المطبخ ..

- سوسن .. ما الذي حدث؟

قالت سامح الذي حرج فحاة من المطبخ وقد بدا عليه أنه لم يُطق
احتمال حيرته أكثر، في اللحظة التي بدت هي فيها باب شفته نهم بالحروج
مها، فتوقفت مكثها واستدرت له بطة محاولة البحث عن أفضل كدة
ممكة

- سامح، أنا .. أنا هنا لأنني أريد كتابي.

- كتابك؟!

. نعم. كتابي الذي أحدثه عني قبل أن قبل أن ترحل لقد بحثت
عنه طويلاً وتذكرت في نهاية أسبي تركته معك وأنا أحتاج إليه الآن
وبشدة

فإنها ثم تمت في أعماقها لو عدت إلى الصحراء التي أخذها إليها
شيء لتستعير رملها!

كدها!

أنم بعد عذراً أوهي وأسحب من هدا؟!!

حتى هو شعر بما شعر به داته، وإن تظاهر بالتذكر ليقول:

- نعم .. كتابك .. ربما هو في غرفة المكتب .. لكن .. أيمكنك أن

تذكريني باسمه؟

. سأبحث أنا عنه

ومن دون أن يحس فرصة للرد اندفعت عبر ممرات الشقة باحثة عن غرفة
المكتب لتجدها الوحيدة المصهية أمامها، فدخلتها ووقفت في دحليها أمام
المكتب التي اكتظت بالكتب والمرجع الهندسية، تبدأ البحث عن كتابها
لذي لا وجود له هنا كان تصرفها عجباً بحق، فكأنفقاً على أسأل شعل
.. بالطريقة التي تفكر بها المرأة .. بها تريد اتباع المريد من الوقت وكفى.
هكذا وقفت أمام مكتبة تنظر بالبحث محاولة تجاهر نفسها الذي
سارعت بصانته، وسامح يدحس عبيها وقد بدأت حيرته في التحول إلى
نصيق، لكنه وقف قربها من دون أن ينطق بحرف وإن بدا عليه أنه ينتظر
المنحظة التي ستخرج فيها سوسن من شقته ومن حياته إلى الأبد.

لا بأس.

بها تنفهم موقفه.. إنها فتاة في شقة رحل أعرب موشك على الرواح،
ولو أنت خطيبته الآن ورأتها هنا فلن نصدق أن هذا أنها تبحث عن كتاب،
ولن تمر هذه الليلة بسلام.. إنها تنفهم هذا كله، وهي مثله تنتظر اللحظة
التي ستخرج فيها من هنا، لكن عينيها أن تعرف أولاً لماذا صبت فيها الشيء،
المعجب إلى الشقة.

«ستكون بدايتك هناك.. وسأكون في انتظارك..».

الشيء أخبرها بهذا، وما هي هنا.. فأين هو؟

ومع تسارع نبضات قلبها تباطأ الزمن من حولها وشعرت بكل لحظة
تمر عينيها ثقيلة بركة تدنو روحها، وروح سامح الذي حول انتعش
على امعالاته بأن قام

.. لمحسن حفظك أنك تذكرت كتابك هذا قبل أن أسافر.

.. مستأجر؟

.. نهاية هذا الأسرع.. سأأروح، وبعدها سأأخذ هدى وسأرحل إلى
الوحدات لتسلم عملها هناك

واسم قبل أن يردف

.. مستقضي شهر العسل وسط الصحراء.

وسمضت سوسس والتمست إليه على الفور سرعه برجع حولها مذهشاً.

صائحة:

.. صحراء؟

.. نعم. صحراء. مستقضي هناك بضعة أشهر في نزل من الأبرال المعدة
خصيصاً للمهندسي الموقع و..

ونكن سوسس لم تُصغ لما قاله بعدها.. أمامها تحركت شفتا سامح
تشرحان الموقف، لكن في أذنيها لم تسمع سوى صهيل الأحصنة، وفي
وجهها شعرت بالرياح الساخنة المحملة بالأتربة.

الصحراء.

لهذا أخذها الشيء إلى هناك.

لأنه كان يعرف!

لأن انصحت لها معالم الكاوس الذي ستحياء أكثر، والآن يجد صوت
سامح طريقه إلى أذنيها لتسمعه يواصل:

.. لكنا مستقضي بعض الوقت الممتع هناك على الرغم من كل شيء..
هناك ردي فروسية قريب من الموقع الذي سيعمل فيه، وهدى تعشق
ركوب الحيل حقاً و

ونكن سوسس فقدت قدرتها على التحمل، فترجعت وقد اكتسبها دوار
عصب أفقدها قدرتها على الاتزان وأصاب سامح بالهلع ليسرع لها
وليمسك بها، صائحاً:

.. سوسس.. ما الذي أصابك؟

فلم تجبه وقد فقدت كل الإجابات معناها فجأة.

صحراء؟ هدى تعشق ركوب الخيل؟ لقد فهمت الموقف كاملاً.

إن الشيء يريد إصابتها بالجنون!

يريد إصابتها بالجنون ويريد أن يستعرض لها قدراته، ولقد نجح في هذا نجاحاً كاملاً.. والآن لم يعد لبقائهما سرراً، والآن عليها أن تستعيد سابق علاقتها بالجادبية الأرضية لترحل من هنا.. و.. و..

ولماذا يد سامح ساخنة إلى هذه الدرجة؟!

انترعها هذا السؤال من دوارها لتحد نفسها تحديق في وجه سامح الذي انهمر العرق على وجهه فجأة لتسمع أمرات الهلع عليه، لكنه لم يتركها فأخذت تحديق في وجهه بحرف. إن يده ساخنة حقاً؟ كأنه محموم بل أكثر سخونة.

كان قد أمسك بها ليمسحها من السقوط حين أصيبت بالدوار، لكنها لآر تشعر بيده ساخنة تكاد تحرق ذراعها، حتى إنها انترعتها من بين أصابعه ألماً فتراحع هو ليحاول أن يعتذر لكن صوته حرج من حنجرته مبحوحاً وقد احتقت فيه الكلمات لتموت على شفتيه قبل أن تحرج.. ومن وجهه تصيب العرق أنهاراً كأنه يقف في أتون ملتهب.

ما الذي يحدث؟

هنا لم تعد سوسن تشعر بالدوار، لكنها شعرت كأنها تفقد اتصالها بالعالم الخارجي قبل أن تفقد اتصالها بجسدها كله. كأنها حرجت منه لتحديق فيها إذ وفقت آدم سامح الذي حاول النطق من جديد قبل أن يمسك بمعدنه فجأة، لتتلوى ملامحه ألماً هذه المرة، وقد أخذ العرق يهمر من جسده كله ليغرق ملبسه.

ما الذي يحدث؟

سوسن الآن تشعر كأنها تحلم.. تماماً كما وجدت نفسها في تلك الصحراء التي نقلها إليها شيء في ريدته الأولى، لكن سامح هو الذي يحرق أسفل شمسها هذه المرة.. اللون الأحمر يجد طريقه إلى جلده ندي أوشك العرق في مسامه على التحول إلى بخار، وما هي عيناه تسعدن بمزيج من الألم والذهول.. أم إنهما تنتفخان؟

ما الذي يحدث؟

لكنه يحاول التحرك.. بحطوات أصعب من خطوات طفل يتعلم المشي، يحاول سامح الاتجاه إلى مكتبه، وسوسن بجسدها تقف أمامه لا تتحرك ولا تنطق بشيء، بينما سوسن الحقيقية تحلق في سماء الغرفة، وأصوات صهيل الجياد ورياح الصحراء تحيط بها كأشودة ترفق سامح في حصواته الأخيرة.

ربما هو مريض حقاً. ربما هو يتجه إلى مكتبه ليخرج دواءه من أحد أدراجة. ربما لو أخذه سيتحسن وسينجو وستخرج هي من هنا قبل أن يحدث ما تشعر بأنه سيحدث. لكن، أي مرض هذا الذي تنصعد معه لأدحة من حسدك وكذلك تحترق؟

ما الذي يحدث؟

مع سامح مقعده حلف لمكتبه أخيراً، فألقى بجسده الذي بدأ يتورم حرقاً عنه، وإن طلت أصابعه متشنجة بمعدته كأنه ابتلع سمّاً يمزقها تمزيقاً. كأنه، لأن السموم تقتل لكنها لا تحرق، ولدي تراه سوسن أمامها الآن هو رحل يحترق. وسرعة

يحترق من الداخل إلى الخارج.

وفي وجهه - الذي تحول إلى كتلة حمراء يصعب فيها تمييز ملامح آدمية - اتسعت عينتا سامح أكثر، وازداد حجمهما أكثر فأكثر، وتبدى فيهما الألم والخوف والعجز، قبل أن يتبدى فيهما فقدان الصبر.. عيان بهذا الحجم وبهذا اللون لا تصلحان للرؤية، وها هو الآن يحاور الصراخ هذه المرة، لكن أي صرخات تنتظرها من حنجرة مضجت بالمعنى الحرفي للكلمة؟

ما الذي يحدث؟

الأدخنة تتصاعد من جسده حاملة رائحة الشواء، لكن سوسس بجسده لا تتحرك وبروحها تحاول إقناع نفسها بأنه مجرد كانوس مستيقظ منه في النهاية.. كانوس سينتهي بها في فراشها في عرفتة كما أمرتها أمها، وبسامح حيًا في شقته ينتظر أن يتروح بهدى التي تعشق ركوب الحبل، ليسافر معها إلى صحراء لا وجود للشيء فيها. رباه - اجعله كانوسًا!

ثم أحد جلد سامح في العليان ومن فمه أحد لسانه يخرج ببطء وقد تصاعف حجمه، بعدها انشأ جدعه وصعط هو أكثر على معدته كأنه يحاول أن يقيء فخرجت من فمه أصوات لن تساها سوسس ما تنقى لها من عُمر - أصوات امتزجت بصوت لحم يشوى، وبصوت شيء يخرج من جسد لم يعد يبدو شريًا على الإطلاق - ثم وببطء رفع يديه إلى وجهه ليتحسسها وتتصقت يده الدائتان بوجهه الذي لم يعد وحنًا - رباه - اجعله مات فعلاً ولا تصل عدائه!

ما.. الذي.. يحدث؟!

ثم تحققت أمية سوسس الأخيرة بأن لفظ جسد سامح أمامها ما تنقى من

حياته في شهقة خرجت من فمه أشبه بصغير يعلن اكتمال نضجه، ليتحول إلى رجل الوحيد الذي أحبته سوسس في حياتها إلى حنة محترقة مال رأسها إلى الأمام ليستقط من فمها شيء ارتطم بسطح المكتب، مصدرًا رنينًا نعد سوسس إلى جسده وأعاد لها قدرتها على الصراخ وفقدان الوعي لكنها لم تصرخ ولم تهو فاقدة الوعي.

معجزة ما لم تفعل لتقف وسط الأدخنة التي اختنقت لها جدران لعرفة، ترتجف وتحرق في ما خرج من جسد سامح المحترق واستقر أمامه ينتظر منها أن تأخذه.

لأن تمهم.

لأن تعرف لماذا طلب منها الشيء المجيء إلى هنا.

ولأن ها هي تتزعزع نفسها من جمودها لتأخذ ذلك الممثاق العتيق ذا النقوش العجيبة الذي خرج من جسد من كان سامح.

قد انتهت مهمتها هنا.

والآن يأتي وقت الهرب.

ولأن الوقت أصيق من أن نصيغه في ذكر كل التفاصيل فسأترك لك مهمة تحيل ما حدث لسوسس يومها.

نحيل دعرها وحررتها وصدمتها ودهولها وتحيل كيف عادت إلى منزلها تنصب من والديها الرحيل وبأقصى سرعة.

تخيل - إن استطعت - رد فعل أمها وحيرة والدها وهو يسألها عما حدث، وتخيل كيف أقعته سوس في الهدية بأن يحزم حقائبه ويأخذها هي وأمها إلى منزل جدها الذي لم تظأ قدم منذ وفاته.

ثم.. وفي النهاية.. حاول أن تتخيل صدمة سوس حين وجدت الشيء ينتظرها هناك ليبدأ معها لعنة.

في تلك الليلة مات سوس أخيراً. وبعد أيام طويلة قضتها في البكاء، والارتجاف والانتفاض كلما سمعت صوتاً يقترب منها.

إنهم قادمون من أجلها.

الشيء سيأتي ليواصل تدمير حياتها، تماماً كما فعل مع أسناده محدي، ولشرطة ستأتي لتلقي القبض عليها بتهمة قتل سامح، فهي كدت أحر من رآه حياً قبل أن يحترق من الداخل إلى الخارج، وحطبه هدى ستأتي إليها على صهوة حواد لتدق عظامها بحوافره انتقاماً منها لمصرع حطبه، وأمها ستأتي إليها لتواصل استجوابها محاولة أن تعرف ما الذي حدث بالتحديد.

هكذا يتلخص العالم الحارحي في مطاردين تحتمي سوس منهم بجدران غرفة جدها، التي قرر أبوها تركها لها مفصلاً النوم في الغرفة المجاورة، وقد وجد أنه لن يطيق النوم على الفراش ذاته الذي مات أبوه عليه، لكنه لم يعلن صراحة، بل قرر أنه سيبترك الغرفة الأكبر لسوس ليساعدها اتساعها على الاسترخاء، ولتحدث، وسيحاول هو إحراس أمها في الغرفة الضيقة وإلى أطول فترة ممكنة، حتى تقرر سوس الخروج إليهما لتمسحهما الحقيقة.

لكن.. كيف ستخبرهما بالحقيقة؟ وكيف لهما أن يصدقاهما؟

قد تجاوز الموقف مرحلة الاعترافات فالبكاء فالفقران فالبدء من جديد تجاوزه حين هوى رأس سامح المحترق أمامها ليخرج منه مفتاح احتضت هي به معها في العرفة داتها، وإن عجزت عن إحراره من حقيبتها، كأي ترفض الاعتراف بوجوده.. اعترافها بوجوده يعني اعترافها بأنها كدت في منزل سامح، وأنها رأت يحترق أمامها، وأنها هدرت الآن من حريمة قتلها، لكنه لو اختفى - بمعجزة ما - فربما سيعني هذا أن كل ما مرت به حتى الآن هو كابوس لا أكثر.

كسوس سيتحول إلى واقع مرير لو أحرحت المفتاح من حقيبتها، بدأ لن تخرجه!

تكمبها حدران العرفة، ونكسها صورة حده المعلقة أمام فراشه، يطل من عيناها بانتسابته التي أفقدتها طويلاً.. كأنه يحرقها بأنه معها وبأنه لن يترك الشيء يدمر حياتها.

حده الذي كان لا يذهب إلا بـ «يا سوسة» فكانت تصحك هي وتنقي نفسها على ساقه لتدفن وجهها في لحيته البيضاء الطويلة، لتشم فيها راحة المسك والأمان وعبق السنوات الطويلة التي عاشها جده قبل أن يموت وحيداً في فراشه، حيث تحس هي الآن تقاوم النوم بأحر ما تبقى لديها من قدرة على التحمل.. لكن ها هو حدها يتسم لها الآن في صورته يحرقها بأنه لا بأس.. يا صغيرتي وسأطرحك لأحرست.. لن يأخذك الشيء ولن يفتح عرلتك أحد يا سوسة وطمشي فأنا من أحدث.

هكذا استسلمت سوس في النهاية، وهكذا تكورت على فرشها تبحث

عن رائحته فيه، إلى أن عانت عن ديانا لتمنح عقلها المنهك نوماً استحققه منذ زمن طويل.

وفي أحلامها اختلطت الذكريات بالهلاوس، فوجدت نفسها هناك في الصحراء تهيم على الرمال الساخنة وقد ماتت الأصوات من حولها ليعتصرها صمت أطبق عليها من كل الجهات. وأمامها ووسط الرمال والرياح أخذ جسد بشري يتشكل كالسراب في صورة الدكتور مجدي لتجده أمامها ينظر إليها في إشفاق. بادت هي عليه لكن صوتها امتزج بالصمت فلم يبلع أذنيه حتى.. وأمامها داب سراب الدكتور مجدي أسفل الشمس قبل أن يعود ليتشكل من جديد في صورة أنه بوحه الشاحب وطرقاته الحادة التي سددها إليها للحظة انقضت فيها، قبل أن يتدد هر الآخر ليتشكل السراب مرة أخرى في صورة سامع الذي أحبه فتركها فرأته في النهاية يموت أمامها من دون أن تملك له شيئاً.

رأته مشعرت بقلها ينش لهمة لكنها حين حاولت الاقتراب منه وحدثه بتبدد مع كل خطوة خطتها تحاهه إلى أن احتفى أمام عيبيها ليتشكل السراب هذه المرة في صورة جدها بتسامته الحنون ولحيته البيضاء الطويلة وهذه المرة أسرع سوسن إليه بلهفة من تحشى أن يتدد ملاذها الأخير، لكنه ظل هناك ينتظرها ماداً ذراعيه إليها، حتى بدعته لتلقي بنفسها بينهما تحت عن أمان لم تجده هناك.

لكن وبين ذراعيه لم تجد سوسن اندفء أيدي اعناده منه، ومن لحيته البيضاء لم تشتم رائحة المسك والذكريات.. وحين انتزعت نفسها منه وجدت أن ابتسامته لا تزال هناك على شفثيه، لكن لم تكن ابتسامته الودود التي أغرتها بالنوم على أرض الواقع.

تلك الابتسامة التي رأتها سوسن على شفثيه كانت تختلف. كانت محببة.

وكانت عيابه تنوهجان بقوة وقد فقدتا أي أثر لجدها فيهما، فانتزعت نفسها من بين ذراعيه وتراجعت ذاهلة ترتجف، لكنه ظل مكانه يتنسم لها، وحين تحدث خرج الصوت العايب البارد من بين شفثيه يقول:
..والآن متبدأ اللعبة.

وما حين صرحت سوسن خرج صوتها منها أحياناً ليحرق أسجة الصمت من حولها وليوقظها من حلمها الذي هو إلى الكابوس أقرب، لكنها حين فتحت عيبيها وجدت أنها لم تعد في منزل جدها ولم تعد ترفد على فراشه.. بل وجدت نفسها هناك.
في ذلك المنزل.



لكن.. أين؟

إيه نيس مرل جده ولا مرلها ولا حتى الصحراء التي أخذها إليها
شيء أول مرة والتي زارتها ثانية في كابوسها.. إذن..

أين هي؟!

وجدت عيبه في القاعة التي تسلسل إليها صوته شاحب عبر نوافذ عالية
معقفة، ليرى تلك اللوحات العجيبة التي غطت حدران القاعة، والتي
لم ترسمها يد بشرية، فلا يوحد بشري قادر على رسم لوحات تتحرك!

وكانت لوحات في شطر سوس على لحدرك، وكانت لرسوم فيها
تتحرك مكررة مشهد عيب كشريط سينمائي يتكرر بلا نهاية.. وفي اللوحات
أمامها رأت سوس نفسها في كل لوحة، لكنها كانت قد تركت قدرتها على
الدهول هناك في مرل جدها الذي لا تعرف إن كانت ستعود له أبداً أم لا.

في لوحة الأولى رأت نفسها حين كانت تحلس مع الدكتور مجدي
في ذلك الكافيه القريب من كليتها حين أتى إليها ليعترف لها بالحقيقة
فلم تُحاول قتل أمه - الذي هو ليس أمه - لتبدأ بهايته ونهايتها.. لقد
كانت آخر مرة رآته فيها، وها هي الآن تراه من جديد في اللوحة أمامها،
ولسؤال الآن يتكرر..

٢

وما حدث هو أن يوسف وجد نفسه في ذلك المنزل.

وحين فتحت سوس عينيها وجدت نفسها في ذلك المنزل وشعرت
به من حولها وكأنه كان يتطرها منذ زمن طويل.

من حوله تبدل المكان تماماً ليفتح يوسف عيبه مستيقظاً بعتة، وليجد
نفسه في قاعة متسعة يكسوها الطلام والبرودة.

يتطرها وها هو يرحب بها الآن بالطلام والبرودة، وها هي تتلمت
حولها لتجد أنها تقف في قاعة متسعة لا يوجد فيها معها إلا سؤال واحد
طريقه إلى عقلها على الرغم من الظلام..

أين هو؟

ما الذي يحدث؟

* * *

أين هي؟

في اللوحة الثانية رأت نفسها حين كانت تعدو في الصحراء والجبد تطردها مثيرة عاصفة من الرمال تراقصت أمامها في اللوحة، معيدة لها كل الذعر الذي شعرت به حينها.. ومع الذعر ابراح سؤال «أين هي؟» من رأسها ليحل محله سؤال..

* * *

من الذي رسم هذه اللوحات؟

* * *

لكنه سؤال كسابقه لم يحظَ بإجابة.

وفي اللوحة الثالثة رأت سوسن نفسها حين كانت تقف في ممر سامح، ورائه يقف أمامها والأبخرة تتصاعد من جسده.. الآن سيحترق سامح أمامها من الداخل إلى الخارج، وها هي الآن تشاهد نهايته للمرة الثانية من دون أن تملك له شيئاً، ومن دون أن تملك لنفسها تفسيراً.. لكن عقلها استوعب تلك الحقيقة التي رفض تصديق منطقها.

إن اللوحات تحكي قصتها!

لكن.. كيف؟

أين هي؟

كنا أسئلة لم نعدك لها إجابات، ولم نقف على مواجهة إغراء رؤية باقي اللوحات، فاتجهت سوسن كالمأخوذة إلى اللوحة الرابعة، لتجد نفسها فيها تحتم على صدر يوسف تفيض على سكين هائل الحجم تعرسه هي عقه، بينما يرقد هو أسفها عاجز عن المقاومة بلحية استطالت وحسدراد يحوله.. إن هذا لم يحدث بعد لكنه سيحدث. لو كانت اللوحات تحكي قصتها حقاً فهذا يعني أنها ستقتل يوسف قريباً.. ولكن..

لماذا؟

- لأنها قواعد اللعبة..

قلها الصوت العايب وقد انبعث من كل الاتجاهات، فانتفضت وأحدث ندمت حولها يا حنة عن مصدره فلم تجده، لكنه تصاعد مواصلاً:

- أنعرفين ما أكبر كذبة في التاريخ؟

عن ماذا يتحدث؟ وأين هو؟

إن صوته يبعث حرقاً من الاتجاهات الستة، كأنه في كل مكان في اللحظة ذاتها.. وها هو ينبعث من جديد ليجيب عن سؤاله:

- التاريخ كله.

وعلى الرغم من غرابة إجابتها فإن سوسن فهمتها «ماركيز» قلها من قبل. التاريخ ليس ما حدث فعلاً، بل هو ما نكته وكيف تذكره.. حقيقة لن يفهمها إلا من قصى عمره يقرأ في كتب التاريخ حتى يتدى له ريعه، لكنه ليس وقت التأملات، فالصوت العايب عاد ليقول:

- سيكون أمامك خيار وحيد.

خيار وحيد؟

عن ماذا يتحدث؟

- ستستمر اللعبة إلى أن تحصلني على الحقيقة كاملة... ويعدها..

ثم توهجت عينان أمامها مباشرة فصرخت رغماً عنها، ليختم الصوت العابت قواعد لعبته، قائلاً:

- ستدفعين ثمنها غالياً.

قلها فأحد الطلام من حولها يتعاطم ويزداد كثافة لتتلاشى العباد المتوهجتان فيه، وفي اللحظة التالية فقدت سوسن شعورها بالأرض من حولها ووحدت أنها تهوي، فصرحت ثانية، أو فلفل إنها حوت الصراخ.

وفي اللحظة التالية وجدت نفسها وقد عادت إلى حيث تبدأ اللعبة

* * *

وكن أول شيء سمعته حين عادت هو صوت أمها إذ أخذت تردد

- جاء عام ١٧٨٩ بالثورة الفرنسية، كنتيجة حاسمة للصراع الطويل بين طبقة النبلاء وأغنياء رجال الدين، الذين استمدوا ثروتهم وسلطاتهم من الثروة العقارية الهائلة، وتوارث الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عن أسلافهم، من جهة، وبين ما كانت تسمى حينذاك «الطبقة الثالثة»، والتي صمت البرحوارية والفلاحين وصغار الملاك والحرفيين والأجراء والأقنان، من جهة أخرى. هذا الوضع

الطبقي الذي ترسخ منذ العصور الوسطى وضع سوراً عالياً بين الطبقتين

ثم توقفت ليتعالى صوت تمزق ورقة أعقبه صوت لم تستطع سوسن أن تميز كنهه، توقف بعد لحظات ليتعالى صوت أمها من جديد، تقول:

- ان مصدر قوة النظام الإقطاعي على المستوى الاقتصادي، بل أيضاً على مستوى السيطرة الاجتماعية، هو ملكية الأرض، حيث كان من يمكنونها أسياداً للذين يعملون فيها. ولكن مع حلول القرن الحادي عشر، وبداية نمو التجارة، والإنتاج لفائض على التخصيص المحلي، صهر شكل آخر للثروة، هو رؤوس الأموال التجارية الضخمة، التي أصبحت، مع نهايات القرن الثامن عشر، لا غنى عنها لتسيير قطاعات الدولة المختلفة.

فكنت الحقيقة التي احتجت سوسن وقتاً لتصدقها هي:

أن لا أحلم!

لقد عادت بالفعل إلى عالمها وإلى وعيها، وهذا هو الآن ترقد على فراش حدها في عروبه، وصورته معلقة أمامها يطل منها عليها وقد فقدت نسامته كل الود الذي كانت سوسن تشعر به فيها.

لقد عادت - لقد استيقظت.. إنها تسمع الآن صوت أمها التي لم تقرأ كتب تاريخ في حياتها - إن كانت قد قرأت أي كتب أصلاً - تواصل:

- هذه الثروة خلقت معها طبقة قوية اقتصادياً، لكنها لا تملك شيئاً من لقرار السياسي، الذي ظلت طبقة النبلاء محتفظة به، كجزء من امتيازاتها، كانت هذه الطبقة الجديدة هي الطبقة الرخوازية، التي

تشكلت من رجال الصناعة والبنوك وكبار التجار، الذين يطمحون إلى تحرير السوق والتجارة من النظام الاقتصادي القديم، الذي عما عليه الزمن، وإلى إعمائهم من الضرائب الباهظة..

ثم يتوقف صوته.. ويتعالى صوت تمزيق ورقة . يعقبه ذلك الصوت العجيب الذي أرسل بقشعريرة عامصة في جسدها، صاحبها سؤال لا مفر منه ما الذي يحدث؟

لحظات من الصمت ثم يتعالى صوت أمها يردد بألية نامة:

- والمتنوعة التي يفرضها عليهم النظام الإقطاعي وقد كان أن حررت الثورة الفرنسية الجماهير من نار الإقطاع، وفي الوقت ذاته، جعلت من البرجوازية سيادة العالم.

وذلك الجمود الرهيب في صوت أمها كان أكثر ما أثار هلعها.. تلك الشرارة الآلية الرتيبة التي لا تخرج من فم إنسان طبيعي إلا لو كانت مفعلة.. من حق أمها أن تعرف كل شيء عن الثورة الفرنسية، لكن لا يحق لها - مهما كانت الأسباب - أن تردد بهذا الصوت الذي تعالى مكملًا:

- شكلت طبقة النبلاء حوالي ١,٥٪ من سكان فرنسا، عام ١٧٨٩، وكانت هي الطبقة المسيطرة اجتماعيًا في ذلك الوقت. فجميع النبلاء كانوا يتمتعون بامتيازات، شرفية واقتصادية وضرائبية، مثل حمل السيف، مقعد خاص في الكنيسة، قطع الرأس في حالة الإعدام بدل الشنق، حق استخدام سخرة الطرق، حق الصيد، احتكار الحصول على الرتب العالية في الجيش، وعلى المصائب الرفيعة في الكنيسة. ثم صوت تمزيق ورقة.. وهو صوت مؤلم لأي شخص يعشق الكتب..

يعقبه لصوت العجيب الذي يستحيل تمييز مصدره ما لم تره بعينيك . ثم لحظات من الصمت استعلتها سوس لتغادر فراشها وتتجه بحذر إلى باب عرفتها، وقد اكتنفها الذعر داته الذي شعرت به حين سمعت صوت صهي لحصل حرج باب عرفتها في منزلها.

لكن لا أحصة هذه المرة.. فقط صوت أمها يتعالى من جديد بالبيرة دانه برهية ليردد:

- على الرغم من تلك الامتيازات المشتركة بين كل النبلاء، فإنه كان هناك تفاوت بين الشرائح المختلفة لهذه الطبقة، جعلت مصالحها متناقضة في أغلب الأحيان، بل راد ذلك من ضعفها وعدم تماسكها، في مواجعة البرجوازية التي نجحت في استقطاب جزء منها، لصالح مشروعها الثوري، وقد انقسمت هذه الطبقة إلى شرائح متعددة فكان هناك.

لتفقد سوس قدرتها على التحسُّس أخيرًا ولتندفع خارجة من عرفتها ولتجد معاحة قاسية في انتظارها.

على الأريكة كنت أمها ممددة بعينين شاحصتين تحدقون شات في سقف المنزل وتعبير جامد على وجهها.

جسدها كله كان جامدًا متصلًا كأن تيارًا كهربائيًا يسري فيه، والشيء لوحيد اندي كان يتحرك فيها هو فمها، إذ خرج منه صوتها الرتيب يردد:

- سلاء البلاط: وهم النبلاء الذين يعيشون داخل البلاط الملكي على

الهبات التي يقدمها لهم الملك بسجاء، وعلى الأحرار العسكرية.
والأموال التي يجنونها من وراء ممتلكاتهم الضخمة.

وعلى مقربة من أمها كان أبوها يجلس والتعبير الجامد ذاته على وجهه وحسده.. فقط تحركت يده بعد أن توقفت أمها، لتمرق صفحة من كتاب يمسك به، ليكور الورقة الممرقة من دود أن يطر إليها، وليدسها في فمه ليبدأ مصعها مصدرًا ذلك الصوت الذي نمت سوس الآن لو أنها به تعرف مصدره!

لحظات ثم انتلع أبوها الورقة ليسود الصمت مؤقتًا قبل أن يصع يده على الورقة التالية في الكتاب، ليتعالى صوت أمها:

- نبلاء السيف: وهؤلاء هم كبار رجال الجيش، الذين أصدر الميث
قرازا في عام ١٧٨١ بعدم حمل هذا اللقب إلا لمن ثبت أنه حمل
أربع درجات من النبل بشكل متالي.

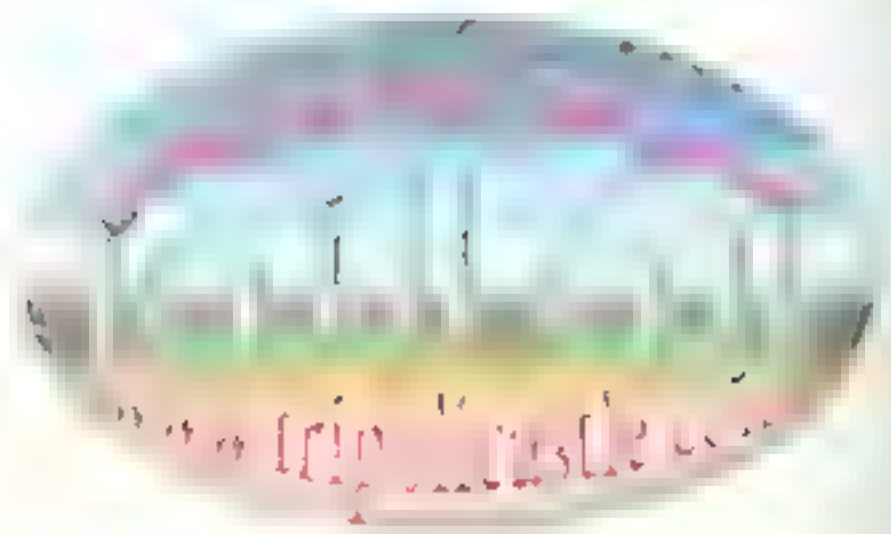
وكان الكتاب الذي يمسك به أبوها يحمل اسم «فلسفة الثورة الفرنسية»
على علافه.. وكانت الحقيقة الآن أمام سوس تتشكل في بطنه كسكين
ينغرس في رأسها رويدًا رويدًا.. ثم مزق أبوها الورقة التالية وكورها
ليدسها في فمه لتبدأ أمها في قراءة ما في الورقة بذات الصوت الذي
لم يعد قابلاً للتحمل:

- نبلاء الرداء: وهؤلاء كانوا يتمتعون بالوظائف الإدارية العليا في
الدولة، وعلى الأخص الوظائف القضائية التي كانوا يتوارثونها
عن جد.

وخذ وقتك في استيعاب الحقيقة، فسوس أخذت وقتها يومها.

وبعد أن أسوعتها انهدرت على ركنيها ووضعت يديها على أذنيها
كأنها تحاول مع صوت أمها من بلوعهما. ثم صرخت

صرخت. وصرخت. وصرخت. وصرخت. وصرخت.
وفي النهاية اعرض سكين الحقيقة في رأسها حتى مقصه، وأدركته
كمئة ونوقست عن لصرح.
لقد بدأت لعبة!



هكذا كانت تقضي نهارها، وفي الليالي كانت الكوايس تنظرها،
وكنت تحدد نفسها فيها في الصحراء يطاردها فيها سامح، وقد أحد يحترق
محدولاً الإمساك بها ليحرقها معه، وفي كل مرة كان يمسك بها لتصرخ
مستيقضة ولتجد أثر أصابعه على جسدها لتنفجر في بكاء مرير يحالطه
صوت أمها إذ تواصل سرد التاريخ على مسامعها بصوتها لرتيب. ثم
صوت تمزيق ورقة.. ثم الصوت الذي أصبحت تعرف الآن ماهيته.

٢

الوقع أن سوسن احتفظت بعقدتها في هذه الأيام بمعجزة حقيقية،
والشيء الوحيد الذي كسر هذا الروتين الرهيب الذي عاشت فيه طويلاً
كان زيارة عصام لمنزل جدها، إذ أتى يبحث عنها

بومها كانت سوسن نحلس في عرفة جدها نحاول سد أديها، وتقاوم
بذك العكرة التي سيطرت عليها مؤحراً، والتي كانت تدفعها لدخول من
العرفه لتهشم رأس أمها ببطرقة لتخرسها.

تذك العكرة تشكلت في رأسها حين تذكرت أستاذها مجدي وما فعه
في اسمه - الذي هو ليس اسمه - وبدت لها الآن معرية إلى الحد الكافي، لكنها -
وبنظير - لم تستسلم لها، وإن أحدثت تقدر في رأسها أكثر من اللازم، حتى
بها بدأت تحشى اللحظة التي ستعقد فيها قدرتها على التحمل لتحولها
إلى تجربة عملية دت نتائج مأسوية.

ستخرج من عرفتها.. ستبحث عن مطرقة.. ستهوي بها على رأس أمها
ثم رأس أبيها، ثم ستفجر في ضحك هستيري سيجذب العالم كله إليها!
بعدها سيقضون عليها وسأخذونها إلى السجن حيث ستقصي فيه

وفي الأيام التالية كرهت سوسن التاريخ حتى لم تعد تطيق أن تقرأ به
أو تسمع عنه حرفاً واحداً.

أمها لم تتوقف عن سرد حقائقه لحظة، وأبوها لم يتوقف عن التهام
صفحاته، مع أنها حاولت معهما بكل الطرق المتاحة، وفي كل مرة كانت
تتناهما بومة من الهياج والصراخ، تنهي بأن تركهما ليواصلتا تعذيبها بأكثر
شيء أحبته في حياتها.

لقد أجاد الشيء لعته حقاً، وما عليها الآن هو أن تتحمل، وألا تفقد
عقلها، وأن تستطر الاختيار الوحيد الذي ستواجهه، وأن تواصل اللعبة
مرغمة حتى نهايتها لتدفع ثمنها غالباً في النهاية كما أحرها الشيء.

كنت قد توقفت عن البحث عن طفوس القصة على الشيء - ولن يستطيع
لومها على هذا - وعادت لتحس نفسها في عرفة جدها، لتقصي أيامها فيها
تبكي وتحاول استيعاب ما هي فيه، وفي بعض الأحيان كانت تجلس هناك
على فراش جدها - الذي أخرجت صورته من العرفة - تمسك بالمفتاح الذي
حصلت عليه من جسد سامح، تتأمله وتساءل: ما الذي سيفتحه؟

ما تبقى لها من أيام، كأستاذة محدي، ترفص التحدث مع أي مخلوق إلى أن يبعدوا فيها حكم الإعدام أو إلى أن يقضي عليها الشيء، أيهما أقرب. هكذا كانت نهاية أستاذة، وهكذا ستكون نهاية أمها لو لم تتوقف أحيرو

وفجأة تعالى صوت طرق على باب الشقة!

سمعتة سوس مع أنها كانت تدفن رأسها أسفل وسادتها فتوقف قلبها عن النص وتقلصت أمعاؤها واكتسبت حاسة السمع في أديها حدة مصاعمة ثم تساءلت: أسمعته حقاً أم إنها تهدي؟

هي الخارج تعالى صوت أمها يروي التاريخ ثم يتوقف لتتمزق ورقة ثم...

تعالى الطرق على باب الشقة ثانية فأدركت سوس أنها لا تهدي!

أحدهم يطرق الباب حقاً.

أحدهم جاء.

جاء من أحدها.

أحدهم يقف الآن أمام باب الشقة وسيتعالى صوت أمها الآن وسيسمعه ليعرف أنهم في الداخل، إلا لو تحركت هي. وقبل أن يفوت الألوان. لها عاد قلبها ليسص بأصعاف سرعته المعتادة، وها قهرت مغادرة الفراش، فالغرفة، لتقصص على أمها ولتصع يدها على فمها قبل أن تبدأ من حديد، فلم تقاومها أمها أو تعترض.. فقط تعالى صوتها مكتوماً من أسفل أصابع سوس التي تصلبت هي الأخرى محدقة في باب الشقة الذي تصاعد الطرق للمرة الثالثة عليه، أعقبه صوت يقول

- يبدو أنه لا يوجد أحد في الداخل.

فتعالى بعده صوت عصام ليحيب:

- لكي سمعت صوتاً

فم نحرؤ سوس على تكديبه.. لقد سمع صوت أمها بالتأكيد صوت أمها الذي يحدون السلل من بين أصابعها، الآن ليؤكد له شكها، فرادت سوس من صعطها على فم أمها وفي صدرها تسارعت نصات قلبها بصورة أحدث تلهث معها محاذرة أن يحرح مبه أدنى صوت.

إنهما وجلان.. أحدهما سمع صوتاً هنا.. وأحدهما يتحدث بلهجة مرة منعطسة لا تليق إلا برحل شرطة رجل شرطة أتى ليقتص عليها. لقد عثروا على جثة سامح إذن!

تعالى الطرق للمرة الرابعة عيماً فكادت سوس أن تصرخ معه، لكنها عصت شفتها بقوة ورادت من صعطها على فم أمها أكثر حتى توقفت ليمرق أثرها ورقة حديد بصوت عالٍ وكان الكتاب الذي يمرقه يصرح الما.. كتاب! يجب أن تأخذه منه.. لكنها لو تركت أمها فسيتعالى صوتها من حديد ولو أحدث الكتاب من أيها فستتبه بومة هباح وسيصرخ، وحيها سيسمعه عصام الذي تعالى صوته في الخارج يقول:

- أسمعته هذا الصوت؟

- أي صوت؟

- أصبت بالصمم؟ هناك صوت داخل الشقة.

- لكي لم أسمع شيئاً!

لكن سوسن كانت تسمع.. وما كانت تسمعه هو الصوت المقزز لأبيها
إد أحد يمصع الورقة التي مرقها، لكنه كان أضعف من أن يبلغ مسامع
عصام الذي يقف خارج الشقة.. لن يسمعه إذن.. لن يسمعه وقد يصيبه
الملل فيرحل لتنجو هي و...

لكن.. وحين تعالى صوت أمها المكتوم من أسفل أصابعها محدّد
تعالى معه صوت عصام وقد بدا أن صبره قد نفذ، ليصبح أمرًا هذه المرة
- اكسر الباب.

قالها فأغمضت سوسن عينيها في قوة - وسمعت صوت باب شقة
يفتح.

* * *

لكنه لم يكر باب شقة جدها الذي فتح

سمعت سوسن صوت باب يفتح لكنه أتى من خارج الشقة، وأتى من
بعده صوت جارة جدها تقول:

- ما الذي يحدث هنا؟

وهي رأت سوسن بعين الخيال ما يحدث خارج شقتها، وشعرت سوء
من اللهفة والأمل.. إنها تعرف هذه الجارة ورأتها أكثر من مرة حين كانت
تأتي لترور جدها، وفي كل مرة كانت تراها فيها كانت تشعر بالخوف
لمادا كانت تشعر بالخوف؟ لأن جارة جدها محيطة حقًا ويجب أن تراها
بنفسك لتفهم ما أعنيه.

يجب أن ترى حسدها الدفين الصحم ووجهها الذي تتراحم فيه التجاعيد

والشعيرات البيضاء، ويجب أن ترى تلك لدبة في جانب فمها - التي أهداها
ياد روحها في محاولة هادئة لتبادل وجهات النظر والتي تجعلها تبدو كمن
يتنسم سحرية قسوة طينة لوقت - ثم عليك أن تسمع صوتها الغليظ - لدي
مبي برحل - يقول

- ما الذي تريده؟

وهي رأت سوسن بعين حيلها عصام وقد أحدثت المفجأة قبل أن يتهدى
لامنعص على وجهه من رآه، ليحاول أن يداريه معلًا:

- أنا لمقدم عصام من مباحث ال...

- له أسألك عن رنتك.. ما الذي تريده؟

تقولها جارة جدها بصوتها العليظ متخيل سوسن ردة فعل عصام ومن
معه، لتتجأ بنفسها تبسم، ولتسمعه بحبيب:

- أريد من في الشقة؟

- لا يوجد أحد هنا.. الشقة خاوية منذ سنوات.

- لكنني سمعت صوتًا و..

- شقة خاوية منذ سنوات.. والآن توقف عن إزعاجي.

صهت عصام الذي لم يتحيل أن يأتي اليوم الذي يحاط به فيه أحدهم
بعده الطريقة، وهو الذي اعتد أن تُعد أوامره بلا معاش، لكنه - وحفاظًا
على ماء وجهه لا أكثر - جاهد ليسيطر على نفسه، وليسأل للمرة الأخيرة:

- أتعرفين منة تدعى سوسن؟

- أعرّفها. وهي ليست هاء... والآن. ارحل!

هكذا أغلقت جارة جدها باب المناقشة، فباب شقتها، فلم تميّز سوس ما قاله عصام بعدها، لكنها تيّب نبرة الدهول في صوته، والاستمتاع في صوت من معه قبل أن يتعالى صوت أقدامهما تهبط الدرج.

لقد نجت!

الآن تستعيد قدرتها على التمسك، والآن تترك حسدها يهوي على الأرض بجوار أمها، التي عادت لتردد ما إن اتراحت أصابع سوس عن فمها!

- عاشت قذائل العما في أحضان عذات المكسيث، وصعدت حصارة من أقوى وأعجب حصارات العالم وصلت إلى دروتها سنة ٢٥٠ ميلادية، حتى سنة ٩٠٠ ميلادية.. ولقد تميّرت حصارة العما بساء المدن والمعابد من لأحدر الصحمة، وكانت كل مدينة من مدن المايا تعتبر مملكة في حد ذاتها، وكان منكمها يُعامل كإله.

لكن سوس لم تعترض وتركها تواصل ترديد ما التهمه والدها الذي بدأ تمزيق ورقة جديدة من الكتاب أمامه.

لقد نجت!

نضات قلبها تتباطأ إلى الحد المسموح به، ومعه ينتظم تنفسها ويسري حذر عحيب في حسدها، لكنها ستسلمت له وقد قررت أنها ستنام هـ في مكانها على لأرض، وبعد أن تستيقظ ستبدأ التفكير في مصيرها وفي مطاردة الشرطه لها، وفي خطواتها التالية، وفي اللعبة التي ستواصلها حتى النهاية لتدفع ثمنها غالياً.

كل هذا من الممكن أن يتطر إلى أن تستيقظ، فهي في حاجة إلى النوم حقاً

لقد نمت.

وكان الدكتور مجدي ينتظرها في حلمها.

كان يجلس في ذلك الكافيه لقريب من كليتها حيث التقىها آخر مرة وكان ينسم

كان المكان حاوياً إلا منه، وقد ارتسمت على وجهه أجمل انتسامة رأب سوس، فلم نستغرق وقتاً طويلاً لتدرك أنها انتسامة رجل مات وانهى دوره في قصة شيء، وأنها تحلم بأنها تراه، فقد عاينها عالمها حقيقي، وبلا رجعة.. لكنها.. وعلى الرغم من هذا.. وحدث نفسها تنحى إليه بلهفة واشتياق محدوة بطق اسمه، لكنها فوجئت نفسها عاخرة صدمه عن تحريث لسانها في فمها

ندت لحيرة على وجهها، وفتحت فمها محاولة التحدث، لكنها لم تستطع، وكأنما فقدت صوتها.. لسانها رقد في فمها رافضاً التحرك، وأحاديث الصوتية رفضت الاستجابة لمحاولتها، فانسحبت انتسامته هو وشار إليها

- احلسي.

فطدعت حائرة، وإن أشارت إني عبقها بما معه أنها عاخرة عن الكلام، فمر مجدي رأسه متفهمًا، وقال:

- لا بأس.. لن نحتاجي إلى قول شيء هذه المرة.

ولم يخفف قوله من حيرتها، لكنها استسلمت لصمتها الإجماعي، ليس هو بنبرة عتاب وجدت طريقها إلى صوته:

- كان ينبغي عليك أن تواصلني البحث عن الطقوس.. كان ينبغي عليك أن تجديها على الرغم من كل ما حدث.

فتصاعد إحساس مقيت بالذنب في أعماق سوسن، وحاولت الدفع عن نفسها لفتح قلبها لمحاولة التحدث من جديد من دون حدود. أما أستاذها فواصل بالنبرة المعاتبة ذاتها:

- لقد بدأ دورك في اللعبة.. وسيكون أمامك الخيار كما أحرك لكن.. هل ستقتلني؟

فأدركت سوسن على الفور أنه يتحدث عنه.. هن يوسف!

لقد هربت من هذا السؤال طويلاً في يقظتها، وهى هو أستاذها يواجهها به في حلمها، لكنها هذه المرة لم تحاول الرد، فهي عاجزة عن الإجابة حقاً. ماذا ستحييه؟ لقد رأت نفسها تقتل يوسف في اللوحة - أو على الأقل نهم بقتله - لكنها لم تفعلها بعد، ولا تعرف إن كانت ستفعلها في النهاية أم لا.

لو كان هذا هو الاختيار الذي ستواجهه، فاللوحة حسمت لها اختيارها قبل أن تأخذ.. اللوحة تقول إنها ستقتله.. إن هذا ما سيحدث.. لماذا؟ لأنها قواعد اللعبة كما أخبرها الشيء!

.. وإن قتلته.. فما الذي سيحدث بعدها؟

سؤال آخر هربت سوسن من إجابته، وهى هي مستحصل على إجابته هي تحشاها

- لن نتركك شيء بعدها.. أنت تعرفين هذا.. لن يسمح لك بالبقاء حية.. لعلته لن تتوقف عند هذا الحد وأنت تعرفين هذا جيداً نعم.. هي تعرف.. لكن.. ما الذي عليها فعله؟

لقد كانت تطارد الشيء لكنها الآن تمنى الهرب منه.

تمنى النجاة، وتمنى أن تعيد لوأديها عقليهما، وتمنى أن ينتهي هذا كله وبأي طريقة ممكنة.

كل هذا تبدى في عينيها وقرأه أستاذها فيهما، ليقول:

- يجب أن تجدي الطقوس يا سوسن.. يجب أن تقضي عليه قبل أن يفرض هو على التاريخ كله.. يجب أن تضعي نهاية له مهما كلفك الأمر.

فتنحت سوسن قلبها من جديد محاولة النطق بألف سؤال، واعتصرت عندها محاولة إرغام حشرتها على الاستجابة لها، لكن أنت أن تخرج سؤالاً واحد.. ومن حولها أخذت الموجودات في التلاشي ببطء.. فقط ظل ذكرى محدي أممها وقد أخذت بتسامته في التلاشي من وجهه، يقول.

- يجب أن تقديه يا سوسن.. من دونه لن تتصيري على شيء أبداً.. وحدي هذا معك.

ثم دس يده في جيبه وأخرجها حاملاً المفتاح العتيق ذا النقوش المعجبة، ليضعه أمامها، مردداً:

- ستحتاجيه في النهاية . لا تركيه أند.

قالها ثم بدأ التلاشي من أمامها سطاء مع باقي الموجودات، وإن تعزني صوته للمرأة الأخيرة قائلاً:

- أنقذيه يا سوسن.. وقبل أن يفوت الأوان.

ثم تحول أستاذها أمام عينيها إلى شبح أقرب إلى ظل تراقص في طريقه للاحتفاء مع كل شيء يحيط بها، لتحاول سوسن المصاداة عبه بلا صوت وبلا أمل.

لكنه في النهاية احتفى، لسجد سوسن نفسها وحيدة في الكافية الذي أخذت جدرانها في التلاشي ببطء.

ها أدركت أنها ستسقيط، وإن تمت لو بقيت ها وبقي أستاذها معها ستسقيط وستعود إلى عالمها وإلى الأسئلة المربرة التي لم يعد من المسموح لها الهرب منها أكثر من ذلك

أغلقت عينيها باستسلام حزين وتركت عالم الحلم يتدد من حولها لتبدأ رحلتها إلى أرض الواقع

لكنها لم تكن تعرف ما كان ينتظرها هناك

* * *

حين عادت، وجدت أنها لا تزال ترقد على الأرض بجوار الأريكة التي كانت أمها تتمدد عليها، لكنها لم تكن هناك.

رفعت رأسها عن الأرض وشعرت به ثقيلًا بكل ما يحويه من أسئلة

ودكريات، ونسقت حولها بحثًا عن أمها لكنها لم تجدها. لا هي ولا أباهها. وفقت بحسد أنهنكه الأحلام، وحالت في الشقة تبحث عنهما فوجدتهما في غرفة حدها بحسن على فراشه رفيع رأسيهما إلى الأعلى يحدقان في سقف الغرفة شات عجب، وقد فعر كل واحد منهما فمه على اتساعه

ما لذي ستمعلاه هذه المرة؟

منا تصاعد صوت - لم تعرف سوسن صاحبه - من فم أبيها المفتوح، يقول:
- سيادة المقدم.. نحن مستعدون للتحرك.

وهو صوت أصاب سوسن بالدهشة.. إنه ليس صوت أبيها! لكن ما صابها بالدهول حقًا كان صوت عصام الذي تصعد من فم أمها يقول:
- وما الذي تنتظرونه؟ إنني في طريقي إلى هناك بالفعل.

سمعته واضحًا وعرفت أنه هو. إنه ذلك المقدم الذي كان حاول فتحه شقة حدها صوته يتصعد الآن من فم أمها المفتوح من دون أن يحرك، ويواصل:

- تحركوا وسرعة - يجب أن نقصص عليه قبل أن يحاول الهرب.

فأدركت سوسن - على الرغم من دهولها - أنها تستمع إلى مكالمة هادئة مكلمة هاتفة تبحث من والديها كأبهما تحولاً إلى مكثري صوت شرين! ومن فم أبيها عاد الصوت الغريب يتصاعد قائلاً:

- نكنك لم نسمعك العوان نحن نعرف أنه في طريقنا لنقصص على يوسف، لكن لا نعرف أين هو.

يوسف!

إنهم في طريقهم للقبض على يوسف!

لا وقت للذهول هنا أو الاستيعاب، فعصام في طريقه إليه الآن، وها هو صوته يتصاعد من فم أمها، يقول:

- إيه في فندق ؟...! العنوان هو ؟...! أمرعوا.

ثم توقفت الأصوات عن التصاعد من فم أبيها وأمها، فأدركت سوسر أن المكالمة انتهت وأن دورها قد بدأ.

كيف سمعت مكالمة تدور بين ضابط وزميله تصاعد من حسدي والديها؟ لا يهم! المهم الآن أن تتحرك وبسرعة وقبل أن يموت الأوان أن تسرع إلى يوسف لتنقذه..

ولكن أباهما حتى رأسه فجأة ليحدث فيها مباشرة، وليقول - مستعجلاً صوته الذي افتقدته سوسر طويلاً:

- إماما نحن وإماما هو.

فتجمدت سوسر مكانها وقد هوى قول أبيها عليها كصربة سوط

«سيكون أمامك خيار وحيد..».

كان هذا ما أخبرها به الشيء، وها هو أبوها يمنحها الآن هذا الاختيار برسالة واضحة شديدة الاختصار:

إماما نحن.. وإماما هو.

إماما أن تنفذ يوسف وتفقدهما.. وإماما أن تقتله كما رأت نفسها تفعل في اللوحة.. وحينها ستخسر كل شيء..

والآن.. عليها أن تختار!

صع نفسك مكانها وحاول أن تحسم قرارك وبسرعة، فلا وقت أمامك للتفكير، ولا رجعة عما ستقرره.

بما نحن وإماما هو.

بما أن نطع الدكتور محدي لتفقد يوسف الذي لن تستطيع من دونه نصاء على الشيء كما أحررها.. وإماما أن تقتله.

نحن نعرف ما الذي احترته سوسر في النهاية، لكن ما لم يكن يعرفه هو شيء الذي حدث، والذي حسم به اختيارها في هذه الليلة ففي لحظة التي كانت سوسر تقف فيها أمام والديها ترتحف عذرة عن تحدد قرارها، سقطت دمعة واحدة من عيني أبيها، وسالت على حث حبه بقاء. دمعة حملت كل عذابه وألمه وكن ما يشعر به الآن هو وأمها تحت سطرة الشيء

دمعة رأتها سوسر فانتزعت نفسها من جمودها وذهولها، وتحركت بسرعة وقد فهمت أخيراً أن اللوحة الرابعة كانت مُحقة.

بما نحن وإماما هو.

وهي حذرت أن تقتل يوسف

* * *

وأنت تعرف ما الذي حدث بعدها.

نقد وصلنا إلى لحظة الحقيقة كما يقولون، وما حدث قبلها سهل الحد ور عليه بسرعة لنعود إلى الحاضر، وإلى سوسر التي تهتم بغرس

سكينها هي عرق يوسف.. كل ما سنفعله الآن هو أننا سنملاً بعض التجاوب
في الأحداث التي مرّت على يوسف في الليلة التي هرب فيها من عرفته في
الفندق ليحدد نفسه في زمن «إيراث» ويواجه الموت بعدها في سيارته.

ليلتها وصلت سوسن إلى الفندق أولاً - إذ كانت شقة جدها أقرب
إليه ممّا تحيلت لحسن حظها، أو لسوته - وقد أخذت قسوة عحية تحدد
طريقها إلى قلبها لتساعدها على تفيد ما هي مُقدمة عليه - القسوة ذاتها
التي شعر بها يوسف حين خرج من مرل الدكتوراة ليلى بعد أن قتلها - لو
كنت تذكر - هناك وجدت أن عصام لم يصل بعد، لكنها كانت تعرف أنها
مسألة وقت لا أكثر، لهذا لم تتوقف ولو للحظة واحدة.. من أحد العاملين
في الفندق عرفت رقم غرفة يوسف، فأسرعت صاعدة إليها، وقد أخذت
القرارات تتوالد في رأسها بسرعة

لن تقتله هنا بالطبع إلا لو أرادت أن يصل عصام ليقص عليها الليلة
ولن تترك يوسف هنا وإلا فستفقد فرصة قتله وإيقاد الديها.. إذن يجب
أن تُخرجه من هنا.

يمكنها أن تقتحم عليه عرفته وأن تخرجه رغم أنه معها، لكنه لو رآه
مسيضيع وقت لا تملكه هي في الدهشة والتساؤل وربما رفضه أن يحدد
المكان معها لأي سبب.. إذن يجب أن تجبره على الخروج بأسرع وسيلة
ممكنة - يجب أن تجعل هربه من هنا قراره هو لا قرارها - لهذا وقعت
أمام غرفته ولهذا أخرجت من حقيبتها ورقة خطت عليها كلمة واحدة
«اهرب!».

ثم دسها أسفل باب غرفته وأسرعت مبتعدة واثقة من أن حيلتها هذه

متجح.. لو كان يوسف يحتب في هذا الفندق من عصام أو من الشيء،
فمجرد وصول رسالة إليه تطالبه بالهرب سيكفيه ليمقد اثرائه ويبادر
بالهرب - سيحمل معه ما يمكنه حمله وسيخرج من الفندق ليتعد عنه
والى أقصى حد ممكن، لكنها ستكون في انتظاره - وستقتله.

هكذا وفي اللحظة التي قرأ فيها رسالتها كانت هي تخرج من الفندق
لتد في البحث عن سيارته، لتفاحاً عصام أمامها وقد استند به غصب
سحب وصفه بالكلمات، لكنه كان كافياً لتعرف أنه هو - هو عصام الذي
نسى إلى مرل حده والذي سيصعد الآن ليقص على يوسف لو لم يكن
قد عاين عرفته بالفعل.

وعلى الرغم من أن عصام مرّ من قريها فإنه لم يلتفت إليها ولم يلاحظها
حتى وهو يبحث الحظى منجهاً إلى الفندق، ليعيب داخله، فدم تشعر هي
بالخلاص، على الرغم من أنها نجت منه - على العكس تماماً شعرت
بمريح من اللهفة والقلق وطلت مكها ثقف ترمق الفندق تتمنى أن يخرج
منه يوسف من دون قيود تحيط بمعصميه.

لكنه سيخرج.. سيخرج وسيلغ سيارته وستقتله هي فيها كما رأت
في ملوحة!

تذكرت هذه الحقيقة فانتزعت نفسها من حمودها وعادت لتبحث
عن سيارته فلم تجدها أمام الفندق، فدارت حوله تبحث عنها في كل
مكان، إلى أن وجدت في ذلك الشارع الجاسي وراء الفندق لتنته إلى
حقيقة بالغة الأهمية.

بها لا تحمل سكيناً معها!

لقد نسيت أن تحضر واحدًا في غمرة لهفتها على أن تُلْعَ يوسف أولاً.
وها هي الآن تقف بحوار سيارته تعرف أنه سيأتي إليها بعد قليل ليأخذ
هربًا من عصام، ومنها، لو لم تقتله هي أولاً.. لكنها يجب أن تقتله

يجب أن تجد سكينًا وأن تقتله به لو أرادت إنقاذ والديها، ويجب أن
تعثر عليه وبسرعة.

لا يمكنها أن تبحث عن متجر لتتاع منه واحدًا، ولا يمكنها أن تعود إلى
الفندق لتبحث فيه، فقد تعود إلى هنا لتجد أن يوسف قد رحل بالفعل
فما الحل إذن؟

هنا انفتح غطاء حقيبة سيارة يوسف فجأة ليمنحها الحل متمثلًا في
صورة سكين رقد داخلها، وقد تلوث بدماء الدكتور ليلي، فشغقت سوس
ذاهلة قبل أن تفهم أنه الشيء يساعدها على تمديد مهمتها.. ها هو يسمح
سكينًا اعتاد القتل، فهل ستعتاده هي لتفعل ما عليها فعله؟

إما نحن.. وإما هو.

هكذا مدت سوس يدها لتقبض على المعدن البارد فوجدت السكين
ثقيلًا في يدها يخبرها بأنه مستعد ليعرس في عنق يوسف. كل ما عيها
الآن هو أن تنتظر معه، وهذا ما فعلته سوس ليلتها.

ترقبت يوسف حتى تصاعد لهائه معلنا قدومه، ليلحق هو به مقتحمًا
الشارع الجانبي ومسرعًا إلى سيارته، فاحتاجت سوس إلى لحظة للتأكد
من أنه هو، وقد تدلت هيئته بلحيته التي استطالت ونحوه الذي تعاضم
ودلك الهلع الذي أعاد تشكيل ملامحه، ثم قررت أنه بالقطع هو. يكفي
أنه يهرب، ويكفيه أنه يتجه إلى سيارته، والآن فلتتحرك بسرعة.. هكذا

بورت عن نظره إلى أن مرّ قريبها، لتلتقط من على الأرض حجرًا ولتسرع
به وراءه.. ضربة واحدة على رأسه تعالت برنين مكتوم، ثم انهار يوسف
لده سيارته فاقدًا الوعي والدماء ترف منه

لكنه لم يموت

لن يموت إلا لو قتته هي، ولكن عليها أن تأخذه وتتعد أولاً،
فعصم قد يأتي بطارده ليحدها معه، وحيثما سيطر بكليهما لخس
حظه هكذا بحثت عن مفاتيح سيارة يوسف في حيوه حتى وجدت
فمنحتها وحاضدت في حمل جسده - الذي عادده راحلًا إلى زمن
البرانت «ثوري» - لتلقي به على المقعد الخلفي، قبل أن تهم بالانتقل
إلى المقعد الأمامي، حين فوجئت به يتأوه مستيقظًا، فلم تشعر سوس
بما حدث بعدها.

فقد وجدت نفسها تجثم على صدره قابضة على السكين في يدها
عرس بصله في عنقه، وليفتح هو عينيه، فأطل الدهول من عينه اليمنى
حين وقد فقدت اليسرى بريق الحياة فيها، ثم تحولت نظرة الدهول في
عينه إلى فزع، وقد بدأ يستوعب ما هو فيه وما سيحدث له الآن.

هنا همست ودموع الفهر تسيل ساخنة على وجهها:

- سامحني.. لكن.. لكن يجب أن أقتلك!

سيموت الآن ومن دون أن يجد طقوس القضاء على الشيء، ومن دون أن يعرف منه الحقيقة كاملة، ومن دون أن يعرف ما الذي سيفتحه المفتاح العتيق ذو النقوش، ومن دون أن يعرف ما الذي حدث لسوسن طول فترة احتفائها، فهي لن تخبره بأي شيء الآن قبل أن تخرس سكينها في عنقه.

بل إنه ليس سكينها حتى.

إنه سكين الدكتوراة ليلي التي حاولت قتله به، فقلها هو واحتفظ به لتعثر عليه سوسن في النهاية ولتستخدمه فيما حاولت الدكتوراة ليلي فعله معه.. وحتى الدكتوراة ليلي لن يفهم أبدًا ما الذي حدث لها، فهو الآن.. سيموت!

وها هو صوت سوء حظه يتصاعد، ليقول:

- وداعًا يا عزيزي.. سأقتلك.

فاغمض يوسف عينيه واستسلم لمصيره.

لا بأس.. على الأقل سينتهي دوره في هذه المأساة، وستنتهي لعبة شيء عند هذا الحد، وسيفارق هو سوء حظه إلى الأبد، كل ما سيشعر به الآن هو النصل البارد يمزق أورده فشرابيه، ثم سيسيل مزيد من دمائه الساحبة حاملة معها حياته، وبعدها ستظلم الدنيا من حوله للمرة الأخيرة وسيظفر بالراحة التي استحقها طويلاً و..

ولكن سوسن لم تفعلها.

انظر يوسف الموت فلم تمنحه له هي، وارتعشت يدها القاصصة على السكين، ثم شعر بها يوسف فوق جسده ترتجف وتتعب، ليفاجأ بنفسه

٤

الآن يمكن العودة إلى يوسف وإلى اللحظة المبهجة التي وجد نفسه فيها وقد قتله «إليزابيث» مرة، ليعود إلى عالمه لتقتله سوسن!

كان الألم يتصاعد من كل عضلة من عضلات جسده الذي أنهك الهرب على أرض الواقع، وكانت كليته التي ماتت في جسده تعلن عن وفاتها بمريد من الألم الذي شق جنبه، بينما يصل سكين سوسن قد بدأ يجد طريقه إلى أوردة عنقه لتسيل دماؤه من حرقه تفارق جسده بلا رجعة، لكن أكثر ما شعر به يوسف لحظتها كان الدهول. الدهول والعصب

هكذا ستكون نهايته إذن.

بعد كل ما خاضه وبعد كل ما مرَّ به ستنتهي ليلته به مقتولاً في سارته بعد أن نجا من مطاردة عصام بأعجوبة، وبعد أن حارب ليقذف «إليزابيث» التي قتلتها في رميها بعد أن أعلنت له أنها الشيء وقد احتل جسدها.. لقد خدعه الشيء مرتين إذن. مرة في رمي «إليزابيث» ومرة على أرض الواقع حين أنقذه من عصام - والذي كان سيكتفي بالقبض عليه - ليرسله إلى سوسن التي ستقتله ومن دون أن يعرف لماذا.

يشعر بالإشفاق عليها ما الذي فعله الشيء معك يا سوس؟ أي أمور
خضيتها بسببه؟ وما الذي سيحدث لك من بعدي؟

- أنا.. أنا لا.. لا أستطيع.. لا.

ثم عادت باقي حملتها وسط دموعها، فأحاط يوسف بصمته وقد
فهم ما يحدث

إنها عاجزة عن قتله.

لسبب ما هي مضطرة لغرس سكينها في عنقه، لكنها عاجزة عن فعله
وهو يفهم تمامًا ما تشعر به الآن.. يفهم لكنه لن يتعاطف معها لدرجة
مساعدها على ذبحه.. فما الذي سيحدث الآن إذن؟

فتح عييه فرأى بإحداهما أمامه فتاة غير مستعدة لنقل محردة
بائسة مثله قادها سوء حظها إلى ما لا قبل لها بمواجهته، وأي حركة حصة
ستصدر منه الآن قد تساعد على حسم قرارها، لذا ولحل الأمل أمامه
هو أن يتماسك.. وأن ينتظر.

أما هي فأخذت أصابعها القابضة على السكين في التراخي سط،
وأمامها وجوار يوسف رأت أستاذها مجدي يجلس بهدوء ويبتسم لها
مشجعاً وقد أخذت بطرانه تقور.. لا بفعلها.. قادمي الشيء ولا تفعلين
فأجابته هي هامة من وسط دموعها:

- لكن.. والدي...

فلم يحبها أستاذها، ولم تكن هي تحت ح إلى إجابته. أما يوسف
فحدق فيها ذاهلاً قبل أن يقرر أنها فقدت عقلها أحياناً لقد كانت تنعت

كمجاذيب طيلة الوقت باحثة عن شيء ما، وما هي الآن قد وجدته
حدث من لا وجود له.. رائع!

المشكلة الآن أنها قد تستغرق وقتها لاتخاذ قرارها، وكل ثانية تمر
سبب فيها المرید من دمائه - والتي لا يملك معها أنهار بالمسرة - وإن
لم تتحده وسرعة فينتهي به الأمر جثة حاوية من الدماء تنكي فوقه فتاة
تعشق لتاريخ ه تصاعد صوت سوء خطه ليقول:

- يبدو أنك ستنجو.

فكر هو محباً

- أنت واثق من هذا؟

- عيريري.. قتلها مراراً أنا لا أخطئ لكن هذا لا يعني إلا أن الأسوأ
قادم

وكالعادة لم يكن سوء حظ يوسف مخططاً فهي اللحظة السالية احترقت
رصاصه عصام رحاح سيارته، لتتفجر الدماء من رأس سوس، ولتهوي
بجواره بلا حراك!

إيه لم يحتب

هد ما قرره عصام إد وقف على سطح الصدق، وبعد أن صرخ عاصباً
بشرع حراً يسيراً من معالاته، قبل أن يشعر بسحب ما فعله ليتدفقت حوله
مواصلاً البحث عن يوسف

إيه لم يحتب

لا أحد يختفي هكذا فجأة إلا في الأفلام الرديئة.. فيها تجد رجل الشرطة يطارد اللص - أو القاتل، أو حتى البريء - إلى أن يبلعاً مكاناً يستحيل الهرب منه، ليجد رجل الشرطة غريمه قد اختفى تمامًا، فيقف ويصرخ بادلًا حظه، ثم يقطع المخرج المشهد لينقل إلى المشهد التالي، وفيه يرى اللص - أو القاتل، أو حتى البريء - يحتفل بحجته من مطاردة كيف؟ إنها رغبة المخرج، فلا تعترض!

لكن يوسف لم يختف، ولم ينتقل إلى المشهد التالي بعد، صحيح أنه صرح غاصًا.. لكنه لم يظل مكانه ليندب حظه، بل سيواصل البحث عنه وسيجده وسيلقي القبض عليه ليعزقه بنفسه.. والآن.. أين هو؟

السطح أمامه خاو تمامًا إلا منه، وهذا يعني أن يوسف عادره.. لم يعد إلى داخل الفندق بالطبع، ولم يقم إلى الشارع إلا لو أراد التحول إلى بقعة آدمية على قارعة الطريق.. ليضع نفسه مكانه إذن وليبحث عن المخرج الأمل، أو فلنقل: المخرج الوحيد.

هكذا تحرك عصام وسرعة في السطح، راحًا عن المخرج، فوجد تلك الناية القريبة من الفندق، والتي يمكن القفز إلى سطحها ببعض الجهد والحظ.. لا بد أن يوسف فعلها إذن.. قفز إلى السطح المحذور وعادته ليواصل رحلة الهرب.. عظيم.. والآن ما خطواته التالية؟ سيسرع إلى سيارته بالطبع وسيأخذها لينتعد عن المكان إلى أقصى حد ممكن وسيارته لم تكن موحودة أمام الفندق، لكن لا بد أنها قريبة من المكان لو كان مكانه لتركها في أحد الشوارع الخلفية، ولو كانت فرصته صحيحة فهذا يعني أن يوسف سيظهر الآن في هذا الاتجاه..

وها هو!

يوسف الذي قتل ليلى وخدعه وهرب منه يعدو الآن في ذلك الشارع نحوي لصيق متجهًا إلى سيارته، وسيلعبه لأن ليأخذها ويتعد إلى حيث لم يشر عليه عصام أبدًا، تمامًا كما حدث مع سوسن التي يراها الآن تتسلل وراء يوسف حاملة حجرًا لا بأس بحجمه و.. مهلاً..

سوسن!

إياها هي.. سوسن!

سوسن التي بحث عنها طويلًا حتى فقد الأمل في العثور عليها، تظهر في آخر مكان وآخر لحظة تحيل ظهورها فيهما، وهذا هو الآن يقف على بعد عشرات الأمتار يحدق فيها داهلاً، بينما تهوي هي بحجرها على رأس يوسف لتسقطه فاقد الوعي.

إياها هي.. سوسن!

وهي الآن نحوي على يوسف لتبحث عن معانيب سيارته في حيوة نهيد لأن تحملها إلى داخلها لتأخذه ولتهرب به.. ستأخذه إلى حيث حثت وإلى حيث سيختفي يوسف معها وإلى الأبد.. و..

ولكن لا! لن يسمع لهما بالهرب!

وحين تحرك عصام هذه المرة بدا الأمر كأن الزمن نفسه توقف احترامًا لعصمه ونهفته، ليتفرغ لمشاهدة ما فعله عصام لينتها، والذي تحرك بسرعة لم يسمعها جسده من قبل مطلقًا.. في لحظة كان قد عاد لسطح ليبدأ هبوطه في الدرج الفندقي.. وفي اللحظة التالية كان يعدو خارجًا من الفندق، والكل يقفز بعيدًا عن طريقه كأنه قطار صلل طريقه ويوشك على دهسهم.. وفي اللحظة التالية كان قد دار حول الفندق ليواصل عدوه متجهًا إلى سيارة يوسف

والمسدس في يده يحشد رصاصاته مناهكاً لإفراغها في جسد شري وفي اللحظة التالية كان عصام قد اقترب من السيارة ليغاجاً سوسن تجثم فوق يوسف، وسكينها في يدها تهم بعرسه في عنقه، فلم يتردد هو لحظة واحدة رفع مسدسه وضغط زناده ليطلق رصاصة واحدة، دوت كأنه محرقة في ذلك الشارع الصيق، وتناثر معها الرجاج والدماء في سيارة يوسف. الذي فوجئ بسوسن تهوي بجواره والدماء تتفجر من رأسها لتمترح بدمه والآن يأتي دور يوسف الذي لم تنته أطول ليلة في حياته بعد



للحظة لم يتحرك يوسف من مكانه، ولم يتحرك السكين الذي اعبر من نصله في عنقه، قل أن يقرر الاستسلام للحادية نيهوي بحوار سوسن التي رقدت تنزف، ليسود بعدها الصمت التام.

يوسف لم يتحرك.. سوسن لم تتحرك.. وحتى عصام ظل واقفاً مكانه وقد تبدت الصدمة في ملامحه.

إنه لم يكن يتوقع أن يصيبها.. لقد أطلق رصاصته ليحببها وليمنعها من قتل يوسف، لكنه أصابها.. أصابها في رأسها وقتلها قبل أن يعرف منها كيف حرقت سامح من لدخل إلى الخارج، وقبل أن يعرف منها حقيقة كل ما حدث وما يحدث.

والآن لن يعرف أبداً.

لقد ماتت سوسن ورحلت عن عالمنا حاملة أسرارها معها، ولن يعرف هو إجابات أسئلته التي عذبه طويلاً أبداً.

وداخل سيارته رفع يوسف رأسه ببطء ليبحث عن مصدر الرصاصة، يستفي عيه التي ترى عيني عصام، وليشاد لا نظرة امزج فيها الدهول بعصب بالحيرة.. نظرة دامت للحظة واحدة، ثم تحرك الاثنان معاً في لحظة ليلية

عصام انطلق يعدو تجاه سيارة يوسف الذي انتزع نفسه من ذهوله بفكر إلى المقعد الأمامي وليبدأ إدارة محرك سيارته، فاستعاد الزمن سرعته لطبيعة وإن لم يستعد عصام الذي ضحى بأعلى طاقته ليصل إلى هنا وفي اللحظة التي مدّ فيها عصام يده ليمتدح باب سيارة يوسف كان هذا الأخير يزن كل جسده على دواسة الوقود، ليزمجر محرك سيارته معترصاً، قل أن تنطلق السيارة كنها بصريير أجبر عصام على التراجع وتسقوط على أطرافه الأربعة، سقط عصام والمسدس لا يزال في يده، ورفعه محدد وصوته تجاه سيارة يوسف التي أخذت في الابتعاد وسرعة، لكنه لم يفهم هذه المرة على إحكام تصويبه أو ضغط الزناد.

لقد خسر!

الآن سيهرب يوسف حاملاً جثة سوسن معه، والآن ينحرف يوسف سيارته في شارع جانبي ليجو - مؤقتاً - ولتنتهي أطول ليلة في حياته عند الحد.

لكن الأسوأ لا يزال في انتظاره كما سيعرف فيما بعد.

على مدى الأيام الماضية لم يتبادلا كلمة واحدة، ولم تسأل سوسن يوسف عن سبب إنقاذه إياها، كما لم يسألها هو عن سبب محاولتها قتله.. هذه أشياء لم تعد تهم، فهما الآن طريدان يحاولان النجاة من الشيء ومن عصام ومن ثمن اختيار انهما التي سيدفعان ثمنها إن عاجلاً أو آجلاً.

هنا الآن يعرفان أن عصام سيواصل بحثه عنهما - أو على يوسف على الأقل، فهو لا يعرف أن سوسن نجت - وأن الشيء لم يتركهما طيلة هذه الفترة، إلا ليلتقط أنفاسهما ليواصل بعدها لعته التي لم تنته بعد.. وهما الآن حائمان مهكين لا يمكن أن يأمل بريقه حتى، ولا شيء بدفعهما لمواصله إلا القصور الذاتي.. إيهما أحياء لأن الشيء تركهما على قيد الحياة لا أكثر، والآن حان وقت الاستعداد لحطوتهما التالية، وهذا ما كانت سوسن تعرفه، لكنها انتظرت حتى كرر يوسف سؤاله لتحكي له كل ما حدث لها وبأدق التفاصيل.

استغرقت قصتها ساعات لم يبس فيها يوسف يست شقة، وإن لم يند الذهول المتوقع على ملامحه.. لقد كان يتوقع الأسوأ ولم تخيبه في طيه. فقط انتظر حتى انتهت، ليعقب:
- أأضاً حصلت على مفتاحي.

فهما وأحرق مفتاحه، العتيق ذا النقوش من حيه، ليكون الذهول من نصيبه، وليأتي دوره، فبدأ حكايته التي استغرقت ساعات أطول، تعاطم به ذهول سوسن أكثر فأكثر، حتى انتهى يوسف مع مغيب الشمس، وقد ستمعت إليه وإن لم يبد عليها التصديق، ليعود الصمت ثالثهما في سيارته، ولتمر دقائق ثقيلة عليهما، وكل واحد منهما يقارن حكاية الثاني حكايته محاولاً الإحادة عن سؤال أيهما أسوأ خطأ.. هي، التي فقدت

مرّت أيام على يوسف التأم فيها جرح عقه، وإن لم يلتئم جرح سوسن التي لم تُمُت تعاماً.

رصاصه عصام لم تخترق رأسها، لكنها تركت جرحاً عائراً في حبه، وهذا ما عرفه يوسف ليلتها حين توقف بسيارته أخيراً ليجدها لا تزال تنفس، وإن فقدت من الدماء ما أفقدها الوعي طويلاً. لكنها استعدته في النهاية لتعاجباً بنفسها حية، فككت حتى بصت دموعها ثم صمدت جرحها وأخفته بخصلات شعرها القصير، وأحست شعورها العميق بالفشل والمرارة بصمتها الذي احترمه يوسف لأطول فترة ممكنة فل أن يقرر المخاطرة أخيراً، ليسأل:

- والآن.. ما الذي حدث لك؟

كانا قد قضيا الأيام الماضية في التفل بسيارته التي تحولت إلى مرور دائم لهما، يعيشان فيها ويأكلان وينامان، وقد فقد كل ما له علاقة بحياتهما السابقة، فلم يتبق لأي منهما إلا مفتاح عتيق ذو نقوش، ودكريات تبدو الآن كأنها حدثت منذ زمن بعيد لم يعد يمت لهما بصلة.. وكان الصمت ثالثهما

عالمها ووالديها، أم هو، الذي فقد قطعاً من جسده مقابل قطع صنيعة
مسحها له الشيء رغماً عنه؟

وفي النهاية طردت هي لصمت قتله.

- أعطني مفتاح.

قلتها وأحرحت مفتاحها من حقيبتها، لتبدأ مقارنته بمفتاح يوسف
الذي تركه لها وقد تسمى أن تحتفظ به إلى الأبد. لكنها تأملت النقوش
على المفتاحين طويلاً، قبل أن تعيده إليه قائلة:

- هذه النقوش رسالة. إنه يحاول إخبارنا بشيء ما.

- وما هو؟

. لن أعرف حتى أتمكن من ترجمة النقوش. لكن الأمر لن يتوقف
عند هذا الحد.

وهو ما كان يعرفه يوسف ويحشه. بالطبع لن يتوقف الأمر عند هذا
الحد، فهو يعرف أنه لم يحصل على الحقيقة كاملة بعد، ولا تزال بعض
أعضاء جسده قابلة للمقايضة بقطع أخرى منها، والقطعة التي حصل عليها
في زمن «إيراث» - والتي احتاج لوقت ليستوعبها - هي أن الشيء قد
على خداعه حقاً. قادر على احتلال الأجساد والاحتشاء فيها، وهذا يعني
أنه قد يكون الآن في أي جسد يعرفه، يواصل لعنه على أرض الواقع كما
يواصلها في الأزمنة التي يلقه إليها.. قد يكون الآن في جسد سوسس داتها

قرأت هي هذا الاستنتاج في عينيه، لنقول:

- لو كنتُ هو لما تركتُ حيًّا

فمن يحرق عني الرد بأنها حاولت قتله بالفعل. إنه يعرف الآن أنها
وعتبه لسعد والديها، لكن ما لدي يصمم له أنها ليست جرءاً من لعبة
شيء؟ لكنها مُحقة. لو كان الشيء يريد قتله حقاً لما كان يجلس الآن
في سيارته يرمي الشمس العذبة بعين واحدة ترى

- والآن ما الذي سفعه؟

ونتها هي، فبحث عن الرد الأمثل، قبل أن يتنهد مجيباً:

- سواصل لعبته.

ثم أدار محرك سيارته ليطلق بها إلى مكان جديد.

في تلك المقابر الباردة قرب القاهرة توقف يوسف سيارته وقد بدت
له رفقة الأموات ملائمة تماماً لما هما فيه.

وحدثهم الأموات هم من يمكنك أن تأمن جانبهم، فهم لم يعودوا
قادرين على يدك قصتهم في هذه الدنيا انتهت وهم لأن يرقدون
في سلام افتقده يوسف طويلاً.. حتى سوسس شعرت بنوع عجيب من
لاستراحة في هذا المكان، وإن تذكرت أن سامح الآن يرقد في قبر مماثل
لجده القصور التي تتناثر أمامها الآن.. بحثته التي احترقت من الداخل إلى
الخارج وقد فقدت سمته التي رقص لها قلبها طرباً أيام حبهما. يرقد الآن
أسفل التراب وقد دُفِنَ لعدة لا دس له فيها، ولم يملك فيها أي خيار.

تذكرته سوسس لتكتشف أن محروبوها من الدموع لم ينصب تماماً،
لكنها أحبرت نفسها على التماسك لتقول:

- دوري الآن في اللعبة واضح . إما أن أقتلك وإما أن أظل هكذا .
ووالدائي حتى أفعلاها.. لكن.. ماذا عنك؟

فتبدت الحيرة في عيني يوسف ولم يجب.. إنها مُحقة.. ماذا عنه؟

ما الذي ينتظره الشيء ليواصل لعبته معه؟

هنا تصاعد صوت سوء حظه، ليجيبه:

- يجب أن تنام أولاً أيها الأحمق!

فتذكر يوسف على الفور أنه لم يسم قطُّ منذ أن نحا من أطول ليلة في حياته . نعم كان يسد رأسه كل ليلة على مقود السيارة محاولاً النوم، لكنه لم يفعلها قطُّ . فقط كان يترك جسده - أو ما تبقى منه - يستريح قدر الإمكان، بينما كان عقله يظل مستيقظاً يسترجع أحداث الأيام العاصية، محاولاً ومن دون جدوى البحث عن مخرج مما هو فيه.

- الشيء لن يزورك إلا لو استسلمت للنوم.. هذا ما كان يحدث كل مرة

وسوء حظه مُحق كعادته . يجب أن يستريح إلى الحد الكافي ليتمكن ليواصل عذابه! هكذا أحاب سوسن التي أحدثت تحديق فيه منظره إحياته

- يجب أن أنام أولاً.. حينها سأنتقل إلى الرمن الثاني لأواصل لعبته

- وما الذي تنتظره؟

فاتحاح يوسف إلى لحظات لينعلب فيها على نخجله، قبل أن يجيب مشبعاً بوجهه عنها:

- إنتي.. إنتي خائف!

فبوعتت سوسن بوجانته، قبل أن يكتشفها شعور عميق بالاشفاق تحدهه
اللعبة بسببها تماماً وأعجزها عن الرد

يده من نائس!

كنت قد صفتته في أول مرة رأيته فيها على أنه صحفي متوسط الموهبة
والثقافة، لكنها الآن تراه أمامها رجلاً نائساً تورط أكثر من اللازم في مأساة
به يفدها إليه . لا سوء حظه، وهذا هو الآن أمامها يحشى حتى لنوم، والذي
من يقوده إلا لرمن بعيد سيفقد فيه عصراً حديداً من أعضاء جسده، لمجرد
أنها قاعدة من قواعد لعبة الشيء التي أرعمه عليها.

رجلاً يلع من الصعف واليأس ما دفعه للاعتراف.. وأمام فتاة عربية
عنه.. بأنه خائف.. ومرة أخرى وجدت سوسن نفسها تتساءل: ثرى..
أيهم أسوأ حظاً؟

أما يوسف فشعر بالدم على اعترافه لها بحقيقة خوفه، قبل أن يجد أن
سوسن قد كحوفه، كحجله . لا يهم!

به سينسلم لنوم في النهاية، ومهما قاوم، فمادام لا يستسلم له الآن
بسببي من الفصل التالي من اللعبة سريعاً؟

- لقد فقدت حينك ورثتك وكلينتك حتى الآن.. مما الذي ستفقدته
المرّة المقبلة؟

بتساءل سوء حظه فيرتجف يوسف من دون أن يجيب، فالإجابات كلها
يست في صالحه . فقط أحد يرمى شواهد الأمور أمامه ويتمنى لو كان
يرقد أسفل أحده، ويجواره لاذت سوسن بالصمت منظره قراره الذي
لن يسحبه سواه

ثم وجد يوسف نفسه يتذكر موقفاً مشابهاً تعرّض له في طفولته، حين كان والداه لا يزالان على قيد الحياة، قبل أن يفقدهما لأنه «شؤم شؤم! أنت شؤم!»، كما كشفت له عمته لاحقاً. كانت إحدى الليالي الشاء الدردق، وكان يوسف قد اعتد السهر في هذه الليالي، ليدس بحسده الصئبل بين والديه أمام التلفزيون حتى يعمو ويحمله أبوه إلى فراشه.. وكان يوسف يشعر به، لكنه كان يتظاهر بالنوم ليترك أبوه يوسده بالأغطية قبل أن يثني على جبهته، ليستسلم يوسف بعدها للنوم واثقاً من أنه حين يستيقظ سيجد والديه في انتظاره يحملان له المريد من الحب والحنان ليغمراه بهما، ولم لا وهو طفلهما الوحيد؟

هكذا كانت لياليه الصيفية، وهكذا كانت حياته قبل أن يفقدها، ليعين سوء حظه عن وجوده، لكن في تلك الليلة الصيفية ارتكب يوسف تلك الخطيئة الشهيرة التي يرنكها الأطفال في مثل سنه عادة، وشاهد فيلمًا مخيفًا عن مسخ محترق الوجه يدعى «فريدي كروج» ويعيش في الكوايس، ينتظر أن يحدد صحابه إلى اليوم ليمرفهم بمحالبه المعدنية. كان الفيلم يحمل اسم «كوس في شارع إل»، لكن يوسف الصغير أدرك لينتها أنه لا يحتاج إلى أن ينتقل إلى «شارع إل» ليزوره هذا المسخ وليمزقه بلا رحمة.. أدرك أن كل ما عليه هو أن ينام، ليحده في انتظاره وليبدأ المرح.

لينتها.. وبعد أن انتهى الفيلم.. نوّس يوسف لوالديه طويلاً ليمح له بالنوم معهما، فهو لن يجرو على قضاء لينته بمفرده، لكن أباه رفض، وبصرامة لا تقبل النقاش. حاول يوسف أن يقبعه بأه لو دام فلن يستيقظ حياً أبداً، لكن أباه أصغى إليه في صبر ثم أعلن:

.. بعد أصبحت رجلاً.. ولا يوجد رجل ينام مع والديه.

ثم حمله مرغماً.. هذه المرأة.. ليلقي به في فراشه، وليقع يوسف هناك نائم لا عطية وقد قرر أنه لن ينام لينتها أبداً. لا هذه الليلة ولا الليالي حتمه سيظل مستيقظاً إلى الأبد، ولن يسمح للعم «فريدي» بأن يصرقه بمحالبه المعدنية.. وهو قرار كان يوسف أصغر من أن يدرك سذاجته.. يتنص لينته ودموعه على وجهه وقد شعر بأن رفض أبيه أشد قسوة عليه من محالب «فريدي» المعدنية.

لا يوجد رجل ينام مع والديه لكنه ليس رجلاً!

لينتها قاوم يوسف الطفل النوم طويلاً وقد أخفى وجهه بالأغطية شاعراً.. محالب المعدنية تتحسس حسده الصئبل في شوق، تنظر أن يحلده في نوم لبدأ تمريقه إرثاً.. وحارح لأعطية سمع أماس العم «فريدي» صاعداً بجوار أذنه، ثم سمعه يشند له تهويده م قبل النوم بصوته القاسي مسخوح، فلم يجرو يوسف على الصراح... فقط أغمض عينيه في قوة واحد يردد في رأسه أنه لن ينام.. لن ينام.. لن ينام.

لا يوجد رجل ينام مع والديه؟ لا بأس، لن يكر ليصبح رجلاً وسيهدت سبه لينتها أبوه طفله الوحيد وسيكون هذا خطأ هو!

س ينام.. لن ينام.. لن ينام.

وحين استسلم لنوم في النهاية.. كأني طفل في عمره.. كان آخر ما شعر به هو أنه يكره أباه حقاً، ولأول مرة في حياته.

لكنه لينتها.. وحين استيقظ قرب الفجر مذعوراً يبحث في جسده عن أثر محالب العم «فريدي».. وجد أن أباه كان يحلس بجوار فراشه يقرأ

في كتاب ما، فحدّق فيه يوسف عاجزاً عن المطلق وقد أخذته المفاجأة
إنه.. إنه لم يتركني!

أرغمه على النوم في عراشه لكنه ظل ساهراً بحواره طوال الليل يقرأ
بعينين متفتحتين من السهر، لمجرد أن يطمئنه وليحميه من خطر لا وجود
له.. وحتى الآن حين شعر به يحدّق فيه ذاهلاً، لم يرفع عينيه عن كتابه،
وإن قال بخفوت:

.. عُدْ إلى نومك ولا تخش شيئاً.. إنني هنا.

فالتصمت الدموع في عيني يوسف الطفل وعاد إلى وصادته ليفرغ من
وليغيب عن الدنيا وقد أحدث دموعه في الانحدار على وجنتيه صفاء
لكنها هذه المرأة.. كانت دموع امتنان.

لكنه الآن كبر وأصبح رجلاً ولم يعد أبوه على قيد الحياة ليسهر بحواره
طوال الليل يقرأ.

الآن هو رجل بالغ خائف يجلس في سيارته في المقامر هرباً، يخشى
النوم لأنه سيواجه العم «فريدي» الخيالي بمحاله المعدنية، بل الشيء
الذي سيأخذه إلى رمز سيمنحه فيه قطعة من الحقيقة.. وسيأخذ منه قطعة
صحيح أن سوسن تحلس بحواره الآن وقد عليها النوم ليستقر رأسه
الجميل على كتفه، لكن حتى لو كانت مستيقظة فهي لا تملك له شيئاً
لتفعله لو نام فسيظل جسده هنا بجوارها، لكنه سيقتل إلى حيث سيواجه
اختيار الزمن الجديد بمفرده.

.. لكك سنام في النهاية . أنت تعرف هذا.

يقولها سوء حظه، فيهمس هو:

.. أعرف.. فلا يوجد رجل ينام مع والديه.

صمت سوء حظه مشفقاً عليه، ويلوذ هو الآخر بالصمت، وقد عاد
تأمل شواهد القبور من حوله.

كل المطبوع منه لأن هو أن يسم.. أن يخلق عينيه وأن يسمح للحذر
أن يسري في جسده ليتقل إلى هناك.

إلى حيث ينتظره فصل جديد من فصول لعبة الشيء.

هل يوقف سوسن قبل أن يفعل؟ لا داعي . فليتركها لتحتل ببعض
أشياء لذي تستحقه، وليرحل هو عالمًا بأن رحلته على أرض الواقع لن
تطول . في النهاية سيعود إليها وسيجدها هنا كما تركها.

إن عاد!



وجاء إنيبي وألصق وجهه بزحجه، يبحث أنها تطل بارتفاع على قاعة طعام
صحبة وحرارة تتيق بقصر

في منتصف القاعة رفدت طولة عملاقة أحاطت بها المقاعد بمرحفة،
وعينها استقرت أطباق الحبوب والشراب، وحواليها تشرت الشموع في
معدة نصبتها وتعس حلوها من الصيوف.. فقط كانت هناك حادمة شاحنة
تجرب حواء الطولة بوزع أدوات الطعام على الأطباق، قل أن تخرج من
معدة من بابها الخلفي، من دون أن تشعر بيوسف الذي أخذ يرمق المكان
من رده العلوية بمزيج من الدهشة والحيرة.. ولنفسه همس:

- بين أن؟

وأه صوت واهن حشش لسرات، ومعدة روسية عتيقة، ليحيط بنفسه
عن سؤال «أين هو؟» وإن طل سؤال «متى؟» معلقًا بتطر إحالة، ليتصاعد
صوت أشوي من وراءه مباشرة، يقول باللغة داتها

- انه قدم

وستص يوسف والتفت بأسرع ما استطاعه جسده العسن، لكن الظلام
كأن في انتطاره، ومنه تصاعد الصوت لأشوي يواصل
- به يعرف ما سيحدث.. لكنه قادم.

ثم اقتربت صاحبة الصوت من الضوء الخافت، ليجد يوسف أنها
بست مومسن - كما تمنى - بل امرأة حادة الملامح والظفرات، وقد حملت
ملامحها مزيجًا متساويًا من القلق والتحفز، مرتدية زيًا مماثلًا لزيه، لتتجه
بعد المزيج إلى النافذة وتطل منها مكررة للمرأة الثالثة:

٦

ثم شعر يوسف بالدوء فجأة، ورائحة الكعك الطازح تفعم أنفه.
ولحظة بدا له الأمر كأنه أحد أحلام طمولته وقد تكتم عليه بالبردة.
قل أن يجد أنه يجلس في عرفة صبيقة منظمة ذات قاعدة صغيرة يتسلسل منها
ضوء خافت لم يكف لتبديد الظلام من حوله.. تحسس جسده فوجد أنه
جسد رجل عجوز ذي شعر أبيض طويل استرسل على كتفيه ووجهه حتى
امترج بلحيته، يرتدي عباءة ثقيلة ذات عطاء رأس كأنها ملاس راهب
لقد نام إذن.

نام وطمع به الشيء ونقله إلى زمن جديد حيث سيدأ هو فصلًا جديدًا
من فصول اللعبة.. لكن.. أين هو هذه المرأة؟ ومتى؟

كان يجلس على مقعد خشبي صغير من دون مسند للظهر، وحين حرك
الوقوف شعر بعظامه تنن معلنة، لام شبحوخة لم يبلغها بعد على أرض
الواقع - وربما لن يبلغها أبدًا - وكان الظلام يحيط به، حاجبًا عنه حذر
العرفة الضيقة، لكن النافذة الصغيرة كانت أمامه مباشرة تعريه بالافتراء،

- إنه قادم.

وأمام البافذة توقفت متحاملة يوسف وبظرات الدهشة التي أطشت من عينيها، ثم رفعت يدها لتحسس زجاج البافذة بترقب كأنها عاشقة تنتظر حبسها

من هي؟ ومن هو القادم؟ - مع أنه يعرف - وما الذي يحدث؟

أمسلة ستتظر رغباً عنه، فالمرأة لا يبدو عليها أنها ستشغل نفسها بالإجابة عنها.. إن تركيزها كله الآن معلق بقاعة الطعام الحاوية وما سيحدث فيها الآن. لهذا قرر يوسف مقاومة فصوله والعودة إلى الدفء ليوقف بحوار المرأة وليتفرغ لمراقبة المكان من مخبئه وقد أصابته عدوى الترقب الذي تشعر به المرأة.

شيء ما سيحدث الآن في هذه القاعة.. شيء مهم.

ذلك الصمت الثقيل الذي لم يجرؤ على مواحهته إلا صوت عقارب الساعات يقول إن شيئاً ما سيحدث.. ذلك الترقب في بطرات وأحاسيس المرأة بجواره يقول إن هناك شيئاً مهماً سيحدث. وتلك الرائحة في الهواء - والتي امتزجت برائحة الكعك الطارح - تقول إن هناك شيئاً مهماً سيحدث.. وكل ما عليه الآن هو أن ينتظر.. كالعادة!

لكن انتظاره لم يطل، فعبير بوابة قاعة الطعام الرئيسية دخل رجالاً وامرأة يرتدون من الملابس ما يدل على أنهم أصحاب القصر أو أصحاب قصر مماثل.. المرأة خصوصاً بدت شديدة الجمال في رداؤها الحريري الذي مائل لون شعرها الذهبي، وقد غطت كتفها بوشاح قطيفي، وقد بدا التوتر والقلق على ملامحها الراقية، وهي تواحه أول الرجلين، قننة

- سيصل في أي لحظة.

دأبها لرحل تتوتر لم يقل عن توترها:

- سيكون في استقباله.. اذهبي إلى غرفتك ولا تحرجي منها مهما حدث.

- وماذا لو طلب رؤيتي؟

- لن يجد الفرصة ليفعل.. فلأمن هذا.. و لأن...

ولم يكمن مهترت لمرأة رأسها في استسلام واستدارت لتغادر القاعة بحركات مسرعة كأنها تهرب مما سيحدث فيها بعد قليل.. فقط.. وقبل أن تخرج أدارت وجهها لهما طالبة:

- «يوسوبوف» - لا أريد دماء.

فنادى «يوسوبوف» نظرة سريعة مع رفيقه، قبل أن يجيب:

- «وسار كل شيء على ما يرام فلن تكون هناك دماء.

وتراقصت انتسامة متوترة على شفتيه، وهو يردف:

- الكعك سيأتي بالغرض.

فنه تبادل المرأة انتسامته، ولم يبدُ عليها إلا العزيم من القلق، لكنها مرّت رأسها صامتة وخرجت من القاعة، تاركة «يوسوبوف» يعود إلى بيته، قننلاً.

- «ديمتري».. لليلة سيتهي كل شيء.

فلها محاولاً التظاهر بالثقة، لكن «ديمتري» منحه نظرة صامتة أفرغ فيها

جرة، من قلقة هو الآخر، قبل أن يتجه إلى إحدى نوافذ القاعة ليرمي شوح المتساقطة خارجها، من دون أن يشعر هو أو «يوسوبوف» «يوسف» والمرأة اللذين أحدا يراقبان الموقف من مخبئهما وعبر نافذتهما الصغيرة وهذه المرة اشتتم يوسف رائحة جديدة عرت القاعة حتى ملأتها.. رائحة مؤمرة الرجل الأول اسمه «يوسوبوف».. لماذا يبدو له هذا الاسم مأثومًا، لا ليس لأنه قريب من اسمه هو.. لقد قرأ هذا الاسم من قبل.. قرأه في أحد كتب التاريخ ليطل معلقًا في ذاكرته.. قرأه ويعرف أن صاحبه استحوذ أن يخلد التاريخ اسمه، لكن..

لماذا؟

سؤال آخر ينصم إلى قائمة الأسئلة التي ستنتظر إجابات، وفي القاعة، وعلى أحد المقاعد، جلس «يوسوبوف» محاولاً السيطرة على المعدلات، تاركاً رفيقه يقف عند البوابة ينتظر وصول ذلك «القدم» - مع أنه يعرف - في صبر.. وحوار يوسف همست للمرأة:

- سيفسدان كل شيء... وسيدفع الجميع ثمن حيائتهما.

قلتها همفت وضح لم يرد يوسف إلا حيرة، لكن في انقاعه رفع «يوسوبوف» رأسه كأنه سمعها، فتراجع يوسف عريئاً محاولاً أن يستتر بالسلام، وإن لم تتحرك المرأة من مكانها قرب البوابة، وكأنها لا تحسب انكشاف أمرها.. وللحظات تلفت «يوسوبوف» حوله كمن يبحث عن شيء ما، لكن صوت «ديمتري» انتزعته من بحثه معلنًا:

- إنه هنا.

هبط «يوسوبوف» على الفور وأسرع إلى البوابة القاعة ليتأكد من قوته.

في اللحظة التي عاد فيها يوسف إلى نافذة غرفته الصغيرة بحذر ليتابع موقف من جديد.. وأمامه وقف «يوسوبوف» أمام نافذته وقد أخذت يده ترتعشان انفعالاً، لكنه جاهد ليسيطر عليهما وعلى صوته حين قال:

- أنت مستعد؟

هز «ديمتري» رأسه من دون أن ينطق بحرف، وفي لحظة واحدة تحرك الاثنان خارجين من القاعة، ليستقبلا ضيفهما الذي سيراه يوسف بعد قليل، ليعرف في أي رمس هو، وليتذكر أخيراً من هو «يوسوبوف» كمن امرأة. التي كانت تعرف كل هذا وأكثر.. همست.

- سيموت سيدي الليلة.. وبعدها.. يأتي دورنا.

وحين عاد «يوسوبوف» إلى القاعة مرة أخرى كان رجل ثالث قد انصم به. «ديمتري»، وكان يبدو عليه التوتر مثلهما، فاستنح يوسف أنه ليس صيفهما المنتظر

كان ثالثهما يرتدي معطفًا ثقيلًا حمل آثار الثلج المتساقط في الخارج، وكان يبدو عليه التوتر مثلهما، وهو يقول:

- أين «مويك»؟

- في غرفتها.. طلبت منها البقاء هناك حتى تنتهي.. أين هو؟

- مادم ورائي.. لقد طلب أن يتوقف ليتلو صلاته أولاً.

- سنكون صلاته الأخيرة إذن.

وعلى الرغم من أن «يوسوبوف» و«ديمتري» لم يطلق ناسم ناشيد إلا أن يوسف وحده يعرف أنه «فلاديمير نوروشيفتش». إنه يذكر اسمه كما يذكر اسم «مويكا»، كما يذكر أنه قرأ عن هذا الموقف كاملاً من قبل فقط ينقصه أن يرى ضيفهم المنتظر ليستعيد ذاكرته كاملة، وليفهم ما لدي يحدث هنا. بعدها سيكون عليه أن يعرف من هو، ومن هذه المرأة التي تقف بجواره، وما الذي قصده حين قالت إن سيدها سيموت ويعد سياتي دورهما.. وأمامه في القاعة خلع «فلاديمير» معطفه، لينقي به على أحد المقاعد قائلاً:

- استعداً لاستقباله.. لا أريد أن يشعر بشيء قبل أن تنتهي منه فأجابه «يوسوبوف»:

- لن يشعر إلا لو كان يعرف ما سيحدث له.

فهمس يوسف من مخبئه بما قالت له المرأة بجواره:
- لكنه يعرف.

فواصل «ديمتري» كأنه سمعه:

- حتى لو كان يعرف.. لن يخرج من هنا حياً.

- إنه قادم.. إنني أسمع خطواته يتجه إليا.

قلها «يوسوبوف» ليستمت هو ورفيقه إلى باب القاعة محاولين الانسحاب وإخفاء توترهما، ليستقنوا صيغهم الذي تعالى صوته قبل أن يدخل القاعة، قوياً عميقاً كأنه يخرج من حنجرة عملاق:

- رائحة الكعك شهية.

وفي اللحظة التالية خطا ضيفهم إلى القاعة ليراه يوسف أحياناً ولتستعيد ذكرته كل ما قرأه عنه على العور.

القمة الفارحة والجسد الضخم تغطيهما الملابس السوداء.. الشعر الأسود الطويل الناعم الذي يمتد حتى يبلغ لحية خشنة كثيفة.. والعينان قد درتا على احتراق حواجز الرمان والمكان لتربا ما تحفيه الأعين وما يعمل في الصدور... إنه هو.. هو!

أصبع المرأة بجواره تنفض على ذراعه حتى تؤلمه، وقد انحبست نفسها في صدرها رهبة، والرجال الثلاثة في القاعة يرتجفون أمام العينين، وكان أمرهم قد انكشف من قبل أن يبدأوا ما أتوا من أجله، وحتى عقارب ساعات نشاطاً نوعاً ما كأنها تبدي احترامها للضيف الذي تعالى صوته اعمنى حاملاً سره يستحيل تمييز إن كانت نبرة ثقة أم سخرية، يقول:

- يبدو أنها ستكون ليلة ممتعة.

فتحت الإجابات في حقوق الرجال الثلاثة أمامه، ويجد يوسف نفسه يهمس باسمه وكأنه سقط تحت تأثير عينيه الحارقتين.

إنه هو.. هو!

«حريهوري يفيموفتش راسبوتين».

وبالطبع أنت تعرف «راسبوتين» أو قرأت اسمه من قبل حتى ولو لم تقرأ في التاريخ حرفاً.

هناك بعض الأسماء في التاريخ نحد طريقها إليك، مهما كانت اهتماماتك.

ومن العسير حقاً تصديق أن هناك من لا يعرف من هو «جيترا». أو «هتير»
أو «نيرون».. وبالتأكيد «راسبوتين».

سأعرفك به قليلاً، وسنعود بسرعة إلى أهم ليلة في حياته - كما سنعود
بعد قليل - وسنبداً بذكر أنه ولد في يناير عام ١٨٦٩، وهو تاريخ غير دقيق.
فلا يوجد شيء واحد مؤكد عن هذا الرجل، على الرغم من شهرته لدى
والده كان مزارعاً فقيراً، وكان «جريجوري راسبوتين» هو ثالث إخوة
والموحد لدي تبقى منهم، فأخته التي كانت تعاني من الصرع عرفت في
النهر أمام عينيه حين كان طفلاً، ثم كاد أخوه أن يبقى المصير ذاته لاحقاً،
لولا أن قفز «جريجوري» في النهر ليفقد أخاه الذي أصيب بالتهب الربوي
حاد قضى عليه بعدها بأيام.. أخته كان اسمها «ماريا»، وأخوه كان اسمه
«ديمتري»، وهما لاسمات ابتدأ منعهما «جريجوري» لأطفاله فيما بعد.
به لم يسقط قط ما حدث لأخويه وسسهما أصيب بالوحم والميل إلى
الصمت والانعزال منذ طفولته.

في قريته نشأ «جريجوري» طفلاً فقيراً لا يحمل أي مزية تسخر
الاهتمام، إلى أن أتى اليوم الذي شُرق فيه حصان والده من مرعته
يومها فقد الأب الأمل في العثور على حصانه، لولا أن «جريجوري»
منحه وصفاً تفصيلياً للسارق من دون أن يراه ليبحث والده متشككاً عن
صاحب الأوصاف وليجد أنه السارق بالفعل! كيف فعلها «جريجوري»
لم يعرف أحد قط لكنها كانت البداية.

في البداية تعالت همسات أهل القرية تردد ما روي عن قدرات
«جريجوري» الخارقة، قبل أن يسلع هو سس المراهقة لتتحول الهمسات
المتردة عن قدراته إلى قصص كاملة مذهلة عن فُجوره ومحونه!

حتى كان يعشق الخمر ولا ينافسه في عشقها هذا إلا ولعه بالنساء..
وبعد بعض من عاصروه أنه قضى أغلب مراهقته بين الحانات وبيوت
السُّمِّ، حتى بلغ الثامنة عشرة من العمر ليقرر الاتجاه إلى حياة التدين
بعد أن زعم أن العذراء مريم زارته في أحلامه.. وهكذا حصل
«راسبوتين» على لقب «الراهب» لأول مرة في حياته.

بكر نفسه هذا ثم يمتعه من حياة الملذات، وفي عام ١٨٨٩ تزوج
«راسبوتين» امرأة أنجبت له ثلاثة من أولاده، قبل أن يُرقد بطل رابع
من امرأة أخرى عام ١٩٠١، لكنه تركهم كنهم وبدأ رحلة روحية طويلة
حلاها بقدس واليويا قبل أن يعود إلى وطنه حاملاً القدرة الخارقة
سكنت الأساس في شهرته فيما بعد.. العلاج الروحي.

هذه القدرة - والتي قد تبدو لك مجرد سحافة الآن - كانت تمنح صاحبها
شدة لا تصدق في رمي «راسبوتين»، وكان هو أشهر أصحابها بكل تلك
قصص التي رويت عنه وعن الذين شهدهم من أمراضهم بصلواته، لكن
حدث الذي قلب حياته رأساً على عقب كان لجوء زوجته لقيصر إليه طالبة
مساعدته بعد أن أصابها «أبيكسي» الذي كان يعاني من «بهموفيليا»، بعد أن عجز
كل أطباء روسيا عن مساعدته.. الفتى كان هشاً، وكان أي جرح مهما كان
صغيره يكتبه لكي يبرأ لأيام متصلة. وحين اقترب من الموت أخيراً قررت
أنه المحاطرة ومنح العلاج الروحي فرصة، فأتوا لها بـ«راسبوتين» الذي
فحصه بصفل بسرعة، قبل أن يبدأ تلاوة صلواته و.. و..

ونحنن الصبي بمعجزة ما!

بعض يقولون إنها قدرته على التنويم المغناطيسي هي ما ساعدت
بعض على التحسن، والبعض يصرّون على أنها قدراته الخارقة، لكن

المؤكد أن إنقاذه الصبي منحه شهرة لا حد لها، وأنه بعدها أصبح مفر من القيصر وزوجته، حتى إنهم كانوا يقولون إن الطريق إلى قلب القيصر يبدأ من «راسبوتين».

هكذا حصل «راسبوتين» على السلطة، وهكذا استخدمها ليمارس مدياته على نطاق واسع، عارضه الكل طويلاً من دون أن يؤثر هذا على سلطته التي منحها له الإمبراطورة. ومع الوقت أصبح الموت أو عز هو مصير كل من يحرف على معارضة «راسبوتين» أو التصدي له.

وهنا أصبح واضحاً للجميع أن المعارضة السياسية لن تُحدي معه وأنه يجب أن يموت.

كانت أول محاولة لقتله عن طريق امرأة استأجرها بعض النبلاء لقتله، فطعمته تلك المرأة في معدته، لكنه نجا، وإن عاش بعدها وهو يمتدح حرج عاتراً زاد من حمص معدته، وهذه الريادة منحه تحصيياً ضد السموم التي حاول البعض اغتياله بها لاحقاً. وهذا الحمص كان يسمح له ألا يصدق ضاعف من جنونه ومن سعيه وراء متعته، إلى أن بدأت الحرب العالم الأولى عام ١٩١٤، ليقرر نداء روسيا أن موضوع «راسبوتين» لم يعد قابلاً للتحمّل أو التأجيل.

«راسبوتين»، الذي كان يملك سلطة اختيار رئيس الوزراء ورئيس الدفاع، تسبب بفصل قراراته «الحكيمة» في الحرب في هلاك ملايين من شباب روسيا الذين وجدوا أنفسهم يقاتلون في معركة لا يحملون فيها سلاحاً ولا دحيرة. وهنا لم يعد للعبث مكان، ولم يعد للصبر فرصة اجتماع بعض السلاء بقيادة الأمير «يوسوف»، وقرروا أنهم سيقتضون على «راسبوتين» وبأي طريقة ممكنة.

من؟ في ليلة السادس عشر من ديسمبر عام ١٩١٦.

ن؟ في قصر «مويكا» لعاشة التي كان «راسبوتين» يرعب فيها صراحة.

هنا ستكون نهاية الرجل، وهناك يقف الآن يوسف ليشهدا بنفسه.

ويبدأ دوره بعدها.

وأمامه في قاعة لطعام وقت «راسبوتين» ينظر مستمراً للرجال الثلاثة، وقد أخذوا يرتحمون أمامه ويتبدلون النظرات كأطفال أمسكهم بالغ وهم معروفون خطأ ما. وبحواره استعددت المرأة قدرتها على النفس أخيراً سداً في الهات معوضة مدتها، فشرع يوسف برحمة عحية تسري في حسده، تحولت إلى انتفاضة حقيقية حين رفع «راسبوتين» رأسه ليسدد عينيه تحده مباشرة، قائلاً:

- قصر حميل

فوجد يوسف نفسه يهمس بحوف لا سر له:

- به برابي.

كن «راسبوتين» خفض رأسه ليسدد عينيه إلى الرجال الثلاثة أمامه مدو

- أن نصم «مويكا» لنا؟

سأل. فتصاعف توتر الرجال وانتزع «يوسوف» صوته من حلقه سخر من محقق دحوب

- إنها تستعد لاستقبالك . لماذا لا تجلس لتطرحها؟

فبتسم «راسبوتين» ابتسامة رحل يعرف ما يحدث تمامًا، ليشرح وجه «يوسوبوف» وقد توقع أنه سيستدير راحلاً، لكن «راسبوتين» نزل من أحد المقاعد المحيطة بالطولة وجلس عليها لتساوي قامته، ثم قامات الرجال الواقفين أمامه، قبل أن يشير إليهم مبتسماً:

- اجلسوا.

قالها بساطة، لكنهم تلقوا كلمته كأنها أمر لا يقبل الجدل أو المساس ليجلس الثلاثة على الفور، وقد أشاح «ديمتري» بوجهه عن «راسبوتين» محاولاً أن يتحاشى نظراته وابتسامته الواثقة، بينما دفن «فلاديمير» وجهه في طبقه السحوي أمامه، تركاً «يوسوبوف» يحاول الانسجام والسيطرة على نفسه أمام «راسبوتين»، الذي اتسعت ابتسامته وهو يكرر:

- رائحة الكعك شهية.

وهنا أصبح يوسف على يقين من أنه يعرف.. المرأة بحواره لم تكن تباليغ إنه يعرف ما سيحدث له تمامًا لكنه أتى على الرغم من كل شيء، وما هو يواصل لعبتهم بثقة لم تدفع إلا بالخوف في قلوبهم، ولكن «يوسوبوف» تعال ك نفسه ليقول:

- لقد طلبت «مويكا» إعداد خصبًا من أجلك.

قالها وأمسك بسكين طعام ليقرنه على أحد الأكواب الفارغة أمامه، فأنت الخادمة التي رآها يوسف ما إن وصل إلى هذا الرمن، لتدخل القاعة من بابها الخلفي ولتتحه إلى الكعكة لتبدأ في تقطيعها بسكينها، ولتضع قطعة منها في طبق كل واحد من الرجال أمامها بسرعة ومهارة،

كأنها تدرس مهمة تدرّست عليها طويلاً، وقد أخذت تتحاشى بطرات «راسبوتين» المتسمة، التي سددها لها حتى انتهت، لنهم بمعادرة المكان بولاً أن استوقفها قائلاً:

- تنظري.

فتمددت الخادمة مكبها وشحبت وجهها لتختلس نظرة سريعة مع «يوسوبوف» الذي حافظ على حمود وجهه - وهو الأمر الذي عجز عنه رفقة البدان تدّى المنق حلياً على وجهيهما - قبل أن تنتفت إلى «راسبوتين» منتظرة أوامره، لتتسع بتسامته قبل أن يقول:

- أكره أن أتاول هذا لكعك الشهي من دون أن تدوقه أولاً. لذا..

ويبسطه تمة أمسك بشوكته ليقطع بها حرة، مما وصعته الخادمة في صده، قبل أن يمد يده به تجاهها، مردفاً:

- نمد لا تأخذي قطعة؟

هذا تحول المشهد أمام يوسف إلى شيء أشبه بلوحة لعشاء لأخير، وقد تحول لرجال الثلاثة إلى «يهودا»، وقد تبدت المفحاة والصدمة على ملا محهم، و«راسبوتين» يجلس وسطهم يتسم في ثقة، يمد شوكته بقطعة كعك إلى الخادمة التي شحبت وجهها هلعاً وقد فمدت قدرتها على الرد أو الحركة.. وبصوته العميق الأمر طلب «راسبوتين»:

- والآن.. افتحي فمك.

فألها باستمتع كمن يحول طعام طفل يابى الاستجابة، مع فرق، هو أن الخادمة ليست طمعه، وأنها ليست تأبى الاستجابة له، بل هي

تخشأها كالموت الذي ينتظرها في قطعة الكعك هذه.. لهذا اختست
 نظرة جديدة لـ «يوسوف» الذي مسحها نظرة صارمة أمره فيها بالاستحار
 لـ «راسبوتين»، وقد دس يده في ملابسه في إشارة واضحة: إما الموت
 بالكعك وإما بمسدسه الذي قبض على مقبضه متحيراً. فتلعت الخادمة
 المسكينة ريقها والتمعت الدموع في عينيها، قبل أن تمنح فمها بتردد.
 لتسمح لـ «راسبوتين» بأن يدس شوكته فيه، ليستص حنكها مع مدا
 الكعك الشهى الذي تركه «راسبوتين» داخله، قبل أن يستعيد شوكته
 مبتسماً في رضا، ليقول:

- أشكرك.

فلم تجبه الخادمة ولم تقوَ على التحمل أكثر من هذا.. هاربة
 تبقى من عمرها أسرع خارجة من القاعة، ليلتفت «راسبوتين» منسماً
 للرجال الثلاثة الذين شهدوا الآن مقتل تلك النائسة من دون أن يتحرك
 لهم طرف، وقال:

- خادمة لطيفة.

ثم.. وبالهذوء والبساطة ذاتيهما اقتطع لنفسه قطعة ضخمة من
 الكعكة في طبقه ليدسها في فمه، ولتسترخي أجساد الرجال الثلاثة
 أمامه أخيراً.. لقد فعلها.. أكل كعكته المسمومة، وما هي إلا لحظات
 حتى يبدأ مفعول «السيانيد»، وحيثما تنتهي هذه الليلة المشؤومة
 وحين ابتسم «يوسوف» كانت ابتسامته حقيقية هذه المرة تحمل نوعاً
 من الخلاص، إذ قال:

- انتظرونا هذه الليلة طويلاً.

وتبع «راسبوتين» ما في فمه، ليحييه:

- أعرف

ثم ملأ شوكته بقطعة جديدة دسها في فمه وقد بدا عليه الاستمتاع
 بعد قهء، ليتحول استرخاء الرجال أمامه إلى ترقب، فتحفز فذهول
 لا حد له. به لا يزال يأكل! «ديمتري» تحديداً أحد يحدق فيه بذهول
 لاحظ «ولاديمير» الحائس بحواره، فلكره محاولاً تسيبه، لكن «ديمتري»
 لم يهتبه تماماً وقد أخذ يتبع «راسبوتين» الذي واصل النهام ما في طبقه
 يستمتع، أثار غثيان «يوسوف» الذي تساءل بحيرة:

- ما الذي تعرفه؟

- أعرف أنكم كنتم تنتظرون هذه الليلة طويلاً وأعرف ما الذي
 تتوقعونه الآن.

فإنه بساطة لم يتحملها «ديمتري» فهت وأقفا وهم يقول شيء ما، لكن
 صوت سقوط حنك ثقيل نعالى خارج لفاعة من الاتجاه الذي خرجت منه
 الخادمة، يستص الرجال الثلاثة ومعهم يوسف في محبته، لكن صوت
 «راسبوتين» خرج منه هادئاً ليفسر:

- إنها الخادمة.. لم تتحمل «السيانيد» فماتت.

ثم وبالهذوء ذاته دس آخر قطعة كعك أمامه في فمه ليتراجع بظهره
 في مقعده، وقد بد عليه الشغ أمام أعين الرجال الذاهة.

ولمحة نحمد المشهد أمام يوسف تماماً وإن انهار الجدار الرابع
 فمسر حيه انني كن الرحى يؤدونها أمام «راسبوتين» الذي ابتلع ما في

فمه لبواصل تسديد عيه تحدهم مستمًا، وكأنه يدعوهم للخطوة الثانية
كأنه يتحداهم!

ثم في اللحظة التالية تحرك الرجال الثلاثة فجأة لتبدأ المعركة

* * *

وفيما بعد وحين عاد يوسف إلى رومه ليسترجع ما قرأه عن أحداث تلك
الليلة، فهم سر تصارب أقول الرجال الثلاثة في وصفهم ما حدث، ووجد
أنه هو ذاته عاجز تمامًا عن وصف اغتيال «راسبوتين»، مع أنه شهده نفسه

سيذكر أنه رأى الرجال الثلاثة ينقضون على «راسبوتين» الذي
لم يتحرك من مكانه، وسيذكر أنه رأى «ديميتري» يجرح هرأوة معدنه
من ملبسه، وهوى بها على رأس «راسبوتين» فأصدرت دويًا هائلًا
كأنها ارتطمت بحجر، قل أن تتحجر الدماء من رأس «راسبوتين» في
وجه «ديميتري» الذي أزاحه «فلاديمير» من طريقه لينقض بحجره على
«راسبوتين»، وليعمره في صدره في اللحظة التي قمر فيها «يوسوبوف»
من على مقعده وقد قصت أصابعه على مسدسه العتيق يحاول تسديده
لـ «راسبوتين» الذي صرح في عصب لم يحمل درة من الألم وهو بهت
واقفًا ليملاً فاعة الطعام بحسده الصحم وقمته العارمة.

وما حدث بعدها يستحيل وصفه بالكلمات، ويستحيل تصديقه حتى
لو رأيته بعينيك.

الرجال الثلاثة انقضوا من جديد بأسلحتهم و«راسبوتين» انقض عبيته
بيديه العاريتين وبصرخاته التي انتفض لها جسد يوسف المسمن بقوة كـ
قلبه أن يتوقف معها، لولا أن أمسكت به المرأة لتجذبه صائحة

- هيا..

فرككه يوسف تحذره بعيد عن لافدة الصغيرة التي ارتطمت دماء
«راسبوتين» بها، وإن لم تنوقف صرخاته ولا صرخات الرجال الذين
وجدوا أنفسهم في مواجهة دت شتر قدر على تمزيقهم إرنا، وإن لم يتمكن
يوسف من التحرك أكثر وقد فقد قدرته على الرؤية مع ظلام الغرفة، لتصبح
به امرأة من حديد.

بحب أن تتحرك.. هيا.

ثم حدثت نفوة أكبر استجاب لها جسده الواهن في اللحظة التي تعالى
بها صوت أول طلق ناري، سيذكر يوسف فيما بعد أنه اخترق ظهر
«راسبوتين»، لكنه لم يوقفه

سهم لم يوقفه الصربات والطعنات لم توقفه وحتى لطلقات
نارية لم توقفه لبيته، لكن يوسف لن يطل مكانه ليشهد نهايته، فالمرأة
حدثه إلى ظلام الغرفة الصيقة، لتمتخ فيها دت تسلس منه الصوء ولتخرجه
مها وقد أحدث تردد.

- بحب أن نسرع.. لو عثروا علينا فلن نخرج من هنا.. أراد يوسف أن

يحمره بأن الرجال الثلاثة لن يبقوا على قيد الحياة ليطاردوهم، لكن
معلوماته التاريخية ستوقفه وأرغمته على الصمت والاستسلام لها
بالضغ سبقون على قيد الحياة وسيقتلون «راسبوتين»، فهذا ما ذكره
التاريخ وبصراحة، صحيح أنهم قصوا ليلتهم يحاولون فعلها قبل أن
ينجوي «راسبوتين» في النهاية جثة همددة، وصحيح أنه عد إلى الحياة
ثانية ليحاول الهرب وليقتلوه من حديد قل أن يحملوا حشته ليلقوا

بها في نهر «نيفا»، حيث عاد إلى الحياة للمرة الثالثة، وحيث حزن الهرب لتجبره وصاصة في رأسه على الاستسلام للموت أخيراً، لكنهم فعلوها في النهاية وظلوا على قيد الحياة عاجزين عن تفسير ما شهدوه هذه الليلة وعن حكايته بالصورة الصحيحة.

هكذا تنتهي أسطورة «راسبوتين» وسيعجز التاريخ بعدها عن تفسير عودته إلى الحياة بعد أن واحه السم والطعمات والرصاص وماء «نيما» المثلجة، كما سيعجز عن تفسير رسالته التي أرسلها إلى القصر «بيكولاي» ينسأ فيها باعتياله وبهلاك عائلة «بيكولاي» من بعده - وهذا ما حدث فعلاً - لكن كل هذا لم يكن يهم يوسف الآن.

الآن عليه أن يتبع المرأة عبر ممرات قصر «مويكا» السرية، والتي اقتادته خلالها لتخرج به في النهاية إلى حيث كانت الثلوج المتناصصة في انتظارهما.

لقد انتهت ليلة «راسبوتين» عند هذا الحد . لكن ليكن هو لم نبدأ بعد



وفي العربة التي كانت تنتظرهما قرب القصر وجد يوسف بعض الدفء في انتظاره.

في داخلها ألقى بجسده الواهن ليحتمي بها، ويجواره جلست المرأة وقد احتست الدموع في عينيها، لتشير إلى قائد العربة الشاب من دون أن تطلق بحرف فاطلق بهما وسط الثلوج المتساقطة.. لقد مات سده الليلة.. قتلوه أمام عينيها ومن دون أن تملك له شيئاً ومن دون حتى أن تملك الوقت الكافي لترثيه أو تفتقده.. والآن..

به دورهما.

وبحوارها جلس يوسف يحاول إيقاف جسده عن الارتجاف وقد بد من الو صبح له أنه لن يتحمل برودة هذه الليلة طويلاً. ليس في هذا لحسد المسن الذي اختاره له الشيء ليعذبه بمجرد وجوده فيه.. وعلى رغم من أنها كانت فرصته الآن ليلقي بأسننته على المرأة، فإنه رأى الدموع المحتسنة في عينيها فقرر الانتظار قليلاً.. امرأة في هذه الحالة من الصعب أن يحدث أي إحداث مهم حاولت معها، ولا فصل أن ينتظر حتى تبدأ في أو حتى يلبس وجهنهما ليفهم أكثر . لكنها التفتت إليه لتبدأ بصوت لا تستمع لإخفاء حزنها فيه كما أخفت دموعها:

- سبب بعد قليل إلى المعبد . وهناك سبهي مداه سيدي لن يكون الأمر سهلاً لكنني أعرف أنك قادر على فعلها.

فلم يملك يوسف نفسه من أن يتساءل بحيرة:

- قادر على فعل ماذا؟

- سنتهم كل شيء حين يصل . لكن «راسبوتين» أخبرني بأنت الوحيد القادر على فعلها. أخبرني بأنت حين ترى ما ينتظرك ستعرف ما عانيت معه

ثم مدت يدها لتقبض على أصابعه المرتجفة، مردفة:

- وأنا أثق فيك يا أبي.

وهو لم يجها يوسف وقد ألجمت المفحاة لسانه وأعدت تشكيل ملامحه.

لقد حصل على إجابة أول سؤال له في هذه الليلة، وعرف أخيراً
هي هذه المرأة التي تجلس بجواره والتي تقوده الآن إلى حيث تنصّر
مفاجأة أقسى - كما سيعرف بعد قليل - لأنها تنق فيه.

إنها ابنته!

* * *

على أرض الواقع، وفي إحدى الليالي تساءل يوسف: ما الذي سيحدث
لو تزوج لينجب ويصبح أباً.

كان تسؤلاً بلا حدود - فاحتمال أن يحد من ثقل الرواح به أقرب إلى
الاستحالة - لكنه كان يملك حق التخيل، وكان يمارسه في بعض الليالي
كنوع من التعويض عن وحدته التي سيقضي معها ما تبقى له من عمر
لا توحد امرأة واحدة عاقبة ستقبل الرواح به، لكنه يستطيع أن يتخيل و حد
ترضى.. بل يمكنه أن يجرو على تخيل أنها ستحبه!

وفي تلك الليلة تخيلها يوسف وقد وافقت على الزواج به لبعض
طردة وحدته من المنزل - فهي لن تقبل بأن يشاركه فيه أحد - ثم تحبها
وقد أنجبت له ابناً يحمل اسمه، فتمنى يوسف ألا يحمل منه أكثر من هذا
تمنى ألا يرث ابنه منه نحوله ولا ملامحه ولا ضيق جيبه الأمانة
ولا سوء حفظه، وألا يعاني الوحدة التي عاناها هو طويلاً، وتمنى لو مند
به العمر حبها ليظل بحواراته، يقرأ بحوار فراشه كل ليلة، وألا يتركه
ليواجه هذه الحياة القاسية بمفرده أبداً.

ليلتها أقسم يوسف إنه لو حصل على ابنه التحيلي هذا فلن يتركه أبداً،
وسيقضي بجواره، وسيمسحه السعادة التي لم يحط هو بها قط - ولينتهي قصي

سعت طويلة يداعبه ويحكى له عن طفولته هو، ويعدده بأنه حين يكبر لن
يركه بعض في مجلة اسمها «المجلة» مهما كان السبب.. ثم ليلتها حين
ستدق من تخيلاته أخيراً وجد وحدته في انتظاره تبتسم ساخرة، تجاهل
سمتها واحتمى بفراشه وأحلامه من واقعه المرير.. إنه لن يتزوج أبداً
وس يكون له ابن - وهو يعرف هذا جيداً.

نكه - على الرغم من كل شيء - اتسم ليلتها لنفسه قبل أن يدم، وهمس
- لاسي أحبك لن أتروح أبداً كيلا أكون أبك.

كأنه فرره!

ثم نام ليلتها وهو يشعر بخواء لم يشعر بمثله من قبل.

* * *

نكر ما هو الشيء وقد حقق له أميته ليمنحه ابنة تجلس الآن بجواره
في عربة تنجه مهما إلى حيث ستبدأ مأساة هذه الليلة.

س روسية، عاشت في أوائل القرن العشرين، وتصف «راسبوتين» بأنه
اسيدها، وتنتظر منه أن يعرف المطلوب منه بمجرد أن يرى ما ينتظره
في المعبد، ليفعل ما عليه فعله، لأنها تنق فيه كما أخبرته.. ابنة هي الآن
مرأة نعمة تجلس إلى حابه، لكنه لا يشعر تحبها بأي نوع من العاطفة،
ولا يبدو عليها أنها تحمل له إلا رغبته في أن ينهي ما بدأ سيدها.. ابنة
حسن تحدثت خرج صوتها بارداً كالشوح المتساقطة خارج العربة، ليصيبه
بشعريرة.

- نغد وصدا.

توقفت العربية بهما أمام ذلك المبنى الذي بدا ليوسف مهجوراً بالشبح التي عطلت مدخله وحدراته والظلام الذي أضل من نور هذه، لكن استه - انني هي ليست ابنته - ترجلت من العربية، لتقف أمامه ولترمقه بتوتر من تعرف ما الذي ينتظرها في الداخل، قبل أن تلتفت إليه منادية:

- هيا ت.

فتردد يوسف للحظة قبل أن يفارق دفء العربية ليلقي بجسده في برودة تلك الليلة - التي لم تكن الشوح المتساقطة السبب الوحيد في - ليقف بجوارها وقد أخذ قلبه يرتجف في جسده الممسن - لقد حلت لحظة الحقيقة، وأيا ما كان ينتظره داخل هذا المبنى فلم تعد تفصله عنه إلا لحظات معدودة.. دوره في هذه الليلة سيبدأ حالاً، وهو لا يعرف بعد ما الذي عليه فعله، لكن «راسبوتين» قال إنه سيعرف.. لماذا قالها؟ لأن سيعرف.. فقط أضافت ابنته:

- يجب أن ننهي الأمر كله قبل أن تنتهي هذه الليلة.

ثم إنها ابتسمت لتردف بلهجة حالمة لم تزد إلا خوفاً:

- إنها الليلة الثانية والعشرون لكنها ستكون الليلة الأخيرة

ومن دون أن تمنحه تفسيراً لما قالت حطت خطواتها الأولى نحوه المبنى المهجور، فعلاً يوسف صدره بهواء الليلة البارد، ليرتجف جسده كله رهبة وانزعاجاً، قبل أن يتبعها إلى حيث كانت مهاجأة قاسية في انصراف

أقصى مما تحيل بكثير!

* * *

داخل المبنى كان الظلام في انتظارهما، وكانت اللوحات متاثرة على حدرته، لكنها لم تكن تتحرك، ولم يجد يوسف نفسه في أي واحدة منها. وعلى ضوء الشمعة التي أشعلتها بته تراقصت الظلال على اللوحات يرى يوسف فيها وجوها تتلوى في ألم، ورحالاً يرتدون زياً مماثلاً لريه يحون في حصوع وطاعة أمام رجل استرسل شعره الأسود الطويل على رجليه حتى امتزج بلحيته، وقد سدده لهما عينيّن توشك نظراتهما على احتراقيهما، وأدرك يوسف على الفور أنه «راسبوتين»، وأن أتباعه كانوا يعدونه بصورة أو بأخرى.. إن استه في هذا الرمن تلقه - «سيدي»، لكن يبدو أنه لم يكن محروداً قند لهم. بل ما هو أكثر بكثير. وها هو الآن في هذا الرمن واحد منهم، وعليه أن يبدي الحصوع ذاته والطاعة ذاتها حتى لو كان يعرف يقيناً أنه مات وأن جسده الآن ترقد في مياه نهر «نيما» القريب من هذا - لهذا تساءل بصوت حمل نفوره من كل ما يراه حوله:

- و الآن . ما لمطوب مي؟

- سترى بنفسك بعد قليل.

فإنه استه، ثم تقدمت من الفدعة الحاوية أمامه حاملة شمعتها لتضيء طريقاً أمامها، فشعها هو بخطوات مهكة حتى بلغت استه ذلك البروز في حداره. لتأخذ في تحسسه كأنها تبحث عن شيء ما، قبل أن تضغط على حرة فيه، لينفجر الجدار كاشفاً عن درج مظلم يقود إلى الأسفل، فأشارت إليه وقد مستد بها الحماس

- من هنا

ثم بدأت هبوط الدرج، فأسرع يوسف من ورائها يحتمي بصوت شمعتها

من الظلام الذي حاول اتلاعه. وعلى الرغم من تذكر اللحظة التي هبط فيها الدرج إلى قبو فيلاً الدكتور ليلي، قبل أن تلحق هي به هالكٌ سُحب من قتلته بسكين قتلها هو به، لتحاول موسم قتلته بذات السكين لاحقاً ولنفسه همس:

- تماسك.. الدكتور ليلي لن تلحق بك الليلة.. ليس في هذا الرمز لكس.. من قال إن ما ينتظره في نهاية هذا الدرج لن يكون أسوأ من الدكتور ليلي وحشٌ عدلتها التي كنت ترقد في قو مرلها؟ لا داعي للتفكير بهذه الطريقة فأنت ستواصل الهبوط على أي حال وإلى أن يروى بنفسك ما الذي ينتظرك.

تماسك.. تماسك!

وبلغت ابنته نهاية الدرج أولاً، لتضيء بشمعتها ذلك الباب الخفي عند نهايته، ولتلتفت إليه قائلة:

- أبي.. أنت مستعد؟

هوذا يوسف أن يطلب منها ألا تناديه بهذه الكلمة، لكنه قرر تحويره ليهر رأسه مجيئاً أن نعم، فمسحته ابنته بطرة صامئة دامت للحظة قبل أن تمد يدها لتفتح الباب الخشبي الثقيل ببعض العناء، لينفجر الضوء الذي اسعث من الداخل في وجه يوسف، وليجره على أن يفلق عيبيه متأنخاً، قبل أن يفتحهما من جديد سطاء، ليشهد أخيراً ما تركه له فراسونين في الداخل، ولينفجر الدهول هذه المرة من عيني يوسف وفي ملامحه

فهي الداخل، ووسط مئات الشموع التي تناثرت في المكان، وعلى ذلك المذبح الحجري الذي انتصب في منتصف الغرفة تماثلاً، كان

دنت الضئل برقد بحسده النصيل، وبعيين مفتوحتين ترمقان اللاشيء
ثبات محيف

صفار في العاشرة من عمره، شاحب الوجه أسود لعينين، بدت بظراته
شنة حادة لا تليق بعمره بأي حال من الأحوال.

طفل رآه يوسف من قبل، وكان السبب في كل ما حدث به، ولهداية
لناسه التي لم تنته بعد ولن تنتهي

صفار لا يحمل اسمًا لكنه يعرفه كابنه.

من الدكتور مجدي!



.. هي كل مرة ستحصل على قطعة من الحقيقة.. وسأحصل أنا على
قطعة.

* * *

وأمامه على ذلك لمدح لحجري شاحص العيين في رمن لا يمت
رمن يوسف بصلة.. بجسده الضئيل.. بشعره الأسود الفاحم.. بنظراته
تي تبق برحل ناع . وملاسل تليق بهذا العصر، وقد الطفل أمامه ثاباً
كضربه، وكأنه مجرد جسد لا روح فيه ولا حياة، وأمامه وقفت المرأة
شبر به وقد استمد بها خوف ارتجفت له يدها التي أشارت بها وصوتها
بدي حرج منها، ليقول
.. إنه ها.

فلم يحس يوسف، ولم يبدُ عليه أنه سمعها أصلاً.. لقد كان يقف معها
في العرفة دته يرمق الحسد دانه، لكنه كان قد فقد انصده بواقع هذا الرمن
بدي واحد بعينه فيه، وكان وعيه يسبح في بحر دكريت بعيدة، حاص
بعصه في رمنه والنقص الآخر في أرمه أخرى راره مرعفاً، وفقد في
كر واحد منها قطعة من جسده لكن المرأة واصلت من دون أن تدت
إنه وقد أحد جسدها كنه يرتجف هذه المرأة:

.. به ها.. داخل هذا الحسد . يشعر بها ويستمع الآن لما نقوله، لكن
انتقاله لم يكتمل.

ثم التفت إلى يوسف الذي وقف ثابتاً شاحص البصر كالحسد
لر قد أمامه، لتكرر:

.. إنها الليلة الثانية والعشرون.. لكنها ستكون الليلة الأخيرة.

٧

أنت تذكر تلك الجريمة التي حدثت في العام الماضي، والتي شرر
تفاصيلها في المجنة.. أستاذ التاريخ الذي قتل اسه. لقد كانت حرجه
شعة حقاً.. الرجل هشم رأس طفله وهو نائم بمطرفة.

* * *

.. مجرد فكرة أنه فتح عيين مذعور نيس وبطر إلبك والدماء تتحجر من
رأسه من دون أن يحرك هذا على التوقف؛ مشيرة للعثيان حقاً.. لقد
مات مع الصرنة الأولى، لكك وأصلت ضربه و

هنا قد طعه مجدي وللمرة الأولى بصوت لم يستخدم منذ عام أو أكثر
.. لكنه لم يمت

* * *

.. أنا هنا لأساعدك.. اللعبة لن تكون ممتعة لو لم أساعدك.

* * *

قالت لها فأجبر يوسف نفسه على العودة إلى أرض الواقع، ليخرج صبي
من حلقه مبحوحًا خشنًا كصوت رجل يوشك قلبه على التوقف:

- الديلة الثانية والعشرون؟

- هذا ما أخبرني به سيدي.

ثم بدأت ابنته - التي هي ليست ابنته - تشرح مستعيدة ما لقته لها سيده
- إنها ليلة تتكرر كل ستة وتسعين عامًا، وفيها تذوب الحواجر بين
عالمنا والعالم الأخرى، سامحة لنا بالعبور إليها.

واختنق صوتها بالخوف، وهي تردف:

- وسامحة لهم بالعبور إلينا.

وصمتت للحظات تماثلت فيها نفسها، قبل أن تواصل:

- في الليلة الأولى كانت البداية. سيدي أحربي بأن الأمر كله بدأ
بامرأة حاولت أن تعيد زوجها إلى الحياة.

* * *

لم تشعر به المرأة التي واصلت ممارسة طقوس لم يخلق يوسف نوعه
كاملاً ليذكر الغرض منها.

إنها تحاول إعادة جثة رجلها إلى الحياة.

خياله الخصب منح هذا التفسير، وقصة كاملة تصلح للإجابة عن
أسئلة عديدة.. هذه المرأة ورجلها كانا يسيران في الغابة حين اعترض
سكن تحاوريف الأشجار طريقهما.. قتلوه، وهربت هي لتقتلهم ولتجاهل

فنه هو طم منها أنه تنمي إليهم، ثم جمعت حشهم في هذه الدائرة
نستخدمهم في ممارسة طقوس سحرية مستعيد بها رجلها إلى الحياة.

* * *

كانت المرأة تمارس السحر وتحيد طقوسه. وحين هلت زوجها
أمد عبيها حاولت إعادته باستخدام طقوس لم تحريها من قبل،
ولم تكن تحرق لولا أنها اضطرت. إعادة الموتى للحياة محاطة
حقيقية، ولقد كانت المرأة تعرف هذا، لكنها كانت تحب روحه
حقًا، ولهذا اضطرت.. ولقد نفذت الطقوس للمرأة الأولى لكن
من عدد بيدها لم يكن روحها. بل كان هوا!

وحنست نظرة سريعة إلى حسد الطفل الراقد أمامها قبل أن تردف.
- كان شيء. لا أحد يعرف ما هو تحديدًا، لكنها الآن تعرف أنه
موجود.. ونعرف كيف بلغ عالمنا.

ثم عدت لتشيع بوجهها بعيدًا عنه، لتواصل:

- هكذا سيقط شيء في حسد روح تلك المرأة أول مرة، وهكذا طل
لسوات طنت يعيش أسير هذا العالم، يحوب الأرض والأحساد،
ويحاوّر لأرمة، حتى انتهى به الأمر في «الاشيا» وفي زمن «فلاد
ثالث» أتعرفه؟

* * *

- آنت مستعد؟

فأجابه يوسف وبلغته دانها وبصوت ليس هو صوته:

.. مستعد لماذا؟

.. من دون قرة تردد أولج الخنجر حتى مقبضه في قلبه هوا

* * *

.. ولما بحها يوسف، لكنها واصلت

.. كان «فلاد» هو ثاني من مارسوا هذه الطقوس على أرصا، وكان يحاول بها إعادة روحه للحياة لكن شيئاً ما حدث لم تذكره كتب التاريخ، ولن نعرفه أبداً، وبدلاً من أن يعيد «فلاد» زوجته إلى الحياة هناك هو ليصبح لشيء حسده .. فيه عاش الشيء طويلاً، وبه تمكن من الهرب مقرر حاولوا قتله ليطلق إلى المعجر وليستقل إلى جسد ثالث من بعدوا الطقوس على أرصا.. «إيراث بانوري»

* * *

.. من أن تحرك هناك شيء يحب أن أعرفه أولاً.. من أنت؟

.. مرافقت انتسامة وحشية على شعبي المرأة إذا أحابت:

.. «نطع أنت تعرفي. أنا مولاتك «إيراث» «إيراث بانوري».

* * *

.. دعاء العاهرات لم تمنعني الخلود.. أتعرف لماذا؟ لأنهن عاهرات..

كنهن عاهرات، وكلهن دفعن الثمن.. وفي النهاية لم يعد أمامي إلا أن أحرق تلك الطقوس الملعونة.. كنت أظن أنها ستمنعني بحود.. كنت أظن أنها ستمحني الفرصة لأحيا.. لكنها بدلاً من هذا مسحتني له!

* * *

فتبدت الدهشة في عيني الأشيب والفضخم، وتبادلا نظرة سريعة،
أن تعود عينا الأول إلى يوسف، ليحجب:

.. لقتله.. أنت من سيقتل «فلاد».

* * *

لم يكن «فلاد» ضخم الجثة ولا مخيف الملامح.. مجرد رجل عادي ذي شارب ضخمة يشطر وجهه نصفين، أسنانه فم دقيق، وأعلاه عيب خاملتان تحملان ثقة رجل يدرك جيداً أن أيما ما كان ما سيريد مني.
له على الفور.

رجل اعتاد رؤية الموت ونوريه اعتاد راحة الحثث والدماء عدد القتل حتى أصبح هواية يمارسها باستمتاع لا حد له.

رجل تأمل يوسف والفضخم والأشيب يهدوء بالغ، قبل أن يسأل حرمه

.. من منهم الذي تسلل إلى غرفتي؟

* * *

لكن «فلاد» لم يتوقف.. فقط واصل ترديد الطقوس بحشوع أقرب إلى الصلاة، حتى اقترب من نهايتها، ليفعل آخر شيء توقعه يوسف على الإطلاق

فمع نهاية الطقوس استل «فلاد» خنجرًا من حزامه فجأة ليصبح

.. إنني أقدم لك هذا الجسد.. جسدي.

- لكن بقاءه في جسدها لم يدم. حين مسحوها في قصرها سمن
وبركها تهلث أحياناً ليتحرر من حديد، وليطل معلماً لسواب ظروبه
بلا جسد يؤويه ومن دون أن يعرف بوجوده أحد.. لكن سدي كان
يعرف.. كان يعرف وعنه بحث طويلاً حتى عثر عليه في النهاية وعلى
طقوس استدعائه.. وبها استطاع أن يمنحه هذا الجسد.

قالتها وأشارت إلى جسد الطفل من دون أن تجرؤ على النظر إليه.. ثم
التقطت أنفاسها لتواصل:

- إنه جسد طفل يتيم كاد المرض يفتك به، فأتوا به إلى سيدي سمن.
لكنه لم يفعل.. أخبرني بأنه هالك لا محالة، وأن كل ما يمكنك فعله
هو أن تستخدم جسده ليكون مقراً للشيء.. وهذا ما فعله. بدأ طقوس
استحضار الشيء لكنه لم يكملها.. سيدي أخبرني بأنها يجب أن تسير
إلى الليلة الثانية والعشرين حتى يذوب الحاحز بين عالمي وعالم
يساعده على العبور كاملاً، وأخبرني أيضاً أنه لن يكون معه شيء
الطقوس.. لقد كان يعرف أنهم سيقتلونه الليلة، وأنه لن يجد العرصه
ليكمل ما بدأه، ولهذا اختارك أنت لتكمل ما بدأه هو.

ثم عادت لتستخدم الكلمة البغيضة، قائلة.

- أبي.. لا أعرف لماذا اختارك سيدي تحديداً، لكنه أخبرني بأن
الوحيد الذي ستمهم ما يحاول فعله. أنت الوحيد القادر على إيه
ما بدأه.. وأخبرني بأن كل شيء يجب أن ينتهي هنا، والليته.. وإلا
ولم تكمل، وقد وجدت أنها ليست في حاجة لتفعل، لكن يومئذ
وقف أمامها وقد فقد قدرته على الاستيعاب تماماً.

بعد حصول نتوءه على قطعه من الحقيقة في هذا الرمز، لكنه حصل
عقب معرفة بالمريد والحريد من الأسئلة

ما الذي يعنيه «راسوتيس» بأن الليته سيكمل عبور الشيء؟

وماذا اختاره هو تحديداً؟

أكن يعرف أنه سيكون هو يوسف الذي عرف أكثر من اللازم ودفع
نفس معرفته هذه؟

كيف عرف؟

من أخبره الشيء؟

وبو كان يعرف فماداً حذر منه أن يساعد الشيء، وهو الذي يحاول
نصه عليه؟

وما الذي عليه فعله الآن؟

سه.. نبي هي ليست انته. تفب لأن تنتظر قرره، وهذه الليته لن تدوم
مداً. وفيها يجب أن ينتهي كل شيء كما أحترته، فهي لليته الثانية
وعشرون، الليته التي سينتهي فيها كل شيء.

كن لا

لا أمر لن ينتهي الليته وهو يعرف هذا يقيناً

ما سيحدث الليته هو أن الشيء سيحصل على جسد هذا الطفل،
وسنصل فيه إلى أن يعثر عليه الدكتور مجدي في رصه ليأخذه معه، ولتبدأ
منصة الدكتور مجدي التي تنتهي بديّة مأساته هو. هذا هو ما حدث
وما سيحدث لو لم يفعل شيئاً لأن

نعم - إنها فرصة!

فرصته ليغير التاريخ ولينجو بنفسه من دائرة الهلاك التي وحدت نفسه.. وليفعلها يجب أن يقضي على الشيء... يجب أن يفعلها وهو الآن.. ولكن.. كيف؟

إنه لا يعرف طقوس القضاء على الشيء، حتى وهو يرقد الآن من في هذا الجسد عاجزاً عن الحركة يشعر به ينظر إليه ساخرًا، ينتصر فر الذي يعجز عن اتخاذ تمامًا.. كأنه يتحداه.. كأنه يمنحه الفرصة لتعذيب لو كان يستطيع.

فما.. الذي.. سيفعله؟

- أبي يجب أن تبدأ سريعاً فما تبقى من هذه الليلة أقل بكثير مما مضى منها، ولو لم يفعلها الليلة فلن يمتد ما العمر حتى تأتي الليلة الثانية والعشرون. ما الذي تنتظره؟

قلتها استه بلهجة أقرب إلى الرحاء، فلم ترده إلا حيرة وترددًا وفي رأسه سمع صوت الشيء يردد بصوته لعابث:

- في كل مرة سيكون لك الاحتيار

وهو احتيار الليلة.

أن يعير التاريخ أو أن يستسلم له

فقط عليه أن يعرف ما الذي عليه فعله و.. و..

وكشرارة ضوء في قلب الصلحاح التمتع بالحل في رأس يوسف، فتعبد به وأخذ يتحسس طريقه إليه تقوده رغبته في البقاء.. نعم.. هناك مخرج

من هذا كنه. إنه يعرف الطريقة، لكن عليه أن يبلغها في عقده وعليه أن يفعلها وسرعة.

- أبي يجب أن تبدأ.. أيا ما كان ما ستفعله.. فافعله!

نورها ابتته - التي هي ليست ابتته - فيفضل طريقه وسط أدغال عقله حصنة حيث أشجار الأسئلة كثيفة تحجب عنه الحل الوحيد.

نمساك نماسك

أنت تعرف ما عليك فعله فقط اهدأ واسترح قليلاً وستصل إلى حل صحيح.

إنه لا يعرف طريقة القضاء على الشيء - لكن لتاريخ الذي عذبه طويلاً حملاً به المخرج من هذا كنه الطفل سيقى وسيعثر عليه الدكتور مجدي شيء في داخله. سيعيده وسيدفع لجميع الثمن. سيهنت وسيستاقط صاحب الشيء وحداً نو الآخر سيحوص هو نعمة الشيء وسيقتد أعضاء حسده وسيدفع الثمن في النهاية كما وعده الشيء و.. و

ولكن ماذا لو لم يعثر الدكتور مجدي على الطفل؟!

نعم ها هو الحل يرقد في أعماق عقده ينتظر أن يتقطعه ليصده نعم

ماذا لو لم يعثر الدكتور مجدي على الطفل؟!

- أبي ما الذي تنتظره؟

لكن يوسف لم يجده. في رأسه كان قد عثر على الحل الصحيح لبدأ تشبه على كل الأوجه ناحت عن لطيفة أمشي لتفميذه. إنها الليلة الثانية

والعشرون ولقد أوشكت على الانقضاء، لكنه لا يزال يملك وقتاً كثيراً
نعم.. ستكون هذه هي الليلة الأخيرة.

وأمام عيني المرأة المتلهفتين بدأت انساماً ثقة تعرف وجه يوسف
الكهل حتى ملأته، فاستحالت لهفة المرأة إلى حيرة أقرب إلى الحيرة
لقد عرف ما عليه فعله.. تماماً كما توقع سيدها!

وحين خرج صوت يوسف الحثيث من حلقه هذه المرأة كان يحس
البيرة العائشة ذاتها التي حملها صوت الشيء في كل المرات التي سمع
فيها، إذ قال:

- أنا مستعد.

قبح وفي اللحظة التالية قص على عناق من يفترض أنها استه، ليصر
رأسها بالمدح الحكري بأقصى ما أوتي من قوة، فلم تجد هي بفرحة
لتصرخ أو لتمهم. فقط حدثت فيه داهية للحظة قل أن تهوي أسفل قدمه
وقدة الوعي والدماء تتمحور من رأسها، فلم يلق هو سطرة واحدة عذب
فقط وقف أمام حسد الطفل يرمقه منسماً، قل أن يهمن لنفسه بمرح
- لقد عرفت ما عليّ فعله.

ثم.. وبمتهى الهدوء.. بدأ تنفيذ الحل الوحيد.

ومن المعبد خرج يوسف حاملاً جسد الطفل بين ذراعيه وهو يلهث
ويترنح، لتستقبله الثلوج المتساقطة وقد اشتدت كثافتها كأنها تعترض عني
ما يتنويه، لكنه تحامل على نفسه ودفن قدميه في الثلج محاولاً التقدم من

عربة نتي كنت في ستارته، وقد شعر بأن حسد الطفل يرن أظن لكنه
يس محرد طفل وهو يعرف هذا جيداً.

وحس بلغ العربة في النهاية خرج سائقها منها والحيرة تطل من عينيه
منسلاً
- أين «أولح»؟

وأحده يوسف بأفاس محتقة

- سغى هـ - وستحرك نحن حالاً

ثم نفى حسد الطفل على المقعد الحتمي ليحده لا يزال ش حص
عبيس يحرق في للاشيء، بالتعبير دته الحامد عني وجهه، فألقى سطرة
سريعة عليه، قبل أن يشير إلى قائد العربة أمراً:

- هـ ب

- إلى أين؟

- إلى بهر أيبه

واسم قل أن يردف سيرة عائشة

- فهدك سينتهي كل شيء

صحف بادي الصحة، قادرًا على الفتك لو استبد به الشك أكثر من هذا..
بعد قال يوسف محاولاً كبح جماحه:

.. سيدي أخبرني بما عليّ فعله.. ولهذا علينا أن نسرع.

فتمز الشك من نظرات الشاب إلى صوته، إذ سأل:

.. وماذا لم تأت «أولحاء» معاً؟

.. لأن انتي ستقوم بدورها هناك في المعبد .. يجب أن يتم كل شيء
في توقيت داه، والا فستضيع فرصت الأخيرة.

وهو يحب الشاب هذه المرة، وإن عاد الشك إلى نظراته، فلاد يوسف
.. صمت حوارهم وقد قرر أنه لا داعي للمخاطرة.. إنه مراهق يشعر بالشك
وحيرة، وأقل استفزاز له سيؤدي إلى نتائج غير محمودة العواقب.. ثم
به اقتراب من لشهر فعلاً .. المرودة المترايدة والتي لم تحجب عباءته لشقيلة
منها ولو درة تقول به قترت.

قترت من نهاية هذا كله

في لمقعد الحنفي رفد حسد الطفل ساكناً جامداً لملامح، وقد بدا
أقرب إلى حنة هامة لولا عيبه الشاحصتان اللتان تبدت فيهما نظرة
سبحيل أن تميز إن كبت ساحرة أم خائفة.. إن الشيء في أعماقه يعرف
.. مسجود له بعد قليل، لكنه عاجز عن الحركة أو المقاومة، وهو الآن
كئيب بمتابعة ما يحاول يوسف فعله بهدوء ينذر بعاصفة.

نماسك.. تماسك.

كل شيء سيتهي الليلة.. لقد عرفت الحل الصحيح والوحيد أمامك..

ويجوار قائد العربة لشاب جلس يوسف بجسده الكهل بتجاهل بصر ..
الشك التي أخذ يسددها إليه بين الفينة والفينة.

إنه يشعر بأن هناك شيئاً ما خطأ.. شعوراً هو أقرب إلى اليقين، نكه
لا يملك ما يؤيده ليحول حيرته وشكوكه إلى أسئلة يوجهها إليه.. بعد
اكتفى بنظراته تلك وبذلك التعبير الراض المتوتر على وجهه، وإن أحد
يقود عربته وسط الثلوح ببطء ملحوظ كأنه يتنحى لنفسه المزيد من الوقت

لا بأس.. لا توليه اهتماماً فهو لن يتمكن من الفهم أو التصديق حتى
لو شرح له الموقف كاملاً.. كل ما عليه هو أن يوصله إلى وجهه وبعد
سيتكفل هو بالباقي .. ليركز طاقته الآن في التغلب على حقيقة أنه سيمسك
ما سيفعله في طفل صغير يتيم لم يتجاوز العاشرة من العمر، حتى وإن
كان الشيء يحتل جسده.

كان قائد العربة شاباً أقرب إلى المراهقة بذلك النمى الذي عصى
وجهه والرعب الدموي أسفل أنفه وفي مناطق متعدة من دقه، وكان أقرب
إلى الحول والضعف، لكنه ظل .. مقاربة بجسد يوسف الكهل الضامر -

ستعذه.. ستعود إلى رمك لتجد أن مأساتك انتهت، وأن الشيء لم يعد له وجود في عالمك. تجاهل بطرات اشباب المتشككة و.. تماسك!

لكن اشباب بدأ فحاه مهشما ماله:

- وما لدي سفعله عند نهر «نيفا» تحديدًا؟

اللعنة على المراهقين في كل زمان ومكان!

و«تماسك» يوسف ليحيب:

- ما أمرني به سيدي.

- وما الذي أمرك به سيدي؟

- لو كان يريدك أن تعرف لأخبرك بنفسه.

فأنه يوسف ليفتح باب الحد ل قبل أن يتسع، لكن الشاب توقف بالعربة بغتة وبصورة أفقدت يوسف توازنه، ليصبح:

- أريد أن أعرف.. لن نتحرك من هنا إلا بعد أن أفهم كل شيء.

ها هو باب الجدال وقد انفتح على مصراعيه سامحًا للغضب ورمض باسمحيه معه، ليهدد بفساد كل شيء وفي أسوأ نواقص ممكن الآن في حرف مسحرج من بين شففيه سيعني الكثير، وعليه أن يرون كلماته حين قبل أن ينطق بها. لهذا استحصرو يوسف هدوءًا لم يشعر به قط، مسحرجه في صوته وهو يقول:

- هذا الطفل هو الوحيد القادر على إنقاذ «راسبوتين».. لقد قتلوه نسبه

- قتلوه؟!

قتلوه وأنقوا بحثته في نهر «نيفا». لكننا سذهب إلى هناك لسقده وسعيده إلى الحياة. لكن يحب أن يفعها لليلة وإلا فسهلك سيدي إلى لأند وحيها ستكون أنت المسؤول. والآن خذ قررك.

فبه يوسف ثم لاد بالصمت وقد ألقى بالكرة في مدعب الشاب مدركًا أنه أحرر هدف في شدة.. لو كان واحدًا من أتباع «راسبوتين»، فلن يحاظر من يهت سيده بسب تسرعه وشكوكه التي يُعدُّ لها مكان وسط كل الدهون سي أحد يعتمل في أعماقه لأن الحيار الوحيد أمامه الآن هو..

- لماذا لم تقل هذا من البداية؟! يجب أن تسرع.

ثم وبحماس المراهقين اعتدل الشاب على مقعده ليدبر محرك لسيارة ويصن بها بأقصى سرعة سمحت بها الثلوج، ليسترخي يوسف بجواره وقد أدرك أنه ربح هذه الحولة وعن حدارة. هذه هي مزية المراهقين لوحيدة. أنهم أعياء!

لأن يمكنه أن يعود إلى التفكير في حقيقة أنه سيلقي بجسد هذا الصعل صغير في مياه نهر «نيفا» المثلجة ليتخلص منه ومن الشيء وإلى الأبد.. هكذا لن يجده الدكتور مجدي مستقلًا، ولن يعود به إلى مصر لتموت وحده ويدفع ثمن محاولته لقتل الطفل الذي هو ليس طفلًا.. هكذا من يرسله مدير التحرير إليه في سجنه ليُجري حوارًا معه.. وهكذا ستنجو مستترة ليلي وعائلتها، ولن ترقد جثث أطفالها في قبو منزلها وفي قم سب متدح لم يعرف حتى الآن ما الذي عبه فعله به

سيعود إلى زمنه وقد استرد عينه ورمته وكليته، ولو صحت نظريته لن يجد سوسن تجلس بجواره في سيارته في المقابر الباردة، بل سيجد

نفسه في غرفة نومه في منزله، تنتظره الوحدة وسوء حظه الذي قد يحضر إليه الكثير، لكنه لن يكون أسوأ مما مر به حتى الآن.. كل هذا سيحدث لو ألقى بجسد طفل بائس لم يتجاوز العاشرة من عمره في نهر «نبت» لكنه ليس طفلًا.

إنه الآن مجرد جثة تحوي الشيء بداخلها.. جثة تستحق أن تدمر بالصورة اللائقة، لكنه لن يخاطر بأن يبحث الدكتور مجدي عن مشرقة الطفل ليخرجه منها، فهو لا يعرف حتى الآن كيف عثر عليه أصلاً. كل ما يعرفه هو أنه أتى به من روسيا، وهذا يفتح باب الاحتمالات كذب لكنه ومهما استدبره الحماس.. فس يبحث عنه في مياه النهر

هكذا سيقى الشيء أسير هذا الجسد في أعماق النهر إلى أن تدوم الساعة، وربما عاد إلى عالمه، فهي البينة الثابتة والعشرون على الرغم من كل شيء و.. و

ولكن.. ماذا لو جرفت مياه النهر جثته إلى الشاطئ؟

حينها سيعثر عليها أحدهم وقد يدفنها حيث سيعثر عليها الدكتور مجدي لاحقًا، أو.. لسوء حظه الذي لم يخيب ظنه قط.. قد يكمل الطفوس ليكمل انتقال الشيء إلى الجسد، يبقى فيه حتى يصل إلى الدكتور مجدي لاحقًا.. ملاحظة شديدة الأهمية ومن الرائع أنه انتبه لها قبل أن تصبح فرصته. يجب أن يربط جسد الطفل بحجر ثقيل ليضمن أنه سيعود إلى أعماق النهر ولن يغادره.. من أين سيأتي بحجر ثقيل؟ سيحدث واحد قرب النهر بالتأكيد فسوء حظه لن يبلغ هذه الدرجة أبدًا!

سيحتاج إلى حجر ثقيل وإلى جبل غليظ وإلى... مهلاً.

هذه المشاهد من حوله تبدو مألوفة!

حارح العربة كانت الشوحي المتساقطة تكسو الموحودات كلها بلون لا يحس ليتحول المشهد من حوله إلى شيء أشبه بلوحة ثابتة لا تفاصيل فيها، لكنه يكاد يقسم إنه رأى ذلك المبنى منذ قليل!

رآه ورأى تلك التلة الصحيرية ورأى عمود الإدارة هذا الذي حجت الشوحي المتركمة عليه صوءه، وهو واثق تمام الثقة بأنه عثر ذلك الجسر الذي يتجه إليه الشاب الآن بعربته.

ما الذي يحدث؟

- إلى أين نحن ذاهبان؟

سأل يتحداه الشاب وإن راد من سرعة عربته نوعاً ما، فدأت الحيرة في أعماق يوسف تتحول إلى خوف حقيقي سطو ولكن بثقة. لذا كرر صائح هذه المرة:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

فأجابه الشاب من دون أن يدرك أنه يريد من سرعة عربته أكثر وأكثر.

- مسعود إلى المعهد لمحصرة «أولحاه».

- ماذا؟

- سيدي مات ونحن سعيده إلى الحياة. أتعلمني أحرق؟! أنت تكذب وأن أعرف هذا جيداً.

..ولكن أ...

- لو لم تخرس فسألني بك وسط الثلوج وسأخذ الطفل معي

فخرس يوسف مرغماً وقد أعجزته الصدمة عن الرد أو التفكير
الأحمق سيفسد كل شيء! سيفسد كل شيء بعد أن اقترب أخيراً من
الحل، وسيعود به إلى حيث لن تُشكل حقيقة كونه والد تلك المرأة التي
هي المعد الكثير ناسئة إليها؛ إن ولاءها لسيدتها مطلق ولن تؤثر فيه أي
روابط أسرية من أي نوع، ولو عاد إلى المعد.. فلن يخرج منه حياً

تماسك.. تماسك..

لكنه ليس وقت التماسك به وقت التصرف.. وسرعة.

وهنا تذكر يوسف موقفاً مشابهاً مر به من طویل.. حادثاً برش
الدقة.. حادثاً تعرض إليه واستيقظ بعده في المستشفى ليعرف أن عمه
قد قررت التخلي عنه إلى الأبد.. حادثاً هو الآن أمله الوحيد في الحياة
وفي اللحظة التي بلغت فيها سرعة العربة الحد الأقصى انفتحت يوسف
إلى الشاب مبتسماً هذه المرة، ليقول:

- هل أحبرتكَ من قبل بأنني شؤم؟

فالتفت إليه الشاب بنظرة استنكار في عينيه، لكن يوسف انصرف على
صجلة القيادة بغتة ليديرها بكل قوته، لتترلق العربة على الثلوج، ويصرخ
الشاب محاولاً السيطرة عليها، لكنها دارت حول نفسها قبل أن تقصر من
على الأرض لتقلب به ويوسف الذي لم يجد الفرصة حتى للمصراع

العالم من حوله انقلب رأساً على عقب والزجاج والدماء تتناثر في

وجهه، ثم شعر بعطشه تتهشم وبالثلوج تقتحم لعربة لتعطيه، ومن الشاب
تعدت حشوة مخيفة، قبل أن تتوقف العربة أخيراً على جانبها، ليشعر
يوسف بعدها بالآلام تفوق الوصف تتعالى من كل خلية في جسده.

وفي اللحظة لأخيرة. وقبل أن يفقد الوعي. سمع صوت عمته في
رأسه تردد

- شؤم شؤم أنت شؤم!

* * *

لكنه لم يفقد الوعي طويلاً

لقد فتح معدودة فقد يوسف اتصاله بالعالم الخارجي، ثم استعاده ليجد
نه لا يزال حائساً على مقعده في العربة التي رقدت على جانبها وقد عطاه
الريح والشمس والدم، وبحواره كان الشاب يجلس مكباً وقد تتهشم قمصه
نصديري تمام، وأحدث لدماء تهمر من فمه فلا توقف لتتحمم على
صدره، وفي عينيه اللتين بدأ يريق الحياة فيهما يخوض، رأى يوسف نظرة
أنت قلبي! قبل أن يصرع الشاب ما تبقى فيه من حياة بحشوة أخيرة،
عمد بعدها جسده تماماً

لكنه يحا!

بمعجزة ما نجا هو وإن احتاج إلى لحظات ليستوعب ما هو فيه، قبل
بمدبر رأسه سطاء إلى المقعد الحلمي، ليحد أن الطفل لا يزال هناك وإن
شنت على وجهه ليرحمه من نظراته الشاخصة مؤقتاً.

لأن ماذا عن إصاباتك أنت؟

إن عتقه لم يتهشم فلقد أدار رأسه نحاح وأعادته إلى موضعه وبه يلاحظ إلا الدماء التي أحدثت تسيل على جانب رأسه لتمترج بشعره الطويل وبلحيته.. حاول تحريك ذراعيه فتصاعمت آلامه فحده بك فعلها ليتحسس جسده بحذر باحثاً عن عظام بارزة أو فجوات، فبه بعد حاول تحريك ساقيه فوجد أن ساقه اليمنى تحاول الاستجابة، بينما رقدت اليسرى مكانها وقد اخترقها قائم معدني عند الفخذ.. هذه مشكته

يجب أن يحرر ساقه، وأن يزيع أطنان الثلوح التي ملأت العربة عنه، وأن يزحف خارجاً منها، والأهم.. أن يأخذ الطفل معه.

ولنبداً بالقائم المعدني.

بحذر بالغ مدّ يوسف يديه ليتحسس القائم المعدني، فلم يكذب به حتى تصاعدت الآلام من ساقه اليسرى بصورة أرغمت على الصراخ، لكنه عكس شفثيه مقاوماً وبدأ محاولة إخراجه من ساقه، لتشنج حدة الألم بصورة أصابته بالدوار، وشعر كأنه يحاول اقتلاع بحلة من حدودها.

توقف.. توقف.

لكنه لا يستطيع التوقف.. لو لم يحرر ساقه فسيظل أسير هذه العربة وسيبقى داخلها إلى أن ينزف حتى الموت أو يتجمد حتى الموت، وفي الحالتين سيخسر كل شيء.. يجب أن يحرر ساقه.. يجب أن يخرج من هنا لهذا توقف للحظات لهث فيها بعنف قبل أن يجذب نفساً عميقاً ملأه صدره بالهواء البارد، ليقتصر على القائم المعدني من حديد وليبدأ حده بقوة أكبر هذه المرة، فشعر بالظلام يغزو العالم من حوله كأنه يحدث روحه من جسده.. ومن فخذيه سالت الدماء غزيرة من دون أن يتحرك

فدنه بمعديني قيد أنملة، ثم شعر به يستجيب في النهاية في اللحظة التي نصمت فيها ضربات قلبه أذنيه.

أخبره.. حتى لو مزقت هذه الساق، أخرجه فهو ليس جسديك، ولو عسي من تضطر إلى البقاء فيه طويلاً!

وسطاء بدأ لقائم المعدني الخروج من فخذيه وقد عطته لدماء، ومن حول يوسف بدأت الموجودات الاختفاء واحدة تلو الأخرى وقد تعاظم الصلاه في محال رؤيته حتى ملأ المشهد تماماً، لكنه استمر أحمر ما تبقى في جسده من طاقة لتواصل لحدث حتى انتفض جسده أخيراً في اللحظة التي خرج فيها القائم المعدني منه.

لقد فعلها

دموه الساخنة سالت على ساقه ليفقد حرارتها في لحظة، وحذر عجب سري في بصره السفلي كملأ، وألم يفوق قدرة لشر على التحمل يصعد إلى رأسه حتى كاد يفقد الوعي مجدداً، لكن الصلاه في مجاز رويته أحد يقشع تدريجياً، وحين حاول تحريك ساقه ليسرى صرحت به، لكنها استجابت.

عظيمه.. والآن يأتي دور الخروج من هنا وأخذ الطفل معك.

وهي مهمة ليست سهلة لتفكير فيها، فجدرب العربة منطقة عديه محدودة فتح الباب المحذور له عشية.. سيخرج من ساحة الأممية التي لم يعد هناك، وهذا سيتطلب بعض الترحف والمرونة التي لا يملكها جسده وهو سليم، فما بالك وهو مصاب بمرض؟

نكث ستخرج.. ستعامل على نفسك وستخرج وستأخذ الطفل معك.

وهذا ما فعله يوسف في النهاية.. وإن استغرق منه الأمر وقتًا لا يمكنك
اللبلة أو شكت على الانتهاء وهو لم يصر إلى النهر بعد.. ها هو الآن يرقد
على الثلج بجوار العربة وجثة الطفل ترقد بجواره، ليجد يوسف نفسه
يواجه حقيقتين بالغتي الأهمية:

أولاً: عليه أن يحمل جسد الطفل وأن يسير به، وهو عاجز عن الوقوف
حتى، ليتجه به إلى النهر، الذي لا بد أنه يبعد مسافة لا بأس بها.. فكيف
سيفعلها؟

ثانيًا: أين النهر؟!

إنه لا يعرف الطريق إليه، والعالم من حوله لونه أبيض لا يحمل علامات
أو إشارات تدله على الطريق الصحيح فكيف سيعرف الانجاء الصحيح؟
سؤالان يستلزمان إجابتين فورييتين، وهو عاجز عن التفكير في
إجابات، وقد أخذت الثلوج المتساقطة تحاول دفعه بجوار العربة
وجثة الطفل الذي رقد قرب يرقه بعينين شاخصتين لا اهتمام بهما
إن إغراء النوم الآن لا يقاوم، لكنه يعرف أنه لو استسلم له فلن يستيقظ
أبدًا في هذا العالم.. سيعود إلى زمنه وسيجد نفسه وقد خسر فرصته
الوحيدة للتخلص من الشيء.

إذن لا داعي للتفكير.. وليبدأ التنفيذ.

هكذا وقف يوسف وبيطه شديد مستندًا إلى حطام العربة، لتسك
عظمة في جسده الماء وليسيل المزيد من الدماء من جرح مساقه، لكنه
تجاهل هذا كله وانحنى على جسد الطفل ليحمله، فاستسلم له
الآخر، كأنه يثق بأنه لن يتمكن من بلوغ النهر به.

بهذا اختار له الشيء هذا الجسد في هذا الزمن.. لأنه كان يعرف!

لكنه أنقذ جسد الطفل على كتفه ترنح للحظة حتى أو شك على
خوضه.. ثم تماسك.. ثم بدأ التحرك.

وكان الشاب يقود عرته عائداً إلى المعبد فلا بد أن النهر في الاتجاه
عكسي ها هي إحالة السؤال الثاني، ولو تساءل الآن عن المسافة التي
تبعد عن النهر فلن يسلعه أبدًا.. لذا

وحكمه بدأ يوسف لتحرك حاملاً لطفل محبب وراءه حيث من الدماء
ممسكه الشوح التي عطت الأرض في يدهم.

به النبوة الثانية ولعشرون

ومهم حدث.. فستكون اللبلة الأخيرة.

* * *

وحين بلغ يوسف النهر في النهاية كان قد فقد قدرته على السير.

كمل طريقه زحفاً وهو يجر جسد الطفل وراءه، وقد أخذ جسده هو
يرتجف بلا توقف.. وفي السماء بدأ اللون الوردي يتسلل وسط الأزرق
مدرًا بأن اللبلة أو شكت على الانتهاء.

لا يهم.. إنه لن يعيده إلى عالمه فهو لا يعرف كيف.. به.. فقط.. سيسبحه
في عمق النهر.

وعلى بعد أمتار من النهر فقد يوسف قدرته على المواصلة فاسترخى
على شح بلهث وجسد الطفل بجواره يرقه منتظراً، فلم يقوَ يوسف حتى
على الالتفات إليه.. سيحظى ببعض الراحة المستحقة ثم سينفذ ما أتى

من أجده هذا الجسد لن يمكنه المواصلة هكذا. فقط عليه ألا يستسلم للنوم وسط الثلوج.. ليس بعد أن بلغ النهر فعلاً.

لكم تبدو هذه الليلة هادئة.

السكون واللون الأبيض يحيطان به، والسماء وردية جميلة تتساقط منها الثلوج ببطء. والمشهد كله أشبه بإحدى ليالي «الكريسماس» في الأفلام التي اعتاد رؤيتها بمفرده، ولا شيء من حوله يشي بأنها الليلة التي قُتل فيها «راسبوتين» والتي سيسجن فيها الشيء في أعماق نهر لنكون نهايته في هذا الزمن.

العالم من حوله هادئ حميم وهو النقطة السوداء الوحيدة في صحنه البصاء بعاءته الرمادية التي تسرفت وتلطحت بدمائه. حتى الطفل يحوره يبدو هادئاً وديعاً لا يحمل أي أثر لشيء المسحور في أعماقه والذي لم يحاول المقاومة ولو لمرة واحدة طوال هذه الليلة. ربما لأنه عجز عن هذا، أو ربما لأنه يحمل في جعبته الورقة الراححة ولم يعبث بها بعد لكنه لن يمنحه الوقت ليفعل.

الليلة ستكون النهاية.. وهو أقسم على هذا.

لهذا اعتدل جالساً على ضفة النهر ليبدأ التلفت حوله باحثاً عن حجر ثقيل وليتذكر في هذه اللحظة أنه لم يحضر حبلاً معه ليربط به جسد الطفل بالحجر. أين سيجد حبلاً هذا؟ لن يجد! ما لحل إذن؟ لحصت من التفت والتفكير ثم انتبه يوسف للحل الوحيد الذي يملكه، والحلول كلها في هذه الليلة لا بدائل لها.

هكذا وقف سطاء وقد فقد شعوره كمالاً بساقه المصابة، وهكذا بدأ

يرجع بعاءته الرمادية ليرتجف جسده أكثر ولتبدأ لورقة في التسيل لأطرافه على الفور

ببأسك. تمسك.

جسدك الكهل هذا لن يتحمل البرودة وسيهلك في دقائق معدودة، كث ستكون قد نحتضت من حبة لطفل أولاً، وبعدها لن يهم إن هلك جسد العجوز هذا، فأنت ستعادره على أية حال لتعود إلى ربك

هكذا كان يعود إلى زمة في كل مرة بأن يهلك في الرمن الذي ينتقل إليه. وهذا هو ما سيحدث له الليلة.. حتى الآن كان قد جرب الموت بهشيم لعمق وسهم في ظهره وبطعنة في جنبه.. والآن يأتي دور الموت بحمد. لكنها ستكون المرأة الأخيرة التي يموت فيها. على الأقل في أرملة بعده لا تمت برمه بصلة

وعلى الرغم من أن جسده كان يرتجف بقوة عجز عن السيطرة عليها، فبه شق بعاءته بضمين متصلين ليحني به على الطفل وليبدأ عقده حول جسده بأصابع تجمدت حتى أصبحت صالحة لتهشم. والآن نحتاج إلى حجر ثقيل. بالقرب منه واحد واحداً يصلح، فاتجه إليه وحمله بمشقة لينتهي به على صدر الطفل، قبل أن يهرع عن ركبتيه بحواره، ليبدأ ربط الحجر بجسد الطفل بعاءته التي ألقته حياً طول هذه الليلة، فلم يعرف هذا إلا بعد أن فقدها

هو هو الطفل قد أصبح مستعداً للغرق ثم البقاء في أعماق النهر، وكل ما عساه الآن هو أن يحمله ليلقي به هناك لكنه لن يتمكن من حمله.. سر بعد أن أضاف إلى وزنه الحجر الثقيل.. ليجره إذن.. ليجره وليغرق

معه في النهر لو استلزم الأمر، فكل هذه التفاصيل لم تعد تهم . لا شيء.
الليلة يهم إلا التخلص من الشيء.

هنا أمسك يوسف بساق الطفل .. ارتجف .. تماسك .. ثم بدأ في حرقه
إلى النهر.

وهنا تعالى صوت الطفل، ولأول مرة في هذه الليلة، ليخرج منه ضيقاً
طفولياً بائساً، يقول:

.. أرجوك لا تقتلني!

!!!

.. به جسد طفل يتيم كد المرض بفتك به، فأتوا به إلى سيدي لينقلوه
لكه أنه يفعل أحسن ما به ذلك لا محالة، وأن كل ما يملك فعنه هو أن
ستحده جسده ليكون مقراً للشيء .. وهذا ما فعنه . بدأ طفوس استحصار
شيء نكه لم يكمله.

حتى الآن قتل يوسف امرأة، وعجوز، وأصاب شيئاً صابة لا بد من
به ستوردي بحدته، ثم تسبب في مقتل مراهق في عرسته، لكن قتل طفل
صغير سم يتجاوز العاشرة من عمره بعدُ يحسف .. يحتلف حتى ولو كان
شيء يحتل جسده!

حتى الآن قتل يوسف كل من قتلهم دفاعاً عن نفسه، وكان الحير أمامه
مهم وإيم هو . وهو احتار البقاء، لكنه هذه المرة لا يدافع عن نفسه بل
يحارب تعبير التاريخ .. تاريخه هو.

هذه المرة هو يفعلها باختياره ويدم بارد، وكل ما يفصله عن تنفيذ



جريمته ثلاثة أمتار أو أكثر قليلاً.. ساق الطفل بين يديه ومياه النهر أمامه.. سيلقي بالطفل فيها وسيتهي كل شيء..

.. أرجوك يا سيدي.. إنني أشعر بالبرد.. أرجوك أعدني إلى منزلي!
يقولها الطفل فتعصر قبضة باردة قلب يوسف في جسده، ويدبر رأسه ببطء ليحد عيني الطفل الحائتين في انتظاره تحدقان فيه وتتوسلان إليه لم يعد وجهه جامد الملامح، ولم تعد نظراته شاحصة وعيناه تحدون في اللاشيء.. بل هما هو يحدق فيه مباشرة وقد ارتسم على وجهه تعبير حروف وألم قادر على غرس الرحمة في قلوب أقسى الرجال، فماذا عن قلبه هو؟

ويتلفت الطفل حوله ببراءة الدنيا كلها، قبل أن يقول:

.. سيدي.. أين أنا؟

فلا يجيب يوسف ولا يجد في نفسه رغبة ليعمل.. فقط يملت سدى الصعل لتسقط على الثلج، وبحواره يهز حالك وقد فقد قدرته تماماً على المواصلة.

إنه حي.. حي.

الطفل المسكين اللعين الذي سيدمر حياته كلها لاحقاً حي.

لو قتله الآن فسينجو بنفسه، لكن..

لكن قتل طفل صغير لم يتجاوز العاشرة بعد يختلف.

بطء يحرك الطفل ذراعيه لترتجفا برذاً، وليبدأ تحسس الحجر المشق على صدره، ولتخرج كلماته من فمه مختلفة متألعة:

.. هذا الحجر.. إنني لا أستطيع التنفس!

إبه الحجر الذي سيقيك في أعماق النهر!

ويحاول لطفل إراحة الحجر عن صدره، لكنه يعجز عن هذا لتسترخي درسه بحواره ويلهث، وقد أخذ جسده كله يرتجف.. وبحواره جلس يوسف يحدق فيه أسفل سماء تعلو ويوضح أن الديلة الثابتة والعشرين وشكت على الأسفل.. يحاول الطفل الاعتدال حيث لكنه يفشل.. يحاول إراحة الحجر محدداً لكنه يفشل.. يحاول فهم ما يحدث له لكنه يعجز، تنس الدموع من عينه لتكوي قلب يوسف، وهو يقول:

.. أريد العودة إلى منزلي.. أرجوك يا سيدي.. إنني خائف!

ثم يتعاني بحبه ليجد يوسف نفسه يشعر تجاه الطفل الذي زار كوكبه صليلاً مشقة.. إنه مجرد طفل يتيم وحيد.. إنه مجرد «هو» في زمن آخر، وتذرق لوحيد بينهما هو أن الشيء.. حنل جسده، بينما هو يخوض لعبته مصطراً

إبه مجرد ضل لا دس له في كل ما يحدث ولا يستحق أن يهلك عرفاً في مياه نهر قادر على تجميده حياً و.. و..

وإنه يضحك!

بحيب الطفل استحال إلى صحنات حافة متقطعة، أخذت تتعالى تريبجياً حتى جعلت عالية قاسية بحواره، فانتفض يوسف وحدث فيه د هلاً، ليجد أن ملامح الطفل اكتسبت تعبيراً عذساً كصوته الذي حرق منه إذ قال

- أيها الأحقق.. أنت لن تستطيع قتلي..

فشهق يوسف بمزيج من الذهول والخوف وقد أدرك على الفور ما يحدثه.. إنه هو.. إنه الشيء!

- أنظر أنك قادر على التخلص مني؟ كثيرون غمك حاولوا معي وفي النهاية كل يوم في أعمارهم أصابهم المزيد إلى عمري.. بقي باقي أيها الأحقق.. باقي حتى النهاية.

ثم جلدت ضحكاته العابثة من جديد ليتفرض لها جسد يوسف هذا.. وليبدأ اليأس التسلل إلى قلبه.

إنه مُحق!

الشيء مُحق!

لن يستطيع الانتصار عليه أبدًا مهما حاول.. في النهاية سيهت، وما تبقى له من أيام في حياته البائسة سيكون من نصيب الشيء، وبها سيني ليواصل لعنه مع آخرين سيحاولون القضاء عليه كما حاول هو

لقد حاول.. وفشل!

- هل أخبرتك كيف قتلت الدكتورة ليلي عائلتها؟

يقولها الشيء في جسد الطفل بصوته العابت وباستمتاع لا حد.. كأنه يروي له دعاية!

- هبت بعقلها طويلًا حين حاولت علاجي حتى كشفت لي عن وجودي.. حينها فقدت صوابها تمامًا وأدركت أنها هالكة لا محالة لكن الحمقاء كانت تعرف أنني لن أترك عائلتها فأرادت أن تقدم

منى بأن تقتلهم هي أولاً.. كانت تظن أنها بهذا تحميهم مني.. هذا ما كنت تطه.

دامت الدكتورة ليلي تعيش معزولة؛ فأين روحها وطفلها، الذين ينسبون معها في هذه الصورة التي ترف في إطار عطته الأترنة؟

- ليلتها بدأت بروحها.. كان عاقبًا في فراشه تمامًا كما كنت أنا حين حاول الدكتور معدي قتلني.. وبحواره وقفت هي تنكي تقصص على ذلك التمثال الثقيل، وقد أدركت ما عليها فعله لكنها كانت تحبه.. الحمقاء كنت تحب روحها وبجوارده وقفت ساعات طويلة عاجزة عن فعلها، فهي كانت تعرف أنها لو فعلتها فسيأتي دور أطفالها.. لنكي كنت معها.. كنت أعرف أنها تحتج إلى دفعة صغيرة لتبدأ، فصحبها أنا هذه الدفعة.. أحرقتها بأنها لو قتلهم.. ولو نفذت كل ما أطه من بعدها.. فسأعيدهم لها حين ينتهي هذا كله.. ما رفعت هي التمثال الثقيل وهوت به على رأسه بلا تردد.. وبعدما..

ثم حدثت الصدمة العنيفة من جديد، فدم يتفص يوسف هذه المرأة، ثم كتفه شعور عميق بالعشيان.. لقد رأى حنة الروح في قبو مرور الدكتورة بيني ويعرف ما الذي حدث بعدها.. لكن الشيء واصل رواية دعيت..

- لم يتأومها روحها ليلتها.. لم يجد الوقت ليفعل.. تهشم رأسه من دون أن يعرف حتى ما أصابه.. وبجواره انهارت الحمقاء تصرخ وتنكي وتحاول الاعتذار إليه كأنه سيقبل اعتذارها.. لكن الجزء

ثم تندلع الضحكات العابثة من حلق الطفل لتستفيض الأشجار القريبة من النهر ولتساقط منها الثلوح.. لكنه لا يقاوم.. كدمية «ماريوت» تعرف خيوطها، ترك الطفل نفسه ليوسف يجذبه صوب النهر، حتى بلغه يوسف أخيرًا ليخطو خطواته الأولى فيه، وليستعيد كل آلام جسده دفعة واحدة مع البرودة الهائلة التي تصاعدت من قدمه حتى رأسه.

إنه لن يخرج من هذا النهر حيًّا.. لو واصل طريقه فسيفرق هو الآخر أو سيتجمد، وفي الحالتين لن تكون أمامه أي فرصة للعودة. لكن لا يهم.

إنه لا يريد العودة.

إنه - فقط - يريد التخلص من الشيء.

وبإصرار منحت له رغبة عدم البقاء على قيد الحياة واصل يوسف خطواته في مياه النهر جاذبًا حسد الطفل والمحجر الثقيل الراس على صدره، حتى فقد يوسف إحساسه بالأرض من أسفله، ليدفع جسده إلى الأمام ضاربًا المياه المثلجة بذراعه الحرة.

- إنني أشعر بالبرد.. المياه باردة يا سيدي.. أرجوك أعطني إلى مربي!

ثم الضحكات العابثة، ثم الحبيب، ثم صوت طفل يحاول الشمس وقد بدأ رأسه يعوص في الماء ليبدأ السعال لكن يوسف لم يتوقف لحظة، ولم يصع لهذا كله.. خيوط الفجر الأولى تشق السماء معبرة اللحظات الأخيرة في الليلة الشبابة والعشرين، وهي لحظات تكفى يوسف تمامًا.

وسطاء بدأ يوسف يفقد الإحساس بجسده كله لفرط البرودة، لكنه كن قد قرب من منتصف النهر وساق الطفل لا تزال في يده، فصرب الماء ببرعة لحرارة عدة مرات، قبل أن تخور قواه أخيرًا، فالتفت إلى الطفل الذي حاول تحريك در عيه مقاومًا وقد تحولت صرخاته أسهل مياه النهر في كرات من الهواء نحمدت على سطحه، ليتسم قائلًا:

- هكذا تنتهي فصول اللعبة.

ثم أفلت ساق الطفل ليبدأ حسده النصيب العوص إلى أعماق لهر حتى سمعه صلاحه من دون أن يجد فرصة للإجابة

سند معني معني

هو سير قد الشيء في هذا الحسد، وهو سيقى ولن يعثر عليه الدكتور محدي نذا، وهو وفي هذه اللحظة تحديدًا تنهي مأساة يوسف وإلى الأبد. صحيح أنه فقد قدرته تمامًا على الحركة، وصحيح أنه بدأ يشعر بجسده عوص هو الآخر في المياه التي توشك على إحالته إلى تماثيل من الشح، لكنه لم يعد يبالي بهذا كله.

شد فعلها

وكل ما عيه الآن هو أن يستسلم للموت ليعود إلى ربه وقد انتصر. بعد غمض يوسف عييه، وترك جسده يعوص ببطء وقد بدأ يشعر بتصلب بعرو أطرافه.. لكنه قبل أن يستسلم تمامًا للظلام الذي أحاط به وسرعة اتسم

* * *

ثم انهارت تلك الصفعة على وجهه لتعيده إلى عالم الأحياء. وشبه
ذاهلاً وفتح عينيه ليجد المفاجأة الأخيرة في هذه الليلة في انتظاره

فأمامه كانت ابنته - التي هي ليست ابنته - تنحني عليه وقد أخذ حيدر
المبتل يرتجف بقوة، وإن ارتسم على وجهها غضب ألقى الرعب في
حين رآه.. إنه لم يعد إلى زمنه بعد! إنه لا يزال هنا.. لكن.. لماذا؟!!

- أين الطفل؟

صرخت بها المرأة نائرة، فحاول هو أن يجيبها لكنه لم يسمع
لسانه، الذي تحمد في حلقه أبي أن يتحرك، وأطرافه الأربعة رقدت حين
وقد اكتسبت زرقة مخيفة، ليدرك يوسف على الفور أنها لم تعد صالحة
للاستخدام حتى لو تمكن من إذايتها لاحقاً.. وعلى وجهه موت صعب
أشد قسوة، قبل أن تصرخ المرأة مكررة

- أين الطفل؟

مسحت صفتها وجهه بعض السحوة الكافية ليحرك فمه محاولاً
الإجابة، فحرحت الكلمات منه متحيرة تحمّل احراماً ثقي في صدره
من حياة

- إن.. إيه.. ح.. حيث ل.. يعثر عليه.. أحد

فتبدت الصدمة في ملامح من يفترض أنها ابنته، قبل أن تنفص عنه
صارخة بمزيج من الغضب والكراهية:

- أيها الأحق.. لقد أفسدت كل شيء.. كل شيء!

لكنه لم يفعل! لقد تخلص من الشيء!

- لقد أصعبت فرصاً لو حيدة للتخلص منه.. سيدي كان يريد إعادته
إلى عذبه.. وأنت أفسدت كل شيء.. كل شيء.. هكذا لن يستطيع
أخذ فعلها إلى أن تأتي الليلة الثالثة والعشرون.. بعد ستة وتسعين
عند أيها الأحق!

ليحرق فيها يوسف ذاهلاً عاجزاً عن التصديق.

كان يحاول إعادته إلى عالمه!

هذا ما كان عليه فعده، لكنه بدلاً من هذا.

وتنهوى المرأة على وجهه بصمعة ثالثة فيشعر يوسف بها تهوي على
وجهه مباشرة، ومن عبيبه تسيل دموع الألم والذهول، ليحرق في السماء
من فوقه عذراً عن اسطق.. لقد توقفت الشوح عن التساقط، وما هو فخر
به حديد بدأ حاملاً معه بعض الدفء الذي لم يشعر به أبداً.

- بعد حيت سيدي.. ومن يخزن سيدي لا يستحق للحياة.. حتى لو

كان أبي!

ومن عذبتها تحرج المرأة حنحراً صغيراً لكنه يصلح تماماً لما أدرك
يوسف أنها ستفعله، فأغمض عبيبه بقوة تترك دموعه تتحمد على وجهه..
أباً له في هذا الزمن.. لكنه يستحق!

وكان آخر ما رآه يوسف في هذا الزمن الحضر وقد مرّ بسرعة على
منه، لكنه لم يشعر بالألم.

- يشعر بأي شيء على الإطلاق.

فقد فشل!

التدريج لم يتغير، ولم يتمكن من التحصيص من الشيء بعد كل ما حاصه
في زمن «راسوتين».. ها هو الآن حيث ترك جسده آخر مرة، وكل ما خرج
به من هذا الفصل من قصص لعدة الشيء هو قطعة نيسة من الحقيقة، تقول
به كان بإمكانه أن يعيد الشيء إلى عالمه في اليلة لثاية والعشرين، لكنه
صرح بفرصة بجماعته

١٠

كيف كان سيعيده؟ لن يعرف أبدًا، وبسته - التي هي ليست ابنة -
رحته سعيده إلى عالمه حيث سيواصل مأساته حتى النهاية.. ربما كان
«سوتين» يعرف كيف سيعيده، ولو انتظر فلربما أخبرته ابنة بطقوس
سحب من شيء، لكنه لم ينتظر.

لم ينتظر ونفذ شيء وهو يظن أنه يفقد نفسه.

فقد حذعه لشيء ثانية. ولا.

توقف يوسف عن السعال أخيرًا، ليبدأ للهاث، أمام بطرات سوسن
مدعورة التي انتظرت حتى توقف، لتبدأ:

- يوسف - أن أعلم أبس هو.

ثم رحف جسدها وقد أحدث تسرح رسالته، قائلة.

- إنه.. في منزل الدكتور معجدي.

وسمعت إليها يوسف داهلاً محاولاً أن يطلب منها أن تشرح أكثر،
لكنه لم يستطيع

سؤره وند في عقله ومات على شفثيه من دون أن يخرج من بينهما،

وحين فتح يوسف عينيه وجد أن كل شيء تركه في انتظاره كما هو.

في سيارته بجوار سوسن، وفي المقابر الباردة، عاد يوسف ليحد
لم يغير تاريحه أو حاصره، ولم يسترد ما فقده من أعصاب جسده، فأدرك على
الفور أن خطته فشلت، وأن اللعبة لم تنته بعد... تمامًا كما وعده الشيء!

حاول أن يصرخ غضبًا معترضًا ليشعر بألم حاد في عنقه قبل أن يساء
بوبة سعال حادة تباثرت معها الدماء من بين شفثيه لتستقر على رشح
سببته أممه، فشبهت سوسن بحواره داهية وقد فوحشت به يسترد وعيه في
لحظة يقبض على عنقه بيديه كأنه يحتنق، قبل أن يبدأ سعاله الدموي هذا
لكن يوسف لم يبال بألمه ولا بدمائه، ولم يبال بمرع سوسن ولا بدهوج
إذ صاحت:

- يوسف.. ما الذي أصابك؟!

ففي أعماق يوسف تصاعدت حقيقة واحدة عطت على كل ما يشعر
به في جسده ومن حوله.

فتعاطم الدهول على وجهه أكثر فأكثر، ثم مَدَّ أصابعه ليتحسس عنقه سدي
لم يعد يؤلمه، ليبدأ استيعاب ما أصابه وببطء.

في كل مرة ستحصل على قطعة من الحقيقة. وسأخذ منك قطعة
وهذه المرة أخذ الشيء منه صوته!

لم تستغرق سوسن وقتاً طويلاً في فهم ما أصاب يوسف هذه المرة.
بعد كل ما مرت به، وبعد كل ما رآته وسمعته، لم يعد المنطق يشكل
حجراً بين سوسن وبين فهمها ما حدث ليوسف.

لكن هذا لم يسهل من الدهول والتعاطف وهي ترى يوسف أمامها
يحاول ليخرج من فمه أي صوت مسموع، من دون أن يتمكن من هذا..
حاول أن يصرح أن يشرح.. أن يكي.. حاول حتى فقد الأمل ليجلس
في نهاية مستنداً بظهره إلى أحد شواهد المقابر، فتركته سوسن يستجمع
شدة نفسه حتى سادت لصاح الأولى، قبل أن تمسحه ورقة وقلمًا كأنها
تكتب منه أن يكتب لها ما حدث، فحكى لها يوسف كل ما مرَّ به في زمن
"سوسن" في أسطر مختصرة، قرأتها سوسن ليتعاطم دهرها ولتجلس
حزيرة عاجزة عن التعليق.

سد خاض فصلاً جديداً من اللعبة.. وخسر!

لكن ما عاد به يوسف من حقيقة الشيء يستحق الاهتمام وبشدة..



إن هناك طريقة للتخلص من الشيء... هناك طريقة، لكنها عاجزة... عن التفكير فيها، وربما لو أتيح لها بعض الوقت لوجدت هذه الطريقة ولو وضعتها محل التنفيذ، لكن... ليس الآن.

الآن وقت الذهول... واستيعاب الصدمة... والصمت.

لكن في النهاية وجدت سوس أن صمتها لن يصيب إلى شيء، وبدأت بحكي

- لقد رزيت في حلمي.

فلم يجبها يوسف، ولم يكن ليتمكن حتى لو حاول... فقط سدد عينيه شاردتين دفعتها للمواصلة

- كنت قائمة بحوارك لكي استيقظت لأحد نفسي هناك في مس... الدكتور مجدي... وجدتني أستيقظ في فراشه، والسبب ما وجدني أعرف أين أنا على الرغم من أنني لم أزع عرفة نومه قط... عرف أنها عرفة نومه ورأيت صورته فيها لكنه لم يكن هناك... لم يكن في انتصاري سوى الرد والاطلام وذلك الصوت الأثوي يتعالى من بعيد يردد أغنية أطفال بصوت مألوف وعرفت أن علي أن أتحدث... مصدره... لكنني... لكنني كنت خائفة.

وارتجفت سوسن ثم تمايلت نفسها لتواصل:

- كان مزله مطمئناً... المكان الوحيد الذي كان مُضاء كان عرفة... ومن هناك كان الصوت يوصل ترديد الأغنية من دون أن يرفق ولو لنحطة واحدة... وحين اقتربت من العرفة مبررت صاحبة الصوت وأدركت أنها روحه الدكتور مجدي... لقد التقيتها أكثر من مرة

وأعرف صوتها... لكنني حين سمعتها تشد تلك الأغنية داخل الغرفة ستبدني الخوف أكثر فأكثر، وداهمتني رغبة عييفة في أن أهرب وأن أبعده عنه وإلى أقصى حد ممكن... لكن شيئاً ما في صوتها دفعني إلى الهرب وإلى الاقتراب في الوقت ذاته... ترددت طويلاً... وفي النهاية وجدتني أخطو داخل غرفة الطفل في منزل الدكتور مجدي لأحد روحته في انتصاري... وحين رأيته عرفت بعد فوات الأوان أنه كان علي أن أهرب

أت الترقب في عيني يوسف، وحرك فمه ليصيح بها أن توصل لا صوت، فوصلت

- كنت تحس هناك على أرض العرفة... وكنت ترتدي مامتها مولية طهرها إلي وقد أحدثت تهر حدها بانتظام مواصلة ترديد أغنيها... وعلى ساقها كان الطفل يرقد جامداً وكأنها تهدده، لكنه لم يكن نائم... حين دحنت العرفة أدار رأسه تحدي لي رمقي بعينه المتوهجتين... وابتسم... لم أكن قد أصدرت أدنى صوت حين دحنت العرفة، لكنه شعرت بي والتفت إلي لتتوقف روحه للدكتور مجدي عن ترديد أغنيته وعن الحركة، وكأن دورها قد انتهى قد دحنت العرفة ولم يعد هناك محار للتراجع... لا أعرف لماذا بدينها حينها، لكنني فعلت... وحينها التفتت هي إلي بظن... و...

وارتجفت جسد سوسن ثانية، فقبض يوسف على يدها محاولاً أن يمسحها، فلم يتوقف جسدها عن الارتجاف وإن واصلت.

- بعد كانت ميتة يا يوسف... روحه الدكتور مجدي كانت ميتة وما التفت إلي في الحلم كان حشها... جثة متحللة اسودت لونها،

ولم يعد في وجهها عينا أو فم تنشد به تلك الأغنية الطمينة
التي كانت ترددها جثة رأيتها فصرحت ليفجر الشيء في جسد
الطفل بضحكته العابثة.

أخذت الدموع تسيل من عينيها، وارتجفت صوتها هذه المرة

- بعدها وجدت الظلام يحيط بي من كل صوب حتى فقدت قدرتي
على الرؤية تمامًا وفي اللحظة التالية سبقت لأحد نصيحي
من حديد - حاولت إيقافك لكنت سعلت فحاة وتأثرت الدمع من
فمك و... و...

ولم تكمل.. فما حدث بعدها يعرفه يوسف جيدًا فقط تركي نصح
دموعها وتحول لسيطرة على نفسه وليتفرع هو للتفكير في رسالة
الشيء لهما.

لقد اقتربت اللعبة من النهاية إذن.

لقد خسر كل فصول اللعبة التي خاضها حتى الآن، ولم يعرف ظفوس
القضاء على الشيء، ولم يعد يملك حتى مجرد أمل في الخروج من هذه
اللعبة حيًا.. لكن النهاية اقتربت.

نهايتهما!

- إنه هناك يا يوسف.. لكن.. هل سيذهب إليه؟

سألته سوسن فلم يحبها ولم يحاول حتى.. سطر أدار رأسه ليعود إلى
شاهد القبور وليعود الشرود إلى عييه، فصممت هي مستطرة قراره... به
يعرف ما الذي ينتظرهما في منزل الدكتور مجدي، فلقد رآه حين دخل

مع عصم الذي أكد له أن منزل الدكتور مجدي لم يعد مرآة بل هو
تسريح تحريمة.

يعرف الكوس العائق في حدار عرفة ابن الدكتور مجدي - الذي
هو ليس ابنه - ويعرف تمامًا ما الذي سيحدث لو عاد إلى تلك الغرفة
مرة أخرى.. إن رسالة الشيء واضحة.. إنه في انتظارهما هناك، ويوسف
يعرف أنه على أي حال سيجده وإن كان لا يعرف ما الذي سيحدث بعدها.

لكن اللعبة أوشكت على النهاية

هو يشعر بهد أيقظ، ويشعر بأنها لن تنتهي لصالحه أو لصالحها.

لكنه على الرغم من هذا تهدي. استند إلى شاهد القبر ليقتبسط.
ثم نشر إني سوسن إشارة لا تحتج إلى تفسير، فحدثت هي فيه خائفة
بعضة، فن أرعدو عليها لاستسلام لمصيرها لتقف هي الأخرى ولتتبادل
مع نظرة صامته صوبه.

لهم لا يمكن الحبر

لعبة مستمرة على الرغم منهما، والمصير الحديدي من اللعبة ينتظرهما
هنا

في منزل الدكتور مجدي

ومن دون أن يتبادلا المريد من الصمت استدر يوسف منحها إلى
مبارته. فكنت سوسن رأسها ولحقت به إلى دحها

ثم بطنق إلى حيث ينتظرهما الشيء.

* * *

وفي الطريق إلى منزل مجدي أخذت سوسن تسترجع ما درءه يوسف، محاولة البحث عن إجابات وسط كم الأسئلة التي غرق في

الشيء أنى ليلى من عالمه في الليلة التي بعدت فيها المرأة في العدة صنوس استدعائه كدت هذه هي أول ليلة دانت فيها الحواجر بين عالمه وعالمه، وبدا كل شيء هذه الليلة تتكرر كل ستة وتسعين عامًا كما عرف «راسبوتين» كما وكما أحرر تابعيه.. الليلة التي انتقل فيها يوسف إلى زمن «راسبوتين» كدت ليلة السادس عشر من ديسمبر عام ١٩١٦م، وكانت الليلة الثانية والعشرين هذا يعني أن الليلة الثالثة والعشرين التالية ستكون ليلة السادس عشر من ديسمبر عام ٢٠١٢.. تحديدًا بعد يومين اثنين من الآن!

بهذا أحرهم الشيء بأن اللعبة أوشكت على الانتهاء.. وفي الليلة الثالثة والعشرين سينتهي كل شيء..

«راسبوتين» كان يحاول إعادته إلى عالمه.. لكن كيف؟

كيف كان سيفعلها؟

إنها لم تعثر على طقوس الفصاء على الشيء حتى الآن، لا في الحاضر ولا في التاريخ، وبالتالي فالحل الوحيد أمامهما الآن هو أن يعيدا الشيء إلى عالمه.. لكن.. كيف؟!

ولماذا ينتظر الشيء هذه الليلة؟

في هذه الليلة ستدوب الحواجر بين عالمه وعالمه فما الذي ستعده الشيء حينها؟

ولماذا منحهما المفتاحين؟

بهذا تشعر بأن السؤالين مرتبطان بشكل ما، لكنها عاجزة تمامًا عن رؤية رابط بينهما.. كل ما تملكه هو إحساسها، وهي تعرف أن إحساس الأنثى لا يكذب ولا يحظى إلا نادراً.

وعجبت أن يوسف - على الرغم من أنه لم يتبادل معها حرفاً واحداً صيغة نظرياً وكأنه كان يستطيع! - كان يفكر في السؤال ذاته في الوقت ذاته.

لماذا منحهما الشيء المفتاحين؟

وسط كل الأسئلة التي مرّ بها حتى الآن أصبح هذا السؤال هو لأهم والأقرب إلى تفسير كل ما حدث وما سيحدث.. لكن يا ترى هل سيسمحهم الشيء لإحداً هذا السؤال في منزل الدكتور مجدي؟

لو كان سيسحسرا على أي حال، فلماذا لا يسمحهما إجابة واحدة عن سؤال وحيد؟

هو أيضاً أخرى العملية الحسابية في رأسه، وهو الآن يعرف مثل سوسن أنه به كل شيء ستكون في الليلة الثالثة والعشرين، وهذا يعني أن كل ما تبقى أمامهما يومان اثنان لا أكثر، وبعدها...

- وبعدها لن يشكل ما سيحدث فارقاً، فلم يعد في جسدك ما يصلح لأخذه لتبقى بعدها على قيد الحياة.

فإنه سوء حفظه في رأسه فهز يوسف رأسه مؤثماً على قوله.

نعم... إذا ما كان سيحدث فالمفصل التالي من اللعبة.. سيكون المفصل الأخير

* * *

كان الظلام والبرودة في انتظارهما هناك، تمامًا كما وجدتهما سوسن في حلمها.

وفي منزل الدكتور مجدي اشتتم يوسف الرائحة ذاتها التي شمها عصام من قبله هنا، وفي منزل الدكتورة ليلى، لكنه لم يبالٍ بها، فقد كان يعرف أن ما سيحدث الآن أكثر أهمية من هذه الرائحة، وأن ما ينتظره في غرفة الطفل أشد هولًا.

وفي رأس يوسف تعالى صوت سوء حظه يقول:

- يوسف.. أرجوك لا تدخل هذه الغرفة!

فتجاهله يوسف، وقد أدرك أنه سيفعلها على أي حال. لقد أتى بر هنا ولم يعد يفصل بينه وبين الشيء إلا باب غرفته، وتماثًا كما حدث لسوسن في حلمها.. لم يعد هناك مجال للتراجع.

أما سوسن فأخذ جسدها يرتجف بقوة وقد وجدت نفسها تعيش حسرة من جديد، ولكن على أرض الواقع هذه المرأة.. صحيح أن صوت زوجها الدكتور مجدي لم يكن تنعس من داخل الغرفة بردد أعية الأطفال، وصحيح أنها ليست بمفردها هذه المرأة، لكنها كانت تعرف أنه هناك.

الشيء هناك داخل الغرفة ينظرهما بواصل معهما لدعة إلى أن شك على النهاية.

التفت إليها يوسف صامتًا وفي عينيه سؤال: هل سندخل الآن؟

فأجابته هي بهزة من رأسها متحاشية النظر إليه.. إنها خائفة منه، لكن لا داعي لأن يريه خوفها هذا، فهو لا يملك لها شيئًا الآن، ومحرج

بوحيد من هذا كله هو أن تقتله، وهي تعرف أنها لن تفعلها.. لهذا اكتفت بجرستها، ونهد كتفي يوسف بردها هذا ليتجه إلى باب غرفة الطفل في سر. الدكتور مجدي، وليمسك بمقبضه وتذكر تلك اللحظة التي فتح فيه عصام باب الغرفة أول مرة وما حدث له.

لكنك لن تفقد الوعي هذه المرة.. مع الأسف لن تفعل.

ونظ سوء حظه في رأسه فتجده يوسف ثابته، ومع سوسن بصرة حدة فتحدثتها هي وقد بدا عليها الاستسلام لنم.

ثم فتح يوسف باب الغرفة.

- ولأن أصح إليّ حيداً.. ما ستراه الآن غير صانع لمشر مهمما كان سبب أكررو.. مهما كان السبب.. كل ما ستراه في الداخل مستحفظ به نفسك، ثم يجب أن تنسأه إلى الأبد.. يعلم الله أنني ما زلت أحاول سببه، وأنه لولا واحبي لما دحلت معك الآن لأراه من جديد.. لكن يجب أن أدخل معك.. يجب.. فربما لن تتحمل ما ستراه.

كان كل شيء كما تركه يوسف في المرة الوحيدة التي دخل فيها غرفة سوسن.

عرش الصغير حُرنة الملاسر صندوق الألعاب الذي لم يستخدمه بعد وأدماء الحديقة التي كانت تعطي كل شيء.. وكان وجه الطفل لا يزال هناك في مكانه مغروسًا في جدار الغرفة يتظرهما.. ويتسم!

أمامه توقفت سوسن ذاهلة ترتجف، فتوقع يوسف أنها ستقعده وعبه
في أي لحظة كما فعل هو، لكنها لم تقعه . بعد كل ما رآه سوسن في
هناك ما يكفي لإفقادها الوعي، لكن ابتسامة وجه الطفل في الحذر أفتدي
القدرة على الطق، لتشاركه صمته الإحاري، ولتقف بجواره تسمى
يكون ما تراه الآن كابوسًا جديدًا ستستيقظ منه في أي لحظة.

- لكنه ليس كابوسًا.

هكذا بدأ الشيء محركًا وجه الطفل في الجدار على الرعب من
استحالة هذا، لكن صوته العابت ذكر يوسف وسوسن بأنه لم تعد هناك
مستحيلات.. هناك هما.. والشيء..

- إنها أول مرة يجتمع فيها معاً.. لكنها لن تكون المرة الأخيرة

قالها الشيء، فتحول ذهول يوسف إلى كراهية أطلت من عينيه، ونسب
لها ابتسامة وجه الطفل في الجدار، الذي تعالى صوته العابت بقول

- أتريد قول شيء ما؟ اعتقد أنك لن تستطيع يا عزيزي ليس الآن

ثم انفجر الوجه في الجدار بالصحك لتسنخ حدران العرفة ونصح
سوسن رعبًا عنها، بينما قروم يوسف رعة عميقة داهمته بأن يتجه إلى
الوجه ليلكمه.. وفي النهاية توقفت الصحكات ليواصل الصوت يحدث

- تريدان أن تفهما.. أليس كذلك؟ أنت تريد أن تفهما كيف وصل
إلى هنا على الرغم من أنك ألقيت بي في النهر.. لقد كنت تتوقع
أنك ستخلص مني بهذه الطريقة الساذجة.. لكنك كنت محضًا

يا عزيزي.

في أدار الوجه في الجدار عينيه إلى سوسن، ليواصل:

- رأيت كنت تملكين الخيار.. كان يمكنك أن تقتليه لتقتلي والديك..
لكنك اخترت أن تواصل اللعب.. ولهذا أتيت بكما هنا.. لتواصل
اللعبة

ثم مدت الابتسامة على شفهي الوجه في الجدار، قبل أن يواصل بصوت
حامل بعض الجدبة للمرة الأولى:

- بعد اقتربت النهاية.. ستفهم كل شيء وستحصل على إجابات
لكن أسئلكما.. لكنكما ستدفعان الشمس.. احتفظ بالمفتاحين معكما
سبأتي دورهما قريبًا.

ثم استعاد الصوت نبرته العائثة ليحتم:

- ولأن.. استعدا.. فهناك مفاجأة سارة في انتظاركما.

هما انزعجت سوسن نفسها من ذهولها واهلها لتصبح:

- ما الذي تريده منا؟

فنه يحبها شيء، وفي لوجه في الجدار ساد جمود عجيب يعلن
أن شيء عاذه تاركًا لهما الصمت والحيرة . كررت سوسن صرخة:

- ما الذي تريده منا؟

فتدسى صوت من وراءهما مباشرة ليحيب:

- أريدكما

فتنصت سوسن صرخة، وانتمت إلى مصدر الصوت في اللحظة

التي ارتسمت فيها الصدمة على وجه يوسف، وهو يحدق في عصام نسي
خطأ داخلاً ورجاله من ورائه، معلناً:

- كنت أعرف أنكما ستعودان إلى هنا إن عاجلاً أو آجلاً . والآن

ثم وقف عصام وعقد ذراعيه أمام صدره، ليردف بثقة من ربح معركة

- حان وقت دفع الثمن.

دائماً ما يعود المجرم إلى مسرح الجريمة.

قرأ عصام هذه القصة في إحدى الروايات البوليسية الساذجة في صباه
وبصدقها حينها، ولكنه بعد أن تخرج في كلية الشرطة، لبدأ العمل كأحد
مصاب تلك الروايات، وجد أن الحياة أكثر سذاجة من كل الروايات التي
دأب في حياته، وأن المجرم دائماً ما يعود - حقاً - إلى مسرح الجريمة!

سأد يعود؟ بعضهم يعود ليطمئن على أنه لم يترك دليلاً يقود إليه..
بعضهم يعود لأنه شعر بالندم . وبعضهم يعود لأنه لم يبه حريمته كمنة
بعد . لكن أغلبهم يعودون لأنهم أكثر سذاجة من الحياة ذاتها، ويفصل
سذاحتهم هذه تمكن عصام من تحقيق بعض النجاح في حياته العملية..
لأنه يتمتع بذلك خاص أو موهبة نادرة، وليس لأنه يجتهد أكثر من
سواه. بل - وبمنتهى البساطة - لأن أغلب من يرتكبون الجرائم حمقى،
وحماقتهم هذه هي ما تقودهم إليه.

ولأن الحياة ساذجة، والمجرمين حمقى، قرر عصام أن يمارس دوره
في هذه الحياة كنظير الروايات التي كان يقرأها، وأن يتحول ويارده



الحرية إلى ما يطلق عليه السمودح التقليدي لرجال الشرطة . الصوت العالي .. السرة الأمرة .. العطرسة غير المبررة .. والنظارة الشمسية الدحرة التي يرتديها ليلاً نهاراً ليحفي بها العباء الذي يطل من عيبه كلما تعرض إلى تحدّ حقيقي .

وقضيتا سوس ويوسف كذا أكثر تحديس واحههما في حياته

الأولى قتلت المهندس سامح واحتمت ثم ظهرت ليقتلها هو - قبل أن يتضح له أنها لم تمت لحسن حظه . والثاني قتل الدكتور ليلي . وحدث

لهذا راقب عصام مارل الدكتور محدي والمهندس سامح والدكتور ، ليلي طويلاً على أمل أن يظهر يوسف ، فلم يخيب هذا الأخير ظنه ، وحمده لا مبرر لها عاد ومعه سوسن .. و ..

والآن حان وقت دفع الثمن .

في مكتبه أشعل عصام سيجارة وأخذ يتخيل ما سيحدث بعد قليل ، لتراقص على فمه انتسامة استمتع ، فلأن سنبداً مرحلة الاستحواب وهي - بالنسبة إليه - الجزء الوحيد الممتع في عمله . يمكنه أن يكون عباً كما شاء ، وهذا سيؤثر على أدائه في فحص مسرح الجريمة وفي العثور على أدلة أو في ربط التفاصيل الصغيرة بعضها بعض ، ليحصل على الصورة كاملة ، لكن الاستحواب يحتلب . الاستحواب لا يستلزم دكاء من أي نوع ، وهو يحيد كل طرق الاستحواب المشروعة وغير المشروعة ، ومبدأ بالثانية مع يوسف وسوس لو استلزم الأمر ، حتى يعرف منهما كل شيء ، وأنهم ما يريد معرفته اليوم هو . كيف أحرق سوس المهندس سامح من الداخل إلى الخارج ؟

لكه . ولأنه يريد ادحار ، الأفضل حتى النهاية .. أرسل طالب يوسف ليبدأ .. وحس في مكتبه يدخن محاولاً تنظيم أسننه العديدة في رأسه ، وقد قرر أن يحصل على إجاباتها كلها من يوسف ورغماً عنه .. سيكون عليه أن يحني لهفته وحيرته ، لكنه لن يضطر لإخفاء غضبه ، يوسف حده ، ولا . الآن حان وقت دفع الثمن .

هكذا . وحين تعالى الطرق على باب مكتبه . وحده نفسه يبادي بلهفة لام نفسه عليها قبل أن يخفيها :

- ادخل .

مدخل أحد حوده يقتاد يوسف الذي فقد من حسده أكثر من قدرة عصام على التحيل أو التصديق .

بوجه شاحب وجسد نحيل ونظرات شاردة دخل يوسف وقد بدا عليه أنه يستوعب بعد أنهم قد ألقوا لقصص عليه ، ليريد عدم استيعابه هذا من منعة عصام ، ولتسع انتسامته وهو يبدأ :

- حان وقت الكلام .

فأحده يوسف نظرة صامتة شاردة ، استقبلها عصام بالمريد من الرضا ، قبل أن يظفي سيحارته ليعتدل على مقعده .. ليبدأ الاستجواب .

* * *

نكر استحواب يوسف كن عشي ، ومنه لم يخرج عصام ولو بإحالة واحدة على أي من أسئلته .

لساعات طويلة جلس يوسف أمامه صمّاً من دون أن يُجهد نفسه حتى

بمحاولة شرح أنه عاجز عن التحدث تمامًا، وأنه حتى لو حاول أن يجيب عن أسئلته فلن يستطيع، تاركًا عصام يمارس عليه كل «خبراته» في محاربات الاستجواب، وتترك عقله يسبح في حواطر لا نهاية لها، تبدأ بالمحطة التي التقى فيها الدكتور مجدي أول مرة في سجنه، وتنتهي بالليلة التي انتهى بجسد الطفل في النهر، ليعود إلى زمنه بعدها وليجد أن الشيء لا يزال في أسطاره ليواصل معه لعبته. حواطر حاصر معها يوسف حوارًا طويلًا مع سوء حظه في عقده، تاركًا عصام ينتهي بأسئلته إلى فراغ العرفة لترتد به كما هي لم تمسسها إجابة.

هكذا يمكنك أن تتخيل كيف مضت ساعات الاستجواب بين رجل يستجوب رجلًا يخوض حوارًا في عقله!

يسأل عصام:

- والآن يا يوسف.. لنبدأ بالدكتورة ليلى... لماذا ذهبت إلى مصر؟

فيتعالى صوت سوء حظ يوسف في رأسه، قائلاً:

- نصحتك بعدم دخول منزلها.. نصحتك لكك لم تستجب

فيجيب يوسف في رأسه

- كان يجب أن أدخل.. كان يجب أن أحصل على المفتاح.

فيسأل عصام:

- لقد ذهبت إلى عيادتها ومن هناك حصلت على عنوان منزلها. لماذا؟

- وما الذي فعلته بالمفتاح؟ إنك لا تعرف الغرض منه حتى الآن

- لكي سأعرف.. الشيء أحزنني بأسا سنحناح لمفت حين في النهاية ويحب أن نحتفظ بهما معاً.

- وما الذي تظن أنه سيحدث بعد أن تعرف؟

ويرتد سؤال عصام الثاني إليه بلا إحالة، فيلقي بذلك

- يوسف.. لماذا قتلت الدكتورة ليلى؟

فيجيب يوسف في رأسه

- لأنني لم أكن

- وما دمت تريد الحياة فليتم تواصل هذه اللعبة؟

- لأنني مرغم.. لقد حاولت التخلص منه و

- وفشلت.. والآن يمكنك أن تنهي هذا كله.. خذ ورقة وقلماً واكتب

لعصام كل ما حدث.

يقول عصام غير سائل هذه المرأة:

- صمتك لن يفيدك بشيء.. لقد عثرنا على بصماتك في مسرح الجريمة

ويعرف أنك لماعل.. فلا داعي للتظاهر بالحرس

- لكنه لا يتظاهر أيها الأحمق.. لقد أخذ منه الشيء صوته.

- إنه لا يعرف هذا وحتى لو أحرته فلن يصدقني

- وما الذي ستفعله إذن؟ ستتركه يسجنك لينتهي بك الأمر كالـدكتور

مجدي؟

- الدكتور مجدي هو السبب في كل ما حدث.. هو من عثر على الصخر
وأتى به إلى هنا.

- وكيف عثر عليه؟ كيف وجدته بعد أن ألقيت به في النهر؟

فيبدأ صر عصام في البفاد لتكتسب لهجته البيرة الأمرة التي يحيدو
- يوسف.. أنت ستخبرني بكل ما أريد معرفته سواء أردت هذا أم لم تُرد
الإعدام هو مصيرك لو لم تتعاون معي، لذا والآخر مرة سأكرر سؤالي
لمادا قنلت الدكتور ليلي؟

لا يجيب يوسف، فينصحه سوء حظه:

- ورقة وقلم. هذان هما كل ما تحتاج إليه لتنتهي هذا الاستحواف
السخيف.

- أخبرتك بأنه لن يصدقني.. وحتى لو صدقني.. فلعبة الشيء مستعسر
حتى النهاية.

- حتى نهايتك أنت.. ألم تفهم هذا بعد؟ إنك لن تخرج من هذه اللعبة
حيًا.

- ما افارق إدن؟

يسأل يوسف سوء حظه فيجيبه بالصمت وقد عجز عن العثور على الرد
المناسب.. أو كأنه يعلن بصمته هذا موافقة على قول يوسف.

يحرب عصام حظه ليغير السؤال، قائلاً:

- وماذا عن سوسن؟ ما علاقتك بها؟ وما الذي تعرفه عن المهدم

سامح؟

مجد يوسف أنه يعرف الكثير عن سوسن وعن سامح، لكن كل ما يعرفه
لا يصلح للإجابة. هذا سؤال سيكون من نصيب سوسن لاحقاً وهو
لا يمت إلا أن ينمى لها خطأً أفضل حين يبدأ عصام في استجوابها.
لا استحوافه هو - فليترك عصام يحاول معه إلى أن تصب طاقتة، فهو
ينصحه أي إجابات.

لكن عصام فقد آخر ما تبقى من صبره ليعادر مقعده وقد استند به
غضب يعرف يوسف أنه سيدفع ثمة عالياً، ليعلم:

- بك لم تترك لي خياراً آخر. لأن سأحرك على التحدث بطريقتي.
يقرب مجد يوسف نفسه ينسم لا شعورياً وقد أدرك ما سيحدث له
الآن.

ليتركه يحاول - فمن يدري؟

ربما سيتمكن من إعادة صوته له!

بعد ساعات أعادوا يوسف إلى سجنه وقد عُطى بالكدمات.. ودماءه
تسيل من جراحه، من دون أن يظفر منه عصام بإجابة واحدة.

نقد «اجتهاد» عصام قدر استطاعته حتى أصابه الإرهاق، ويوسف
لا يستطيع أن يلومه على «اجتهاده»، لكن المشكلة الآن أنه فقد إحساسه
بحسده تماماً كما فقد صوته سابقاً

- لكنك ستشعر بالألم قريباً. إن عقلك يرفض التصديق الآن لكنه

سيفعل... وحينها ستشعر بألم كل كلمة وكل جرح.

فيضحك يوسف بلا صوت فهو لم يعد يبالي.

لتأت الآلام كما يحلو لها، وليستعد جسده للمزيد منها، فهو يفي
إلى أن ينتهي عصام منه. أو الشيء. أيهما أقرب. ثم إن اللعبة كنها سوف
تنتهي بعد يوم واحد لا أكثر، فيلة العد ستكون الليلة الثالثة والعشرين

١٣

لكن... كيف ستخرج من هنا قبل أن تحل ليلة الغد؟

هذا سؤال لن يرهق نفسه بالتفكير فيه، فما دام الشيء هو من ربه
ليواصل اللعبة فهو المسؤول عن إخراجه من هنا.. كل ما عليه هو أن يحضر
بمفتاحه وأن يأمل أن تكون سوسن لا تزال تحتفظ بمفتاحها معها، فهم
سيحتاجان إليهما في النهاية.

الآن يمكنه أن يترك جسده يسترخي، وأن يترك عقله يستسلم للألم
جسده، فالنوم الذي يعدّه برحلة جديدة إلى زمن جديد.

حيث سيخوض آخر فصول لعبة الشيء.

حين اسبقت يوسف هذه المرة وحد أن الأرض تترنح من أسفده،
وعنده ينفض داخل حممته. وحين حاول أن يرفع رأسه وحده ثقيلًا
يرفض الاستجابة له، ووحيد أن معدته تتلوى تحاول إفرغ ما فيها، لكنه
دومها وفتح عيبه ببطء ليبدأ تأمل ما حوله، وليحد كل شيء يتراقص
أمامه، وأعمص عيبه من حديد وأحد يحاهد ليسيطر على جسده الجديد...
نضع هو حسد حديد فقد انتقل إلى زمن جديد، لكنه عاجز تمامًا عن
سفرة على جسده هذا، وكل ما يرغب فيه الآن هو أن يظل راقداً على
الأرض التي تترنح من أسفله من دون سبب مفهوم.

لكن لا يمكنك أن تصل مكانك... لقد بدأ المصل الأخير من اللعبة.

مع لقد بدأ، لكنه لا يستطيع لحركة حقاً وذلك الحذر العجيب يسري
في جسده بينما عقله ينبض بصوت مسموع ومعدته تصر على محاولة إفرغ
ما فيها... أهى الأرض التي تترنح من أسفله أم إنه هو من يشعر بالدوار؟

مع عيبك... ببطء لكن افتحهما.

فتفتح يوسف عينيه ببطء ليتأمل الموجودات من حوله، فوجدده لا تزال تواصل رقصها، وإن بدأ عقله الناضئ تمييزها واحدة تلو الأخرى. هذا فراش.. إنه يرقد على الأرض بجواره وهو ليس فراشه، فهذا ليس منزله هناك نافذة تطل على سماء صافية تتوسطها شمس مشرقة. هناك طرقة عليها أكواب صغيرة تتراقص هي الأخرى.. وهناك معدته التي تلهو لكنه يتجاهلها ليواصل تمييز الموجودات من حوله.. هناك باب العرفة إنه معدني ذو رتاج غريب الهيئة.. هناك معطف ثقيل معلق على الباب المعدني.. هناك تلك الزحاجة الفارعة بحواره.. وهناك تلك الراتحة الممطرة وهي تخرج من فمه هو

أين أنا؟ ولماذا الباب معدني؟ وإن عقلي يبصر بقوة ولا توقف ثم أغمص يوسف عينيه مجدداً ليكتشف أن الضوء الذي يملأ لعره كان يؤلمه، وليبدأ عقله الناضئ المهلك التوصل إلى استنتاج يستحو بعض التفكير.

زحاجة فارعة. راتحة ممطرة من فمه.. عقله يبصر ومعدته تنمو
إنه مخمور!

لهذا تريح الأرض من أسفه.. لكن.. إنها تريح فعلاً.. وهناك صوت أمواج. لتخرس معدته قليلاً ولتتحمل فالاستنتاج الثاني في الطريق وهو..

باب معدني.. الأرض تترنح.. صوت أمواج.

إنه في سفينة!

ها فتع يوسف عينيه مجدداً لتندى فيهما الدهشة والحيرة، ثم تحمل على نفسه ليدأ الاعتدال حالاً سطاء، فتحول بصر عقله في رأسه إلى صرير عينة لا ترحم، وقهرت محتويات معدته إلى حلقه، فشعر يوسف بمدقه مريرة تعريه بالتقيؤ.

لا تقيأ الآن. تماسك وحاول الوقوف مستنداً إلى الفراش.

فاستجاب يوسف ليدأ الوقوف مستنداً إلى الفراش وليجد أن حسده يتريح كالأرض من أسفه.. إنه طويل القامة هذه المرأة، ولا يحوي جسده دنث يوهن الذي شعر به في حسد العجوز في زمن «راسوتين»، لكنه شعر بدوار وبالحذر ومعدته.. إنها.. إنها..

ومن دون أن يحد يوسف فرصة للمقومة وحده نفسه يتقيأ بقوة أسقطته أرض من جديد، قبل أن يبدأ السعال فالثبات، وقد شعر بأنه تقيأ روحه منها من حسده الشيء عليه البعنة احتار له أسوأ جسد ممكن هذه المرأة. نحاض على نفسه ثابتة ليقف مستنداً إلى الفراش، ثم بدأ محاولة موازنة تريحه مع تريح الأرض من أسفه ليحصل على بعض الاتزان، وأمام عينيه أحدث الموجودات هي التوقف عن التراقص، وإن احتفظ عقله بعدم قدرته على الاستيعاب كاملة.

إنه في سفينة.. إنه في زمن جديد.. إنه الفصل الأخير من اللعبة.

عظم. أنت الآن تعرف ما يحدث من حولك والخطوة التالية هي الخروج من الغرفة.

وهذا ما فعله يوسف بكثير من المشقة. في البداية أرغم ساقه على التحرك ليتريح حتى باب العرفة، ثم استجمع قوته ليدأ فتح الباب المعدني

الثقيل ليحد الممرات الضيقة في انتطاره. إنها ليست مضيعة صحمه
أهرب إلى مركب صيد. إنها نهتر وبلا توقف، تصاعف من الدوار الذي
يشعر به، وها هي معدته تتلوي الآن حتى بعد أن أفرغت ما كان في

لكنه في زمن حديث هذه المرأة.

في كل مرة كان الشيء ينقله إلى القرون الماضية، وهذه هي أول مرة
ينقله فيها إلى زمن وجدت فيه مراكب الصيد وثلاث الملابس الحديثة التي
يرتديها على حسده والتي تفوح منها رائحة الحمر. إنه زمن حديث، لكنه
لا يزال يتعمق إلى ماضيه، وشيء لن ينقله إلى المستقبل أبدًا، وهو يعرف
أن مستقبله على أرض الواقع لن يطول.

من بعيد كانت بعض الأصوات تتعالى، لكن يوسف عجز عن تمييز
البلغة التي يتحدثون بها، وإن بدت له مأوفة. إنه يعرف هذه البلغة، لكن
المشكلة في عقله اندي امتلات خلاياه بالكحول. ليفترق من مصدر
الصوت، وحيثما.

هكذا تقدم يوسف في الممر الضيق مستندًا إلى حدرانه.. تريح وسقط نه
وقف ليواصل طريقه من جديد وقد عادت سمات عقله تتحول إلى صرير
تهال على حدران جمعته. إنه يريد أن يتوقف. يريد أن يتوقف وأن يحس
وأن يحد إلى يوم عميق يرحمه مما يشعر به الآن. لكن الصوت يقترب
تحامل على نفسك يا يوسف.. لقد اقتربت من نهاية اللعبة.. تحامل
على نفسك.

فتحامل يوسف على نفسه وواصل طريقه في الممر حتى بلغ نهايته،
ليحد السلم المعدني في انتطاره يطلب منه الصعود.. لن يكون الأمر

سهلًا، لكن نبرحف على الدرج لو استترم الأمر، فهي الأعلى، تنتظره
بعض حادثة من الحقيقة سيدفع ثمنها بقطعة من جسده.

تذكر حسن كنت طفلًا كيف علمت والداك صعود الدرج خطوة. خطوة

يوضع يوسف قدمه على أولى درجات السلم المعدني.. تردد.. ثم
صعدوه

ومع كل درجة صعدوها يوسف على السلم المعدني كان الصوت
يشرب أكثر وأكثر، ليحد يوسف أنه ليس قادرًا على تمييز البلغة وحسب،
بل به يعرف كذلك صاحب هذا لصوت يعرفه ولو استجاب له عقل هذا
بحسب فسينمكن من نطق اسمه. لو استجاب له عقل.. لكن.. إنه سيتقيا
نفسه معدته تسفح فجأة.. ثم تهدأ فجأة ويبحو يوسف من مأساة كان
ستركها على الدرج. لعد إلى صاحب الصوت.

انقطع أنت تعرفه. وحين ستراه أمامك ستتمكن من نطق اسمه ومن
تذكر كل شيء عنه

استند بعض الحواس بجسد يوسف واستخدمه ليواصل صعود السلم
حتى بلغ سطح السفينة ورأى صاحب الصوت أخيرًا.

رأه فتوقفت الصرير في رأسه، وتوقفت معدته عن التلوي، وتوقف
يوسف ذاته ليحدق في صاحب الصوت ذاهلًا.

ومن وجد يوسف نفسه أمامه كان هو..

الدكتور مجدي!

أمامه وقف الدكتور مجدي كصورته التي رآها يوسف أول مرة في
حجر إلقاء القبض عليه.

هادئاً وثقلاً لم ينحل جسده بعد، ولم تكتسب نظراته الذهول والاستسلام
للذين رآهما يوسف فيها حين التقاه في سجنه... كان مجدي حين
أستاذ التاريخ الشهير.. لا الرجل الذي قتل ابنه بطريقة وهو نائم في مرش
كان الدكتور مجدي الذي لم يدخل الشيء في حياته بعد.

وكان يتسم.

أمام يوسف وقف بعينين تشعان ذكاءً ونشاطاً، مرتدياً معصفاً ثقبته
أيضاً محبه بعض الوقار، وكانت ابتسامته هي أكثر ما استعربه يوسف على
وجهه، وهو الذي كان يظن أن الرجل فقد القدرة على الابتسام بعد كل
ما رآه، وكل ما حدث له.

لكنه لم ير شيئاً بعد.. إنك تراه قبل أن يحدث كل ما حدث.

هذه الحقيقة أدركها يوسف وإن عجز عن استيعابها كاملة، وقد أحدث
الأفكار تتوالد وتذوب في رأسه كفقاعات الصابون.. إنه مخمور تماماً
يشعر بالدوار.. من هذه المرأة؟ واتجهت المرأة إليه متسمة، تقول

لقد استيقظ «إيفان» أخيراً.. رائع.

إذن هو «إيفان».. إذن هو في روسيا من جديد.. إذن هو.. لكن.. من هو؟

استيقظ لكنه لم يستفّق بعد.

قالبها مجدي وهو ينظر إليه لائماً لتحويل ابتسامته الهادئة إلى ابتسامة
تأنيب.. لا بد أنه اشتتم رائحة الخمر المتصاعدة من فمه الفاجر بدهون

لما لم تراه وأنصفت جسده بمجدي وأسندت رأسها على كتفه، وبدأ عقل
يوسف المضطرب منحه معلومة جديدة.

لا بد أنها روحته.. روجة لدكتور مجدي التي لم يرها قط، والتي مدت
حسنة أمر من متالية أصابعها في أسنوع واحد لا أكثر.. روجة الدكتور
مجدي التي رأتها سوس في حنمها حثة متحدة تهدد الطفل الذي هو
من صغلاً.. إنها.. مهلاً.. إنه لا يستطيع الوقوف أكثر من هذا.

وعلى سطح السفينة جلس يوسف بجسده القابل للاشتعال والتطاير،
ورأسه بين كفيه، فهر مجدي رأسه بأسف وأراح زوجته عنه برفق
صوت منها

أعدي له بعض القهوة.. محسّن لن تتحرك مدام هو في هذه الحالة.

فهرت روجة الدكتور مجدي رأسها متفهمة، ثم أسرع لتسلي
به ما طلب، بينما اتجه هو إلى يوسف ليجلس إلى جواره على سطح
السفينة، قاتلاً

كل هذه «الفودكا» التي تحتسيها.. بغض النظر عن أي وازع ديني
أو أخلاقي يحب أن تعرف أن كدك لن يتحمّل طويلاً «إيفان».

فرد يوسف أن يخبره بأنه ليس «إيفان»، وأنه لم يذق الخمر في حياته
نصراً، لكن عقبه كان قد فقد قدرته على تحويل إرادته إلى فعل مسموع.
في كل مرة يحذر له الشيء حسداً لا يصلح لمواصلة اللعة، وهذه امرأة
ختار له جسداً لا يصلح لأي شيء.

لكن القهوة آتية ومعهما ستستعيد بعض قدرتك على التفكير انتظر

فانتظر يوسف صامتاً ليستغل الدكتور مجدي صمته قائلاً:

- على أي حال لن تطول رحلتنا كثيراً.. لقد اقترنا اقتراباً جديداً
أشعر بهذا.

رفع له يوسف عيسى محمدين متساثلين، ليحيب الدكتور محمدين
عن سؤالهما

- سنوات طويلة وأنا أبحث عنه.. سنوات طويلة فصيحتها من الكتب
والمراجع والمخطوطات أبحث عن أي طرف يحيط بقودي إليه
لكن اليوم.. اليوم سأعثر عليه وأنا واثق من هذا

عم يتحدث؟ نعم.. لقد تذكر.. إنه يتحدث عن الشيء.

الدكتور مجدي كان يبحث عنه، ولقد عثر عليه حقاً في النهاية وأعدته
لكن.. كيف؟

فأجاب مجدي عن هذا السؤال قائلاً:

- «راسوتين» هو من قادي إليه.. تاريخكم مشير يا «يفان»، لكن
«راسوتين» سيظل إلى الأبد أهم رجل في تاريخ روسيا على
الإطلاق.. أنتم تعرفون عنه الكثير بالطبع.. لكنني أعرف أكثر
ثم أخرج من معطاه أوراقاً مطوية بدا عليها أنها تنتمي إلى زمن «راسوتين»
يوسف وفشل فيه في التخلص من الشيء، ليقول:

- أتعرف مثلاً أن «راسوتين» كان يقود جماعة سرية تدين له بالولاء
التمام؟

نعم إنني أعرف.. فلقد كنت عضواً في هذه الجماعة.. لكن.. أس الفهوة

جماعته هذه لم يرد ذكرها في أي من الكتب أو المراجع التي تحدثت
عن «راسوتين».. لكن المخطوطات التي تركتها جماعته ظلت
موجودة، ومنها عرفت الكثير.. لا تسألني كيف حصلت على هذه
المخطوطات، فيكفي أن تعرف أن كل شيء موجود وقابل للشراء
ودفعت الثمن المناسب.. المهم أنني حصلت عليها في النهاية،
ومنها عرفت الكثير

نعم.. وهل عرفت منها طريقة انقضاء على الشيء؟

- مثلي كان «راسوتين» يعرف أن لشيء موجود.. تمامًا كما حدث
معني، شعر هو موجوده وبحث عنه طويلاً حتى عثر عليه وعلى
منقوس اسدعائه

وحده يوسف ليقطعه قتيلاً.

- الشيء.. إنه شيء.

ثم مات بسببه في قمة مرة أخرى، ليشرح مجدي:

- لقد شرحت لك ما هو الشيء سابقاً، لكنك لم تتذكر ما شرحته وأنت
عاجز عن الوقوف حتى.. إنه أسطورة التاريخ يا عزيزي.. إنه السبب
في كل الثورات السوداء التي مرت بالشرية، وإيه حقيقة يا «يفان»..
«راسوتين» افترض أنه أتى إلى عالمنا من عالم آخر في ليلة ذابت
فيها الحواجز بين عالما والعوالم الأخرى، وهو افترض لا أحده
قديلاً للتصديق، لكني لا أملك فيه أو إثبات صحته ما لم أصل إلى
الشيء أولاً.. نظرية «راسوتين» تقول إنه كيان أتى من عالم آخر
منقوس قادرة على استدعائه، وأنه يتغذى على كل ما نعتقد من

أيا منا، لهذا تجده دومًا في كل الفترات التي ارتكبت فيها المذامير أو
نشبت فيها الحروب.. أينما وجدت فترة سوداء في تاريخنا فسنجد
الشيء موجودًا يحاول البقاء، وهذا هو ما كان «راسبوتين» يحاول
منعه، لولا أنهم اغتالوه أولاً.

وأنت رأيت اغتياله بنفسك فأنت تملك رقابية التنقل عبر الرمز بعد
أن منحها لك الشيء.. الواقع أنك رأيت اغتياله في الليلة المصيبة

- لكن «راسبوتين» كان يعرف كيف ومتى ستكون نهايته لهذا أمر
جماعته بأن يواصلوا ما بدأه هو.. ولقد كادوا ينجحون حقًا في إعادته
الشيء إلى عالمه لولا أنه تمكن من السيطرة على أحدهم ليستحدث
في إنقاذ.. المحطوطات كتبتها امرأة اسمها «أولجا» وفيها نصف
ما حدث في الليلة التي حاولوا فيها إعادة الشيء إلى عالمه. من
تقول إن .

فلم يضع يوسف لما قاله بعدها فهو كان يعرف

لقد كان هو - الأحمق - الذي أنقذ الشيء وألقى به في النهر بسفلى
حتى . محدي . مركب الصيد.. إنه في روسيا.

إنه في نهر «نيفا»!

- «أولجا» ذكرت في الأوراق التي تركتها أن هناك طقوسًا لنقصاء على
الشيء.. لو لم تتمكن من إعادته إلى عالمه فهناك طريقة لنقصاء عيبه،
لكنني لم أعرفها بعد مع الأسف.. المهم أن أعثر عليه أولاً.

فانتزع يوسف كلمة واحدة من فمه بمشقة:

ن. لمداد

ليضع الحماس في وجه الدكتور محدي وصوته وهو يجيب:

- لأنه كثير يا «إيفان».. هذا الشيء رأى التاريخ كله وعاش فيه، ويعرف
عنه كل شيء.. تحيّل أن تقصي عمرك كله في البحث في كتب تاريخ
تشت في صحتها، ثم يأتي لك من رأى الحقيقة بعينه وقادر على أن
يمسح لك كدمة.. تحيّل أن تحيّب عن كل الأسرار وكل التساؤلات،
وأن تحط بقلمك التاريخ الحقيقي كما حدث فعلاً لأول مرة.. تحيّل
ما الذي سيحدث لي بعدها يا «إيفان».. تحيّل.

فإنه فتذكر يوسف اللحظة التي التقى فيها الدكتور محدي أول مرة في
محله وقد استطالت لحبته ونحل حسده وشردت عيبه.. إنه لا يتخيّل .
به بتذكر!

- سأعيد الشيء.. سأعرف منه الحقيقة . ثم سأبحث عن طقوس
النصاء عليه لأخلص العالم منه وإلى الأبد . هذا ما سأفعله وهذه
الأوراق ستساعدني على تحقيق هذا الحلم.

ثم لوح بالأوراق التي كتبتها من كانت اسة يوسف - والتي لم تكن
سنة حقًا - مردفًا

- بها تقول إن الشيء انتهى به الأمر في حسد طفل ألقى به في هذا
سهر . لقد بحثوا عنه طويلاً لكنهم لم يعثروا عليه قط، فتخلصوا من
كل شيء يدل على وجوده، وفرروا أنه من الأفضل أن يتركوه على
هذه الحال إلى أن تقرب الليلة الثالثة والعشرون . كان آخر ما كتبه
«أولجا» هو أن كل شيء سيتهي في هذه الليلة، فالشيء زارها في

أحلامها طويلاً قبل أن يصيبها الحزن لتوقف عن الكتابة .
قالت : إن ليلة مصرع «راسوتين» كانت السنة الثانية والعشرين
وهذا يعني أن الليلة الثالثة والعشرين ستكون . ستكون ليلة العرس
في عالمه ورمه الأصلي .. وفيها سيتهي كل شيء حقاً كما وعد
الشيء إلا لو .

هذه هي فكرة جديدة لتحل عن نفسها في رأسه المكدر وقد
لم يعد يتحمل .. كل هذا الكحول الذي يعيق أفكاره وكل هذا الدور الذي
يترشح له حالساً . أين القهوة؟! ومدا عن حياره في هذا الفصل من قصة
اللغة؟ في كل مرة يستقل فيها بكور له ويدفع لشمس قطعة من إصابه
يداهمه وبقوة .. لكنه لا يستطيع أن يستسلم له الآن .. ليس بعد

ستعود زوجة الدكتور مجدي بالقهوة .. مستشريها وستصفو أفكاره
لتعرف ما عليك فعله .. انتظر .

لكن الدكتور مجدي لم يتركه بل أخذ يعيث في الأوراق في يده ،
- هناك شيء أحير تركته «أوحده» في أوراقها ، لكسي لم أفهمه جيداً
نعم .. ها هو .

ثم دس أحد الأوراق في مجال رؤية يوسف ، مردفاً :

- هذا الرسم .. إنه لمفتاحين .. أليس كذلك؟

فتطير كل الكحول في عقل وحسد يوسف ليصبح لذهوله مكان وقد
وجد نفسه يحدق في رسم تفصيلي لمفتاحين عتيقين غطتهما نفوس أخرى
قدري بأنها لغة ما لكنه عاجز عن ترجمتها . أخبره بأن الوحيد القادرة
على ترجمتها هي ...

- لقد ساعدتني روحتي في ترجمة النقوش لمرسومة على المفاتيح
فإنه كن لا يستطيع فعلها من دوني . ترجمتها لتحداً أيها حملة واحدة
مفسومة على المفاتيح

ثم رنسم تعبير حائر على وجهه وهو ينقل ليوسف ما ترجمته روحته
- «حممة تقول» «أنا سيحملان المفتاحين . أحدهما سيهلك .
والآخر سيعيش في عذاب بلا نهاية» .

فصير لذهول هذه المرة من حسد يوسف ليحل الرعب محله .. وعلى
وجهه ماتت كل التعبيرات ، لكن في عقله أحدثت لأفكار تتوالت وتتساق
محاولة تشكيل الصورة النهائية في رأسه .

المفتاحان واحد معه والآخر مع سوس . أحدهما سيهلك .. والآخر
سيعيش في عذاب بلا نهاية . وهذا سيحدث في الليلة الثالثة والعشرين
نسبة الأخيرة في هذه المأساة وهي ليلة الغد في زمنه .. والآن سيجد
«كثير مجدي شيء» وسينقله بعدها إلى مصر لتبدأ القصة كلها .. الدكتور
مجدي هو من بدأ القصة .. وهو لوحيده لقادر على إيهاتها!

- لا نتحدث عن الشيء

فإنه يوسف معتدلاً وبصوت لا أثر لشكر فيه ، وشره نصفها أمر
وبصته الآخر متوسل .

- ماذا؟

- لا نتحدث عن الشيء .. يجب ألا تعثر عليه

- «أنا» ما الذي تقوله؟

فقرر يوسف أن يحاظر بكل شيء فهو لم يعد يملك وقتاً ليضيع.

- إنني لست «إيفان».. اسمي يوسف، وأنا مصري مثلك.. لكنني نمتي إلى المستقبل.. أقصد أنني موجود الآن لكنني أتيت من المستقبل أقصد أنني أعرف ما سيحدث ويجب أن تصدقني.

ثم مال بوجهه على الدكتور مجدي، ليردف بنبرة رجل حسم قراره.
- يجب ألا تعثر على شيء.

فحدق فيه الدكتور مجدي ذاهلاً للحظات، قبل أن يستعيد رشده ليقف غاضباً:
- أنت تمزح.

فهب يوسف واقفاً هو الآخر وقد فقد دواره وصبره، ليكرر

- يجب ألا تبحث عن شيء.. يجب ألا تجده.. إنه أملنا الأخير

- يجب ألا أبحث عنه؟ أم تُصع لي فنته لك؟ إنه كره

- إنه كارثة تنتظر أن تحدث.. كارثة ستدفع جميعنا ثمنها.. أنت وزوجتك وأنا والدكتورة ليلي وسوسن و...

- مهلاً.. سوسن؟ أتعرف من هي سوسن؟

- أعرفها وأعرف أنها ستدفع الثمن مثلي بسبب رغبتك لمجنونة في معرفة كل شيء.. صدقني.. عد إلى مصر من دون أن تحاول العثور عليه.. لو عدت الآن فربما ينتهي كل شيء.. لكن أرجوك أرجو ووك.. لا تبحث عن شيء!

بعد الدكتور مجدي يحدق فيه ذاهلاً عن جزأه من الرد، لتحرح زوجته
بها حاملة كوب قهوة تصاعده منه الأبخرة، تقول:

- يو كد روجي محققاً فهذه هي آخر مرة سنطلب فيها منك أن تعوض
في النهر لتبحث عن الجسد الذي يحوي الشيء.. المياه باردة لكنها
ستشدد برودة في الليل و..

وتعثر فيها يوسف ليقطعها

- من تبحث عن الشيء

- من تبحث عنه؟!

وتصرخ مجدي نفسه من دهوله ليتدخل.

- إنه لا يعني ما يقوله.. اشرب القهوة يا «إيفان» و...

- اسمي يوسف

صرح بها يوسف ليتقل الدهول من وجه الدكتور مجدي إلى زوجته
التي تراجعت خائفة، تردد:

- ما الذي يحدث؟

- لا أعرف.. لقد أفقدته لخمير صوابه

فهم يشعر يوسف نفسه لا وهو ينقص على الدكتور مجدي، ليقصص
على ملاسه صارخاً

- لقد فقدت كل شيء بسببك.. كل شيء

فهم يصرخ الدكتور مجدي وإن صرحت زوجته وكوب قهوة سقط من

يدها ليتحول إلى رذاذ وشظايا زجاجية تناثرت في كل اتجاه، لكن يوسف لم يفلت الدكتور مجدي ولم يلتفت إليها بل واصل صراخاً

- مستدفع جميعاً ثمن حماقتك هذه.. لو عثرت على الشيء مستدفعاً
وحبها لن يوقفه أحد

- «إيفان».. أرجوك اهدأ و...

- أنا لست «إيفان».

وفي رأس يوسف ولدت الفكرة الأخيرة وأعلنت عن نفسها بوضوح لا يرقى إليه الشك: يجب أن يمنع الدكتور مجدي من العثور على الشيء، يجب أن يسمعه وأن يعده إلى مصر قبل أن يعثر على الطفل وقبل أن ياحده معه ليهدم حياته وحياة كل من سيقعون في طريقه لاحقاً. يجب أن يسمعه فهذا هو أمله الأخير.

لقد فشل في زمن «راسبوتين» لكنه لن يفشل هذه المرة.

- «إيفان».. أقصد يوسف.. اتركني وحاول أن تستمع إليّ.. لقد أوشكت الأمر كله على الانتهاء و

لقد حاول التخلص من الشيء لكنه فشل.

- لو عثرت عليه فسيبني دورك وبعد ذلك يكون لك أي علاقة
سيحدث و...

لقد حاول القضاء عليه لكنه فشل

أنت الآن لست في وعيت ولا تدرك ما الذي تفعله و.

بعد خاض كل فصول لعبته وفشل.

- كنك لو هدأت قليلاً وحاولت أن تسيطر على نفسك فس...

بعد دفع ثمن عذابه وسيبني به لأمر! ما هالك وإما في عذاب بلا نهاية.

- سوف نحدد أنك تتصرف بحماقة لا داعي لها و.

لكنه لن يفشل هذه المرة

- وسوف تندم على ما تفعله الآن و...

لن يفشل، ولو لزم الأمر فسيقتل الدكتور مجدي.. وبمنفسه!

- وأنا سأعثر على الشيء سواء ساعدتني أو لم تساعدني.

ففي الدكتور مجدي أخيراً بإصرار، ثم أرح يدي يوسف عنه وقد بدا على لائس أنهما حسما فراريهما. لأول تددت الصرامة في عيبيه، ولثاني أرح على وجهه هدوء عجيب ينذر بألف عاصفة.. الأول قرر المواصلة.. والثاني قرر أن يفشل!

في كل مرة سيكون لك الخيار

ويوسف الآن يتنفس وقد أدرك ما عليه فعنه. وهذه المرة لن يفشل!

وفي لحظة التي عاص فيها حسد يوسف في ميه بهر «بيها» الباردة كان عقله يسترجع لحظاته الأخيرة في هذا الزمن.

عنه الذي لم يحل تماماً من أثر «المودكا» صفه، فأحد يسر جمع له كل
ما حدث لحظة بلحظة

لقد انقض على مجدي أولاً.. نعم.. إنه يذكر هذا ويوضح، ويدرك كيف أطل الدهول من عين الدكتور مجدي اليمنى بعد أن دوس مر قبضته في عينه اليسرى.. لماذا اليسرى؟ لأنه فقد عينه اليسرى على أرض الواقع!

زوجة الدكتور مجدي صرحت حينها، إنه يذكر أنها صرخت ويدرك أن صرختها لم توقعه، بل إنه ضم قبضته ليدفنها في صدر الدكتور مجدي الذي أفرغ ما في صدره من هواء ليسقط على ركبته وقد أدرك أنه لن يفرج من هذه المعركة حياً.. إنه مجرد أستاذ جامعة لم يحصى شجاراً بالأيدي في حياته قط.. ستكون نهايته هنا والآن.. ويذكر يوسف أنه رأى الرعب والتوسل في عينيه لكنه لم يتوقف.

لو توقف فسيعثر الدكتور مجدي على الشيء وسيعيده إلى مصر لتبدأ المأساة.. لكن لو قتله.. هكذا صم قصتيه وهوى بهما على رأس الدكتور مجدي، ثم أنقى حسده عليه لبدأ تسديد الكدمات إليه لتصاعد صرخات زوجته مع كل لكمة.. لماذا لا تحرس قليلاً؟ إنه لم يستف من بعد وصوت صراخها يؤلم أذنيه حقاً!

يذكر يوسف أن الدكتور مجدي استحضر رغبة البقاء في أعماقه ليدفع عن حسده، وليسدد لكمة متحادة إلى أعنه، فلم يشعر يوسف بالألم وإن رأى الدماء تنفجر من وجهه لتسقط على وجه الدكتور مجدي.. لقد تكس الكحول في جسده بحجب الألم عن عقله، ومنحه ما يكفي من الصفة ليواصل المعركة.. لهذا انقض على الدكتور مجدي ليطرحه أرضاً محدداً، ثم أحاط عنقه بأصابعه ليبدأ اعتصاره.

يذكر يوسف أنه رأى وجه الدكتور مجدي يحتقن بالدماء، ويذكر

أنه حاول أن يزيج أصابعه عنه باستماتة من دون أن يتمكن من هذا، وقد ارتسم الألم والهلع على وجهه.. يذكر يوسف أنه شعر بالإشفاق عليه حينها، لكنه لم يتوقف.. لو توقف ولو تركه ينجو فسيفشل في هذا الرمن أيضاً

بهذا واصل اعتصار عنقه وقد أخذت صرخات زوجته تتعالى أكثر وأكثر، فصرح بها يوسف يأمرها بالتوقف، فستحبت روجة الدكتور مجدي على الفور، لتمسحه بعض الصمت والتركيز اللارمين لحق روحها.. قد يضطر إلى قتلها لاحقاً هي الأخرى وقد يتركها على قيد الحياة.. فهي لن تتمكن من العثور على الشيء بمفردها.. لكنه قرار سينحذه لاحقاً وبعد أن يتخلص من الدكتور مجدي أولاً.

يذكر يوسف أن وجه الدكتور مجدي احتقن وفتفح، وبدأت الزرقة تسري فيه، وبدأت مقاومتها تحت تدريجياً، ليشعر يوسف بأن مهمته وشكت على النجاح، وليتراقص الأمل في أعماقه.. سيموت الدكتور مجدي الآن.. هنا وفي هذا الرمن وقتل أن يعثر على الشيء، وبهذا سينتهي كل شيء قبل أن يبدأ، وسيبقى الشيء في جسد الطفل في عمق النهر و

ويذكر يوسف الصرعة التي هوت على رأسه

صرعة لم يمدح الكحول في حسده في حجب أنمها، ليصرح مفت الدكتور مجدي وقد شعر بالعالم من حوله يسطع فجأة، قبل أن يحاول الوقوف مترنحاً والدماء تنفجر من رأسه ساخنة تفوح رائحة «الفودكا» منها.. أممه ستعاد مجدي قدرته على النفس أخيراً لبدأ السهات والسعال، لكنه تركه ولتنت سطة إلى روحته التي وقعت حاملة ذلك القائم المعدني

الذي تلوث بدمائه وحاول قول شيء ما، لكن الكلمات اختنعت في راسه
ثم سألت مع دماائه من دون أن تجد طريقها إلى لسانه.

أما زوجة الدكتور مجدي - على الرغم من هلعها وذهولها مما وقعت
فيها رفعت لثام سمعدي مرة أخرى، ثم هوت به على رأسه ثابة، تبصع
العالم من حوله والأثم في راسه، ثم تربع جسده مرة أخرى قلباً تبصع
محارح مركب الصيد، ليسقط منه إلى مياه نهر «بيت» الباردة، فشعر به سب
بجسده الجديد يتجمد في لحظة.

لقد فشل!

يذكر يوسف أن زوجة الدكتور مجدي صرخت في اللحظة التي صار
فيها جسده في الماء، ويذكر أنه سمع الدكتور مجدي يصيح:

- ما الذي فعلت؟ إننا نحتاج إليه.

- لقد كان سيقتلك!

- يجب أن أنقذه.. ساعديني.. بسرعة.

لكنه لن ينقذه.. لو لم يتجمد جسده أولاً فسيفقد من الدماء ما سيؤدي
إلى موته وقبل أن يصل إليه الدكتور مجدي، ونهادا لن يحاول هو حتى -
ينقل نفسه أو أن يدفع بجسده إلى السطح.

لقد فشل!

لقد كان الفصل الأخير من اللعبة، ولم تعد هناك فرص أخرى
لدي قارب لا تستطيع تغيير المصير مهما حاولت؟ يا من كان يعتقد
كان مُحققاً، ولقد تعلم يوسف هذا الدرس متأخراً.. متأخراً جداً.. لكن الأمر

سبى الآن، وكل ما عليه فعله هو أن يسترخي وأن يترك جسده يغوص
بعومه إلى أعماق النهر.

نبرودة تشتد ثم تخفت ببطء فيدرك يوسف أن جسده بدأ يفقد إحساسه
مهدداً لأن يفقد ما فيه من حياة.. وحتى رأسه لم يعد يؤلمه، ولا الظلام
الذي أحده يحيط به أصبح يشعل ناله

ستعود إلى راسك الآن وستجد سحبتك في انتظارك لكلك لن تبقى
به طويلاً

تبصع لن يبقى فيه طويلاً فاشيء لن يتركه. سيقطعه ليأخذه إلى
حسب سكوت لمواجأة لأخيرة، والهدية ستكون واحدة من اثنين لكن
لا بأس فقد حاول وحاص كل فصول اللعبة وقدم قدر استطاعته و...

وفي هذه اللحظة وقبل أن يفارق يوسف جسده لعارق هدوء.. وقبل
أن تتحطم عبيده في رأسه تماماً.. ومن أعماق النهر نددى له حسد يرفد فيه
قد استقر حجر على صدره يمنعه من الطفو أو الحركة.

حسد طفل صغير لم يبلغ العاشرة من عمره بعد، ذي شعر أسود فاحم
بوجه لا أثر للمناعر فيه.

صعل راه يوسف يحاول أن يشهق فامتلا صدره بالمياه الباردة لينجمد
سهول على ملامحه ليقبى.

الدكتور مجدي سيغوص وراءه الآن ليحاول أن ينقذه.. سيجمده قد
لن يحية ثم سيحد الصقل في انتصاره يحوي الشيء الذي بحث عنه
طويلاً. سيعثر عليه بسسه هو!

بسببه هو!

بسببه هو!

بسببه هو!

كل شيء حدث كان بسببه هو وليس الدكتور مجدي.

هو من سمح للشيء بالوصول لعالمنا في زمن المرأة.

هو من سمح له بالهرب في زمن «فلاد».

هو من ساعده على الهرب في زمن «إليزابيث».

وهو من أنقذه في زمن «راسبوتين».

والآن هو من يقود الدكتور مجدي إليه.

كل ما حدث في زمنه.. وكل ما حدث في كل الأزمنة.. وكل ما كان
ما.. كل.. كل.. كل..

وكان آخر ما رآه يوسف في هذا الزمن هو العفل يفتح عينيه ليصرخ
مباشرة.. ويتسم.. ثم أظلمت الدنيا معلنة نهاية الفصل الأخير

حين عاد يوسف إلى سجنه وجد أنه يذكر كل شيء.

يذكر كل شيء حدث له، و.. مهلاً دعنا نتوقف لحظة لأشرح لك هذه
ساعة تتهمه ما عليه.. حاول أن تتذكر كل ما فعلته ليوم وباترتيب، كل
شيء فعلته ورأيت وسمعت وتعرضت له.. ثم حاول أن تتذكر كل شيء حدث
مس.. ثم حاول أن تتذكر كل شيء حدث لك في الأيام الماضية.. كل شيء

مستحيل.. أليس كذلك؟

وحدث الأشياء التي بهم هي التي تبقى في الذاكرة، وحتى هذه الأشياء
سبب مرور الزمن، وأغلب ما ننساها يغيب عن ذاكرتنا لأننا نحاول نسيانه
حتى، لكن يوسف حين عاد إلى زمنه وجد أنه يذكر كل شيء حدث له أو
معه وكأنه حدث للتو.

كل ذكرياته سطعت في رأسه فجأة وكأنما استرد ذاكرته بعد طول
غييب، ليجد يوسف نفسه يجلس يتذكر أول لحظة التقى فيها الدكتور
مجدي في سجنه ويأدق التفاصيل.. وجد أنه يذكر ما كان يرتديه وما كان

في الغرفة، وكم قطرة عرق سالت على وجهه، وكل سؤال سألته وسه بحصر
على إحابته، وكل كلمة نطقها الدكتور محدي قبل أن يحاول فتح نفسه

ثم وجد يوسف أنه يذكر ما حدث يومها، وبعد بدايته استيقظه مكرراً
على صوت صراخ ابن حارس الساية.. سيارته التي رفضت الاستجابة
الفيروس الذي أصاب كمبيوتره.. الساعات التي قضاهما ينتظر لبدء
التحرير يترقب الأسوأ ويسترجع الاحتمالات كلها في رأسه.

ثم وجد يوسف أنه يذكر كل شيء حدث له في طفولته كل يوم من
ه.. وكل شيء أكنه في كل يوم. كل ذكرى مر بها مع والديه وسحرة
لتي ماتت فيها أمه. واليوم الذي أحرقوه فيه بأن أنه لحق بها في السماء،
تلك الذكريات عادت إليه فجأة بكر ما تحمسه من ألم وحرارة

ثم وجد يوسف أنه يذكر كل ما خاضه في المدرسة.. وكل مرة حاور
فيها الهرب من صلاح ليتهاي به الأمر في كل مرة متكوماً على الأرض
يتلقى الركلات، ليستعيد يوسف كل ذرة ألم شعر بها، وفي كل مرة أنه
وجد يوسف نفسه يذكر اللحظة التي طار فيها جسد صلاح بعد أن صدمته
السيارة ليسقط أمامه جثة هامدة، وفكه السفلي يلامس أذنه اليسرى، قبل
أن يتذكر يوسف مطاردته الأخيرة له في العدة في رمن المرأة. كان حبه
يؤلمه حينها، وكان قد نزل الكثير من دماء أول جسد انتقل إليه و

ثم وجد يوسف أنه يذكر اللحظة التي انقلبت فيها سيارة عمه بهما
ويذكر كل قطعة زجاج ارتطمت بوجهه وكل كدمة حصل عليها جسد
حينها، قبل أن يتذكر ذلك القاتم المعدني الذي احترق فحذه حين انصبت
به السيارة في زمن «راسبوتين».

وفي عقله تصاعد نداء خافت من وسط كل ذكرياته يردد: كفى!
رجوك كفى!

لكنه وجد نفسه يتذكر اللحظة التي حظ فيها إلى داخل منزل لدكتورة
سبي ويذكر رائحة البرصوة والبحث في قنوه.. ثم يذكر اللحظة التي كان
حسب فيها منها وراء جثة ابنتها.. ويذكر ملمس المفتاح البارد في فمها..
ويذكر اللحظة التي غرمن فيها السكين في جسد الدكتورة ليلي.. ويذكر
حر صوت خرج منها قبل أن تهوي أسفل قدميه جثة هامدة.

فتعالى النداء في رأسه ثانية: كفى! إنه يتذكر أكثر من اللازم و...

ثم وجد أنه يذكر أول مرة أضانه فيها بصداق الصبي ويذكر كل
حصة ثم وكنت كد رأسه يمتلئ حبها. كنت ليلة من ليالي الثلاثاء،
وكان في الساعة من عمره، وكان بحريف، وكانت أمه قد توفيت، وكان
أبوه سحب بمفرده في غرفتهما كمعاده، فلم يجزؤ يوسف على مقاطعته،
فقط دفن رأسه في وسادته وأخذ يبكي ألماً وحيداً في غرفته.

وحيداً.. إنه يذكر وحده التي صاحبه طوال حياته.. يذكرها يوم
حرقه، ويوم أقمت مدرسته حفلاً لنظية مع أوسه أمورهم، ويوم خرج
من المستشفى بعد حادث سيارة عمته.. يذكر وحده ويذكر نادية.

نفى! أرجوك كفى!

سديه التي أحبتها، والتي قضى سنوات الجامعة يرسل إليها نظراته
عصمته فتجيبه هي بابتسامتها الرقيقة.. أول مرة رآها فيها كانت ترتدي
لبساً وردي اللون، وكان هو يرتدي أسماً بالية، فهو لم يكن يملك
حذاءً كان يوماً من أيام السبت، وكان يومها قد تشاجر مع أحد زملاء

دراسته لأنه سكب.. من دون قصد.. كوب شاي على أوراقه، فتركه رسيده
هذا بكدمة في جانب فمه، أحدها منه يوسف مستسلمًا فهو لم يكن بحراً
على ردها.. يذكر حبه لنادية.. ويذكر الليالي الطويلة التي سهر بحنه في
جواره يحدثها من دون أن تجيبه.. ويذكر اللحظة التي أخبره فيها بذلك
مجددي في المستشفى بأنها كانت تحبه.. وبأنها ماتت.

كفى! كفى! كفى!

١٥

بصعد الطريق على باب مكتب عصام، فأدرك أن لحظة الحقيقة
جاءت. اعتدل على مقعده ونأهت ليسمح للطارق بالدخول، فدخل من
فدنه سوسس لينضم عصام مخفياً لهفته ونعاسه بابتسامة لم تجد طريقها
إلى عيني سوسس الشرديتين. رائع! إنها لا تصلح للاستجواب، لكنه
من مسحها الوقت الذي تحتاج إليه لتمالك نفسها ولتستعد له.. لدا بدأ.
- وأخيراً انتقبت.

ورفعت له سوسس رأسها وبن لم تمنحه رداً.. لا بأس.. الآن سيبدأ
الاستجواب وسيعرف عصام كل ما يريد معرفته. بن إنه سيعرف أكثر
من يسعى له أن يعرف الكثير.

* * *

كانت الساعة قد حاورت منتصف الليل بصبح دقائق حين قرر عصام
أن يكتفي بهذا القدر.

على عكس ما توقع تمامًا لم تقاومه سوسس ولم تُنذ بالصمت كما فعل

لكن الذكريات أخذت تتوالى في رأسه وبلا هوادة، ومعها أخذ يوسف
يتلوّى وقد فقد قدرته على التحمل، وقد بدأت الحقيقة تشكك في رأسه
من وسط كل الذكريات.. الذكريات التي أخذت تتزاحم ونش فورها
لتخرج معلنة عن نفسها.

في كل مرة ستحصل على قطعة من الحقيقة وسأحصل أن على قصة
وهذه المرة أخذ منه الشيء قدرته على النسيان!

إنه الآن يذكر كل لحظة ألم ووحدة وحزن مر بها، ويوسف يمرره
يمثلت من هذه الذكريات محروناً يكفي شعاً بأكمه. يمسكه وسبه لأنه
حاول نسيانه ونجح.. نحن يا عزيزي لا نحيا بما نذكره ولكن برحمته
ما ننساه، ويوسف الآن يذكر كل شيء.

كل شيء!

هكذا، وحين عاد يوسف إلى سجنه هذه المرة تجمد مكانه دماً مع مص
الذكريات الذي انفجر في رأسه.. تلوّى.. ثم بدأ الصراخ بعذاب لا حد له
صرح.. وصرخ وصرح ومن دون أن يصدر منه أدنى صوت!

يوسف، بل أجابت عن كل أسئلته وباستسلام تام وبشرح تفصيلي نكر
إجابة، ليكون الناتج النهائي الذي خرج به عصام من ساعات اسحور
هو: لقد فقدت هذه الفتاة عقلها!

ثلاث ساعات جلس فيها يقاوم نعاسه ويستمع غير مصدق لقصة نكت
مجدي، وذلك الذي يسمونه «الشيء»، والصحراء والخيول، وسامح الذي
منحها ما تحتاج إليه لتبدأ «اللعبة» كما سمّتها، وما حدث لو الديب. ثم
محاوّلتهما إنقاذهما بأن تقتل يوسف الذي يتقل عبر الأزمنة ليحوص فصول
لعنته، والحلم الذي رأت فيه راحة الدكتور مجدي، ثم ريارتها الأخيرة منه
لتعرف هناك أن كل شيء سينتهي في ليلة عدد... ثلاث ساعات استصحب
عصام هذا كله بوجه حزين، ليكرر في النهاية سؤاله الوحيد لها

- كيف قتلت سامح بهذه الطريقة؟

- أنا لم أقتله إنه شيء!

- شيء.. عصيم هذا بكمي

ثم أرسل من حميم صارحة تقاوم إلى سحها، وقد أحدث تردد إلى
كل شيء سينتهي في ليلة عيد التي ستكون الليلة الثالثة والعشرين وهي
في هذه النقطة كانت مُحقة.. كل شيء سينتهي في ليلة عيد، فهو سيعود
الآن إلى منزله لينام أخيراً، وسيعود غداً ليكتب اعترافاتها بيده عنها
وفيها سيضع التفسير القابل للتصديق لكل ما حدث.

سوسن قتلت سامح بدافع الغيرة لأنه تركها وارتبط بفتاة أخرى. ثم
أصيبت بانهايار عصبي وفقدت عقلها. ويوسف قتل الدكتورة لينى بدافع
السرقه. والدكتور مجدي قتل ابنه لأنه أصيب بالجنون!

هذه هي التفسيرات التي سيرعمها غداً على التوقيع عليها قبل أن
يرسها إلى من ستحمل مشكلتهما بدلاً منه ليشهي دوره في هذه القصة،
وكل الأوراق التي وحدها مع سوسن وفراها. من دون أن يعلم منها حرفاً.
سيخلص منها ليتخلص من حرما يربطه به تين لفصينتين.. فقط أعداد قراءة
مد سخته سوسن «طقوس سندعاء الشيء» - من باب إراحة العصير لا أكثر -
يرجده هراء لا يستحق الاحتفاظ به، ليلقي به في سلة المهملات بجوار
مكتبه، قبل أن ينفذ ينمطي ويتشاء بقرة ثم يحمل أغراضه ليعادر مكتبه.

صحيح أنه لن يعرف أن هذا كيف ارتكبت سوسن حريمتها، لكنه فقد
منه ما لم يوصوع كده. لقد قتلت، وهو قصص عبيها، وهذا يكفي.. ليدع
كل تلك الأسئلة المسهقة للمحاكمة التي س يحضرها، تماماً كما فعل مع
محاكمة الدكتور مجدي، فهو يستطيع أن يستنح الحكم الذي سيحصل
عنه في النهاية يوسف سيحطى بالأعداء، وسوسن ستقصي ما تبقى لها
من عمر في مستشفى الأمراض لعقوبة، أم هو. فمن لأغلب أنه سيحطى
بمكة فة استثنائية جزاء له على «اجتهاده»!

عد سينتهي كل شيء.. لكن الليلة.. سيام كالأطلس

* * *

وحين دمع عصام مره أخيراً كان المشهد التقليدي المعتاد في انتظاره
سيارات شرطة تصيء المكان بالنون الأزرق البارد الكثيف. سيارة
سعد يقف قائدها مستنداً إليها يدخن ويستظر أن ينتهي فريق العمل
محدي من عملهم لينقل الحثة إلى المشرحة. وعند مدخل البناية بعض
نحود والسكان يقفون ينتظرون وصوله، وقد بدا عليهم الوحوم.

وكان أول ما لاحظته عصام مع وصوله هو حالة الصمت المسيطرة على المكان.

لماذا يبدو له هذا المشهد مكرراً؟! كأنه رآه من قبل.. كأنه كان هنا

لكن عصام لم يكن يتمتع بالدكاء اللازم لاستنتاج ما يحدث هو. بل إنه لم يكن يتمتع حتى بقوة الملاحظة الكافية لبنته إلى أن نسبة التي توقف أمامها ليست بدينه التي يعيش فيها.. كل ما انتبه إليه حينها هو حقيقة أن جريمة ما ارتكبت في بنايته وللمرأة الأولى، وكل ما فكر فيه لحظتها هو أن لبنته الطويلة هذه لم تسه بعد، وأن هناك كرتة في انتظاره، فترجل من سيارته وأخذ يتأمل الموقف أمامه من وراء نظرات الشمسية.

متى ارتداه؟ إنه لا يذكر أنه كان يرتدي نظراته حين كان يقوم أسبوعاً

لكنه وجد نفسه يتجه إلى مدخل البناية مأخوذاً باستغله الطرقات الصامتة في أعين الجميع. في المعتاد، وحين تحدث جريمة قتل، تحدث الجميع بقوم يتفشون ويحدثون ويفترضون أسباب هذه الجريمة ودوافعها، ويتبادلون قصص علاقاتهم بالمحبي عليه وكيف أنه كان «في حاله» ولا يستحق هذه النهاية المؤسفة، حتى لو كان المقتول حراً محدورات متهم في قضايا قتل واعتصاب، لكن هذه المرة كان الجميع يقومون صامتين يتبادلون الطرقات التي اشم فيها عصام رائحة الخوف، فلم يدع هذه التفتيشية تشغل باله طويلاً وهو يتحاورهم ليصعد إلى حيث الشقة التي تحولت إلى مسرح جريمة.

هذا المكان يبدو مألوفاً.. لقد كان هنا.. إنها ليست بنايته لكنه كان هنا

أمره شقة وقف المرائد علاء ينتظره وقد بدا عليه لتوتر الشديد، فادركه عصام بنهضة أمره.

ما الذي حدث؟

لماذا عصام تنصرفه.. إنه لم يكن يريد أن ينفق سؤاله هذا، لكنه معها، وكأنه لا يملك أي سيطرة على جسده.. كأنه يحلم!

لكن علاء أجاب عن سؤاله قائلاً:

جريمة قتل.. شاب في أوخر العشرينيات، يعيش بمفرده في الشقة.. التحير.. كشمس الحنة حين وجدوا باب شقته مفتوحاً واتصلوا بها يستمعون و

فقد قدرته على المواصلة لفرط توتره، فانفجر فيه عصام:

وماذا؟

مبادرة التقدم صدقي.. أنا لم أر شيئاً مماثلاً على مدى سنوات خدمتي وأنت في تلك رأيت أو سترى شيئاً كالذي يتطرق في الداخل.

فنه فتذكر عصام رأس ابن الدكتور محدي المفروس في الجدران، ينسج في ثقة قائلاً:

لن يكون أسوأ مما رأيته بالفعل.

فسم يحبه علاء هذه المرة ولم ينتظر هو بحسنه، بل دخل الشقة التي سخر فيها رجال المعمل الحثاني وقد سيطرت عليهم حالة الصمت المريبة ذاتها، ليقف عصام وسطهم يتأمل الشقة متظاهراً بالأهمية.

مهلاً.. لقد كان هذا بالفعل!

إنه يذكر الآن هذا المكان ويعرف ما حدث فيه فلقد كان هذا

إنها شقة المهندس سامح!

شقة عادية هي.. تبدو حديثة لكن المشروع السكني ذاته حديث مرن
بعناية وأغلب الأثاث يحمل طابعاً أثوياً مميزاً من السهل معه أن تعرف
أن المعجني عليه كان خاطباً، وربما على وشك الزواج كدنت لا دم،
ولا آثار عنف أو اقتحام.. ولا جثة!

لكن.. من إحدى العرف خرج له قائد فريق المعمل الحثاني بوجه
شاحب وأطراف ترتعش لفرط توتره، ليقول:

- سيادة المُقَدِّم.. الجثة في الداخل!

بالطبع الجثة في الداخل، وحين سيدخل سيجدها وقد احترقت من
الداخل إلى الخارج.. إنه يعرف هذا كله.. لكن.. ما الذي يحدث؟

لكنه وجد نفسه يواصل ما قرر أنه «حلم» ليسأل:

- وماذا عن الأدلة؟

- لا توجد أدلة.. لا يوجد أي شيء.. ولا حتى تفسير

- ما الذي تقصده؟

- سترى بنفسك.

ثم مدَّ يده بكمامة طبية لعصام شارحاً:

- لن تتحمَّل الرائحة!

وانسك بها عصام من دون أن يرتديها واتجه إلى العرفة التي تحوي

جثة بنفاد صبر واصح و.. و..

وبمجرد أن سقطت عيناه على الجثة في الداخل شهق ذاهلاً بقوة!

شهق.. وانتفض.. وفهم.. وارتجف..

عسى الرغم من أنه كان يعرف ما في انتظاره فإنه وجد نفسه ينتفض وكأنها
حره لأولى.. وفي أعماقه بدأ عصام يقنع نفسه بتفسير ما يحدث من حوله

به يحسم.. نندم وهو يتوعد سيارته لتتوسط إرهابه، وهو الآن يحلم
بأن ما مره في منزل المهندس سامح، ولن يستغف من حمله هذا، لا لو
سبي أو لو انقلبت به سيارته أولاً!

وبحظات طُل وافتت مكنه وعراهم عاجراً عن السيطرة على نفسه،
ترك كبوسه يواصل، وحتى اللحظة التي لفتت فيها إلى قائد المعمل
الحثاني ليلقي عليه بسؤال، لكنه لم يكن هناك!

بمعجزة ما حتى قائد المعمل الحثاني ورحله وكل من كانوا في
مكان، ليتركوه بمفرده يقف في غرفة المهندس سامح بجوار جثته
محترقة وقد تعاظم ذهوله ليفقده قدرته على التفكير تماماً.

ما الذي يحدث هنا؟!

وأين ذهب الجميع؟!

وها استعداد عصام سيطرته أخيراً على حسده، لكنه طُل وقفاً مكنه
وقد أعجزه ذهوله عن الحركة، ليستمع إلى الصمت الثقيل الذي ران على
مكان، قبل أن يتعالى صوت عابث فحاة يقول:

- تريد أن تعرف كيف احترقت من الداخل إلى الخارج.

فانتفض عصام بقوة والتفت إلى جثة المهندس سامح المحترقة التي خرج منها الصوت، ليصدق فيها بذهول برائحة الرعب . وأمامه تحركت حثة سامح لتعندل على المقعد، ولترسم انتسامة محيطة على الوجه المحترق، رآها عصام فتعنى أن تنقلب به سيارته الآن ليستيقظ من كابوسه هذا قبل أن يستمر أكثر من ذلك.

- الآن ستعرف.

فلم يجد عصام الوقت الكافي ليهرب أو ليصرخ أو ليستيقظ من كابوسه هذا.

لم يجد الوقت لفعل أي شيء!

وعلى جدران محبسها أخذت سوس تكتب كل شيء.

تقسم الذي سرقته من مكتب عصم - الذي سم يصدق حرقاً مما أحرته به - كتبت على جدران محبسها وخططت حادثة لتجعله مقروءاً لم تشوّه بينتها ولا السرعة التي أحدثت تكتب بها، أحدثت سوس تحكي القصة كاملة مكتوبة، ومنذ البداية.. لماذا؟ لأنها خسرت كل شيء.

في اللحظة التي أثار فيها لمص عليها أدركت سوس أنها النهاية، وأن رحلتها التي طألت ستتوقف عند هذا الحد - لن تواصل للعبة، ولن تعرف بحادث أسلنتها، ولن تعد والديها، ولن تجد الوقت حتى لتواجه شيء للمرة الأخيرة، لكنها ستدفع لثمن تمام كما تنهى الأمر بأستدها محدي. تنهى دورها في هذه اللحظة التي قصوا فيها عليها، وما ينتظرها الآن هو انسحق أو الإعدام أو ما هو أسوأ - آخر ما يمكنها فعله إذن هو أن تكتب كل شيء على جدران سجنها ولتبدأ قصتها للمرة التي حدثت فيها مع أستاذها ليخبرها بكل ما يعرفه عن الشيء.

هكذا قصت سوس سنه تكتب بقلم سرقته ودموع لم تتوقف عن
الاهتمام من عيها لحظة

ثم كتبت في النهاية رسالة مختصرة وواضحة لمن سيقرا هذه السطور
في يوم من الأيام:

«لو واجهت شيء أو عثرت عليه. فلا تحاول أن تقتله!»

لا توجد طريقة معروفة للقضاء على الشيء، ومواجهته لن تعني لا
أنك ستخسر كل شيء كما خسرت هي حياتها وكل من تحب في هذه
الحياة.. وحين أنهت رسالتها توقفت أخيراً لاهثة لتجد أن شمس يوم
الآخر أشرقت عبر نافذة محبسها.

إنها النهاية إذن.

الليلة ستكون الثالثة والعشرين، لكنها ستخرج من هنا أبداً ولن
خرجت حتى فهي لا تعرف ما عليها فعله.

لا تعرف ما سيحدث الليلة، لكنها لم تعد تملك قوة أمل لتسعين
على نفسها ولتواصل.. والآن.. لم يعد لبقائها جدوى.

هنا وفي اللحظة التي بصت فيها دموعها، وحلت فيها الحزن
من أي مساحة تكفي للمريد من السطور، وقعت سوس قبض على
القلم في يدها بيد وتحنس عنقها بالأخرى، وقد قررت ما عليها
فعله. أستاذها حاول فعلها قبلها لولا أن يوسف أنقذه ليهلك لاحقاً
لكن يوسف ليس معها الآن، ولن يقدده، وهي ستهلك على كل حال،
فلماذا لا تفعلها إذن؟

بطء سددت القلم إلى عنقها، وأغمصت عيها وارتحفت، محاولة
نظرة على رعتها في النقاء.. لا مرور للنقاء.. لا مرور لأي شيء بعد
الآن. ولنفسها همست:

- سيتهي كل شيء سريعاً.

وهذا كان آخر ما تمته سوس يومها أن يتهي كل شيء بسرعة ومن
دون أن.. وما سيحدث بعدها لن يشكل فرقاً، فقد خسرت كل شيء..
هكذا سددت القلم إلى عنقها.. استعدت لغرسه.. ملأت صدرها
بدموع لمرّة لأخيرة، وكتمت أنفسها، ثم.. ثم افتتح باب محبسها عليها
سبحان من قال بلهجة امرأة:

- هيا يا.. المُقَدَّم عصام في انتظارك

* * *

حماً فيص دكريته معه خرج يوسف من محبسه ليتبع من قتاده عبر
ممرات إلى خارج المكان.

كم مرّة تم أفبده عبر ممرات حتى الآن؟ إنه يذكر اللحظة التي قتاده
فيها نصبح في ممرات قصر بران ليقتل «فلاد» ويذكر اللحظة التي اقتدته
فيها ابنه.. التي هي ليست ابنه.. في ممرات قصر «مويكا» ليكمل ما بدأه
«سوتيس» ويذكر اللحظة التي قتدته فيها مدرسته صديق عبر ممرات
مدرسة إلى مكتب المدير لينعوه بوفاء والده.. كان مدير المدرسة يصرح
في الهاتف يومها فسمعه يوسف قبل أن يبلغه، يصيح

- ولماذا أبغى أنا بأن والده مات؟ إنها ليست مسؤوليتي!

حتى هذه الممرات، القذرة يذكر أول مرة جال فيها مد عدة سنوات مع عصام يوم أتى إليه ليحصل على تفاصيل حربه سرقة، ليكتب عيباً حراً ليراه أحد في محلة اسمها «المحلة»، ويذكر أن عصام يومها كان يحاهد لإحفاء سعادته، فهي المرة الأولى التي يسعى فيها صحفي لإجراء حوار معه، ويذكر أنه يومها كان يحاهد هو الآخر كيلا يتركه مع كم اسحود التي أحد يردده عليه وبلا توقف. إنه يذكر أن

كفى! كفى! أرحوك!

لكن الذكريات لا تتوقف، ويحد يوسف سوس وقد انصمت إليه صامته تعيين حفت محروها من الدموع، لتسير بحواره بشاركه صمت وتنحاشي البصر إلى الكدمات التي عصت وحده. إنه يذكر أول مرة نشر فيها سوسن. كانت ترتدي بطانة طيبة أليفة ردتها دكاء. وكنت ستم حولها طينة الوقت كالمحيط. وكنت تردد أن اس الدكتور محدي لا يرحل حيًا، وأن عليهما أن يعثرا عليه ليقتلاه قبل فوات الأوان.

انتهت بهم الممرات إلى خارج المبنى ليحد يوسف عصام يقف بسند إلى سيارته متطراً، وقد أحصى عيبه بظارته الشمسية التي لا تردده إلا حمافة، يرمق السماء، وقد بدا هادئ صامتاً بصورة تبادل معها يوسف وسوسن نظرة حيرة صامته، من دون أن يحاول النطق بحرف. توقف من اقتادهما أمام عصام ليتبادل معه هزة رأس سريعة، قبل أن يعود إلى داخل المبنى ليعود عصام إلى تأمل السماء صامتاً هو الآخر تارك حيرة يوسف وسوسن تتعاطم في أعماقهما.

ما الذي سيحدث الآن؟

في النهاية التفت إليهما عصام أمراً

هنا.

ثم فتح باب سيارته واحتفى داخلاً، ليتبادل يوسف وسوسن نظرة صامتة حيرة، قبل أن يتحقق به إلى داخل السيارة، ليدير عصام محركها ويصوب على لنور ثلاثة رابعهم سؤال لم يحد من يحيب عنه.

ما الذي سيحدث الآن؟

ولمدة صويته قد عصام سيارته من دون أن يسس ست شقة تركا يوسف وسوسن يتبادلان الأسئلة بصر نهما من دون أن يطقا بها، ومن دون أن يحصلوا على جواب

عصام الذي كان لا يتوقف عن شرثرة لحظة، ولا عن إطلاق حكمه بالأحوال القادمة، لا بل انصمت تمام طواب الطريق، فلم يحد يوسف أمامه إلا أن يحتفظ بأسننته لنفسه لبدء مساعاة الطريق الذي امتد بهم ليحد أنهم قد خرجوا من المدينة وبعوا ذلك الطريق الصحراوي ليقسم المشهد أمامه إلى نصفين سماء ررقاء في الأعلى ورمال صفراء في الأسفل على مرمى نضر وتدرجاً من أسفل في أعماق يوسف يتحول من «ما الذي سيحدث الآن؟» إلى «إني أرى نحن داهيون»، لكن سؤاله لم يخرج منه دون أصل من عيني سوسن التي أحدث ترمق المشهد عبر نعدتها دهشة وصحة، قبل أن تولي اهتمامها لعصام الذي حمدت ملامحه واختتمت صفاته وراء بظارته الشمسية.

وعلى الرغم منها شعرت سوسن بالأمل وبالخوف

المنطق يقول إن عصام ينقلهما الآن إلى حيث سيواصل استجوابهما ليحصل منهما على الحقيقة التي سيصدقها، أو حيث سيحرهما على الاعتراف بما يريد هو لينهي دوره في هذه القصة، لكن.. لكن منى والشيء يلتزم بالمنطق معها؟!

يوسف أيضًا افترض أنه سيأخذهما إلى حيث يمكنه مواصلة صرق «إقناعه» معهما من دون أن يستوقفه أحد، لكن هذه الفرضية له نحد البيئة الصالحة في أعماقه لتحب، وماتت سرعة أمام أسنة أكثر مصفبه لو كان يريد استجوابهما فلماذا ينقلهما إلى مكان بعيد وكأنه يحس أن يمنعه أحد؟

من الذي سيمنعه؟

لماذا يستجوبهما أصلاً وهو قادر على كتابة اعترافتهما نيابة عنهم ولن تكون هذه هي المرة الأولى؟

به يذكر أنه أحمره بأنه فعده من قبل يوم أن رآه حس.. لا لا وف لدكريات الآن! إن الشمس الآن تتوسط اسماء معدة أن ما مصلهم عن الليلة الثالثة والعشرين بضع ساعات لا أكثر.. إن النهاية تقرب، وهو يشعر بها آتية لا محالة.. كل ما عليه الآن هو أن يجلس صامتاً وأن ينتظر حتى...

لكن عصام توقف فجأة بسيارته وفي منتصف الطريق تماماً.

هكذا ومن دون مقدمات أو أسباب توقف بعزملة حادة دومت بأحد كل من في السيارة إلى الاصطدام بما أمامهم بقوة، قبل أن يعتدل يوسف وسوس متألمين ليحدثا في عصام الذي جلس أمامهم ساكناً هادئاً يرمق

سماه أمامه محافظاً على صمته الذي استجد عليه.. وللحظات حدثت به سوسن قبل أن يخرج السؤال منها مبرراً: لماذا توقفتنا؟

ولكن عصام خرج من السيارة بهدوء تام، ليبدأ السير في اتجاه مصاد وفي منتصف الطريق.

هكذا ومن دون أن ينطق بحرف أو أن يتردد للحظة، غادر السيارة ببركة يحدقان فيه ذاهلين، قبل أن يتزع يوسف نفسه من ذهوله لينادي عيه بلا صوت، ليقف عصام وكأنه سمعه وليستدير إليهما بهبطه.

كمثل وقف عصام أمامهم وقد انعكست الشمس على نظارته لتوهج أمامهم بينهم يوسف - من أحرأ - ما سيحدث، قبل أن يخرج عصام مسدسه من جرابه ليصقه بجانب رأسه و.. و..

وامترح صوت الطلق الباري بصرخة سوسن المدوية داخل السيارة بحيثط الصوون بد كرة يوسف، وسقيا فيها إلى الأبد.

لقد انتهى دور عصام عند هذا الحد!

بقوة أحد حسده يرتحف، ويجواره أخذت سوسن تصرخ بصورة مستبيرة، قبل أن يهرها يوسف بقوة ليجهرها على التوقف، فحدثت فيه لحظة قبل أن تصحر في لكاء.

في منتصف لطريق أمامهم وعلى بعد بضعة أمتار تحوّن عصام بكر حماقته وثرثرته وعذائه إلى حنة هاملة ترقد وسط بركة تتسع من الدماء، لم تقو سوسن على النظر إليها، لكن يوسف حلق فيها للحظات قبل أن يستوعب الرسالة كاملة.

لقد انتهى دور عصام عند هذا الحد.

والآن يأتي دورهما!

وصامتاً أخذ يوسف يقود سيارة عصام، وقد احتفظت سوس بمكانها في المقعد الخلفي وإن توقفت عن البكاء.

كان هذا هو الخيار الوحيد المتاح أمامه هذه المرة، فأحده رامت ولم تقومه سوس، ولم تعترض وكأنما فقدت اتصالها بالعالم الخارجي، فلم يعد هناك ما يستحق أن تعترض بشأنه. لم يحاول يوسف أن يفسد عصام فلم يعد فيه ما يصلح للإنقاذ بعد أن نأثر محبه على قرعة الطريق. ولم يحاول العودة، فالرسالة التي لم يطق بها عصام كنت أوضح من أن تُقال.

عليهما أن يواصلتا طريقهما من دونه، فالشيء ينتظرهما، واللذة لشئ والعشرون متبداً بعد ساعات قليلة.. يواصلان طريقهما إلى أين؟ إلى الأمام كالمتعاد!

فقط وحين أصابه الإرهاق - وهذا حقه بعد كل ما مرَّ به - توقف يوسف بالسيارة ليطلب من سوس سطراته أن تواصل هي، فاستحدثت له بأن احتلت مكانه وراء عجلة القيادة لتواصل القيادة في الطريق الذي امتد أمامهما بلا نهاية.. وبجوارها جلس يوسف صامتاً يحاول مقومه ذكرياته ليسمح لأفكاره بالحركة قليلاً في رأسه المكدود.

إنه ليس الطريق الصحراوي الذي يعرفه.. بل إنه ليس أي طريق صعب، فحتى الآن لم تمر سيارة أخرى بجوارهما ولم يتغير المشهد من حولهما.

بهم، لا من الشمس التي أحدثت تواصل رحلتها في السماء تسابقهما في سوع اللبنة لأحره.. هذه الملاحظة وجدت طريقها إلى عقل سوس أيضاً، فكيف لم تحرجها من صمتها ولم تدفعها لتردد، بل إلى المواصلة.

ي أين؟ إلى الأمام، فلا يوجد خيار آخر أمامهما.

ولعجيب أن يوسف.. على الرغم من كل ما حدث ويحدث - استسلم بسوء حوراه وكأنه يقتصر فرصته لأخيرة في نوم هادئ لا سمر فيه ي رمن بعيد أو إلى فصل جديد من فصول اللعبة.. لقد كان يعرف أنه حصل على الحقيقة كاملة، وأن كل ما تبقى أمامه هو أن يدفع لثمن، وهذا من يحدث حتى يسعا وجهتهما أي كانت. إذن فمدا لا يتم لأن ليحصل على بعض الراحة، ولأول مرة منذ أن بدأت مأساته؟

لهد أحد يرمق الشمس العازية في صمت إلى أن عاب عن عالمه، معوص في بحر أحلام امتزجت فيه الذكريات بواقع يكون ليس كل الشيء ضيق، حتى سيقط أحيرا ليحد أن الظلام قد بدأ يصنع السماء بونه، وأن سوس توصل القيادة إلى جواره، وقد وصلت حسده وانسم الحوف على ملامحها بصورة دفعته لأن يعتدل على مقعده ليرمق المشهد من حوله عبر النافذة.

أمامه تدور المشهد تماثلاً، فبه تعد السماء وصحراء هي بطلي المشهد أمامه. بل، وعبر النافذة، وجد يوسف أنه يحدق في ضباب عجيب ساد لعدم من حوله، وإن كشف عن أشجار ضخمة تجدد بعد إلى السماء، حتى تغيب قممها فيها كأنها تحمل السماء على عاتقها.. والسماء ذاتها كانت مخلقة

كانت زرقاء، لكنها ليست كأي زرقاة رأها في حياته.. حاول أن تتخيل السماء التي خلقها الله قبل أن تلوثها أدخنت وروائح وحفريات وحرارة أن تتخيل ذهول يوسف إذ أخذ يحدق فيها، وقد مسحته ذكرياته المصيرية حقيقة لا حدال فيها:

لقد كان هنا!

إنه يذكر هذه العابة.. ويذكر أنه زارها من قبل.. يذكرها ويذكر أنه الذي شعر به في عنقه حين كان في ذلك الجسد المصاب.. ويذكر صوت المرأة الساحر إذ أحدث تشد أعينها تستدرجه ويذكر كيف سقط في فخ المرأة ليراهما تستحضر الشيء إلى عالمنا أول مرة.. ثم يذكر مصدر صلاح له بين جذوع هذه الأشجار.

لقد كان هنا!

وذاهلاً التفت يوسف إلى سوسن ليصبح بلا صوت:

لقد كنت هنا!

فلم تسمعه سوسن، وإن أجابت مفسرة بكلمات مرتجفة:

لقد.. لقد انتقلنا.. إنه ليس عالمنا يا يوسف.

ليتصاعد صوت سوء حظه في رأسه من وسط كل الذكريات

بالطبع هو عالمنا. لكننا في أرض مختلفة وربما في زمن مختلف

إنه ليس المصبي لقد أحدهم شيء إلى بقعة اسداية، لكنه لم نعدهم

إلى لحظة البديهة، فعلى لرعه من الصواب الذي عبق العالم من حوله شعر

يوسف نال هناك شئ من محبة.. به ية لم يكن هناك ذلك الطريق الذي تعود

به سوسن سيارة عصام الآن بجسد متصلب ويخوف أطل من عينيها..
لاشجار ذاتها بدت عتيقة غاب أي أثر للحياة فيها، وإن بقيت منتصبية
تحدث في مقبرة كانت تستحق لقب عنة في يوم من الأيام. نعم. إنه ليس
مصبي، لكنه المكن الذي بدأ به كل شيء. والذي سيبته في كل شيء.

ولكن. هل ستصمد سيارة عصام طويلاً وكان وقودها لا ينضب؟

نسأل سوء حظ يوسف فأجابه محرك السيارة بحشرة معدنية
بعت منه فحاة قبل أن تنفض السيارة ذاتها وكأنها تذكرت أنها حلت
من وقود، قبل أن تتوقف بهما وسط انصاف وحدوع لأشجار معدنة
بصمب المواصلة.

لقد انتهى دورها في هذه لقصة عند هذا الحد

ومع توقفها بدأ حسد سوسن يرتحب، فاحتضن يوسف يدها بين
أصابعه وصمم عليها محاولاً أن يعص لطمأينة إبيها.. لا بأس.. إبي
معت. ولن أسمع لصلاح بالإمساك بك!

مسحت سوسن نظرة توصل ترجو منه فيها البقاء، لكنه هز رأسه بهدوء
من أن يخرج من السيارة ليقف ينتظرها حتى لحقت به بعد لحظات من
تردد، لتفصر على يده طفلة خائفة تخشى أن تضل طريقها من دونه،
فتركها لها وملاً صدره بالهواء البارد ليستعد به لما هو آت.

مبواصلا طريقهما سيرا على الأقدام هذه المرة إلى أين؟

إلى الأمام!

* * *

ومن وسط جذوع الأشجار ظهر لهما ذلك المنزل في نهاية طريق فأدركا أنه هدفهما.

منزل بدا لهما ككائن حي أسطوري أطل عليهما من وسط النصب الذي أخذ يتراقص من حوله، وبالنضوء الخافت الذي توهج عبر بوابات الأعمدة تنبئ لحوّلهم إلى عبيس تحديق وهم بدهمة وانتظار أمام المنزل امتدت مساحة ضخمة خلّت من الأشجار، وعلى جانبيه تعاظم النصب و لظلام، يبدو لعالم كنه كأنه ينتهي بهذا المنزل، نارك العدم من وراءه وكان المنزل يبدو كأنه يتنفس!

على الرغم من أنه كان يرقد أمامهما ساكنًا مهجورًا وقد امتزج بالموحودات من حوله بشكل لوحة حربية هو بطلها: إلا أن يوسف وسوس توقف أمامه وقد شعر بنفاصه عجيبة يكسبهما وقد بدا لهما أن حدران المنزل تتحرك في انتظام لا يتأني إلا لكائن حي سقيم في هدوء من ينتظر فريسته.. كائن حي نافذتاه هما عيناه وبوابته الصحنه التي ترتفع لعشرة أمتار على الأقل، فمه المنحني سطر أن يفترس منه كثير يفتح لهما ليتلعهما داحنه

إن الشيء في هذا المنزل.

هدام أيقنه على الفور، وعلى نحو لا يرقى إليه شك

الشيء في هذا المنزل، وينظرهما الآن داحنه، وفي النعنه داحنه التي عمر فيها إلى عاصم أو مرة. لقد اتخذ من هذا المكان منزلًا، وفيه ستكون المواجهة الأخيرة، وفيه سيدفعان الثمن بعد أن انتهت كل قصص اللعبة.. وهذه المرة وجد يوسف نفسه يرتجف هو الآخر وقد أخذت به

سوس ترتعش في كفه، ومن صدريهما تصاعد صوت ضربات قلبيهما لتسحب الموسيقى التصويرية المتوترة اللازمة لهذا المشهد.. وبعده لاقى نظراتهما وقد حملت السؤال ذاته: هل سندخل؟

وكأنهما يملكان عدة إجابات لهذا السؤال ليختارا منها!

ويعجب أن سوس كانت هي من حسمت تردده أولاً هذه المرة، شهد ونوقف يدها عن الارتعاش بين أصابع يوسف قبل أن تصتها، قائلة: - هيا بنا

شتم يوسف في سرته رائحة يأس معبزة شعرة وإن لم يكن يملك صوتًا لمصيح به عنه، بها لم تعد تنسي لقد حشرت كل شيء، وأيّ ما كان سطره داخل المنزل فهي لم تعد تالي. - وأنت أيضًا لم تعد تملك ما نخسره.

وبسوء حظه في رأسه ليقر بها حقيقه يعرفها يوسف، ويستسلم لها محطو تحده المرمر وسوس إلى حور ليدون في النوحة الحربية أمامهما سريحيًا هب وفي نهاية العدله وداخل هذا المرمر ستكون المواجهة الأخيرة

وحين سعد الوانه لصحنه وحدا أو راحة في سطرهما متمثلة في نقبين من حين في الباب، حذقت فيهما سوس للحصه.

خذ يوسف بحذق في تلك سقوش المسحونة في حشد النواة أمامه لتؤكد له ذكرته أبه اسقوش ذاتها التي يحملها مفتاحا، ولتي تكفبت وحده دكتور محدي شرحمتها له اسقوش ديب التي رفعت إليها سوس

عين جامدتين لتقرأها وكأنما اكتسبت القدرة على قراءة هذه اللعة وجيء
«اثنان سيحملان المفتاحين أحدهما سيهلك. والآخر سيعيش في
عذاب بلا نهاية»

أخرجت مفتاحها من حبيها، قبل أن ينظر محمود إلى يوسف لئلا
قاوم سيل الذكريات في رأسه، ليخرج مفتاحه هو الآخر وليتدل الأثنان
بنظرات صامتة طويلة حملت السؤال السابق ذاته هل سيجعل

أجابته هي عن السؤال بالامتثال في عينيها، وأجاب هو عنه ببراءة
رأس لا تعني شيئاً، قبل أن يدس مفتاحه في الرزح الأول، لتدق سوس
مفتاحها في الآخر وليدير الأثنان مفتاحيهما في اللحظة ذاتها.. هذا توهج
لقدنا المرر الأماميتين بقوة، ثم انغصص الباب العملاق أمامهما قبل
يسمح لهما وسطاء وبصرير استكروه صمت العذبة الصبية من حولهما. قد
لهما أشبه شهيدة رصية. لقد سمح لهما المرر بالندحول

ومن دون أن يتبادلا المريد من الصمت أو البصرات.. دحلا إلى المرر
ليستلحهما صلامه.

مجرد أن خط يوسف وسوس إلى داخل المرر، ومجرد أن
خترأهما الظلام في الداخل، تحركت اللواعة من دون أن تمسها يد
شعير وتعر لهما تماماً عن لعالم الخارجي، فلم تتماثلك سوس نفسها
وتنصت وقد أدركت عنى الفور أنهما أصبحا سحيبي هذا المرر، وأن
حقيقة بني عبيهما تقلها الآن هي أنهما قد لا يخرجان من هذا أبداً.

هذا وعد نهاية لعنة ستكون بهيتهما ولن يعثر أحد عليهما - أو عنى
مستغنى منهما - وهي نهاية سبق لكل ما حدث لهما حتى الآن حقاً أم
سيف وأصوته الموحده من حديد وقد فقد رؤيته مع الظلام، سيجد أنه يقف
معدوماً في صمت حبه عنى يمكن، ثم بعد له أي ذكرى من ذكريات حياته.

هذا الصمت يختلف

في أي مرة سابقة خيم الصمت عليه كانت هناك أصوات موحدة،
حتى وإن لم يدركها عقله.. أصوات خافتة أو أصوات بعيدة، لكن هذه
لحظة كان الصمت مصفاً كالظلام لئلا يحاط من كل اتجاه، وكان دوي
في أذنيه مؤلماً بحق.

لكنه وعلى الرغم من الصمت والظلام شعر بوجود ثالث معهم.
ليؤكد له سوء حظه في رأسه.

- إنه هنا. الشيء هنا.

ثم سطعت أول لوحة في حدران الممر أمامهما وكأنها ولدت من
العدم. تدت لهما لوحة على الحدار ليحدث ضوءها انبعاث أعينهم على
الفور، وليحدث فيها مشهداً متحركاً للوحة التي التقى فيها يوسف سوس
مرة أمام كليتها. تدت اللوحة لتي كان قد انحد فيها فراره بسبب قصة
محمدي كلها، قبل أن نحبره سوس على مواصلة حين أحترته بأن الله - ندي
هو ليس الله - لا يزال حياً، وأن عينيهم انثور عنيه قبل فوات الأول

في اللوحة حديق يوسف داهلاً ليحدث يوسف آخر لم يعد يمت به نصه
يوسف الذي لم يحل جسده إلى هذا الحد، ولم يفقد نصف جسده،
والذي كان حليفاً يعاني من وحدته وسوء حظه ومن عمله في محنة سمها
«المحلة» لا أكثر. يوسف الذي كان بإمكانه أن يحول لو لم يتبع سوس
يومها إلى ذلك الكافي القريب من كليتها، ليدخل إلى عالم الشيء رعد
عه وليبدأ معه لبعته

وسوس أيضاً أحدث تحديق في اللوحة داهية، وقد أعادت لها اللوحة
بعضاً من ذكريات ما قبل موت سامح وحنون والديها، لكنها - والآه -
محتها حقيقة هذا الممر الذي اتلعهما بين حدران وصلامه

به الممر ذاته الذي أحدها إليه شيء سابق ليحبرها بقواعد لبعته.
والذي رأت فيه اللوحات التي تحكي قصتها الممر الذي محب فيه
خيارها الوحيد الذي عجزت عن تعيده حتى الآن.

ثم سطعت اللوحة الثانية على الحدار، وفيها رأى يوسف وسوس
نسيهما في اللحظة التي جلسا فيها في الكافي القريب من كليتها حين
نحبرها يوسف بأن أستاذها قد مات، وأنه الآن يصدق لكنه لا يعرف ما عليه
فعنه، وقد أحدث سوس في اللوحة تلتفت حولها، وكأنها تبحث عن شيء
نصح يوسف يعرف أنه موجود.. يوسف يذكر هذه اللحظة جيداً، ويذكر
قائمة الكتب التي منحها سوس له يومها، ويذكر اسم كل كتاب كان في
هذه القائمة. ويذكر اتساعها يومها إذ قالت:

- لكنه الواقع يا عزيزي وعلى أرض الواقع قد يموت النطل

ولكنه كانت مُحقة!

نكه لأن يذكر أيضاً أنه كان هنا. لقد أحده الشيء إلى هنا وأحبره
بأن اللعنة مستمرة، وأن عليه أن يستعد، قبل أن ينفذ إلى رمن «فلاد».. به
يذكر أنه رأى بهيته في هذا الرمن في إحدى لوحات الممر.. ويذكر أنه
رأى لوحة المرأة. ويذكر كيف بحث عنها طويلاً قبل أن يوجهها ليعرف -
وبعد فوات لأوان - أنها «إيراث باثوري».. إنه يذكر أن...

ثم سطعت اللوحة الثالثة، وفيها وجدت سوس نفسها تحتم على
صدر يوسف في سارته، تقبض على السكين الذي قتل به الدكتور ليلى،
وعمره في عنقه محاولة أن تنفذ والديها من مصيرهما، ودموعها تسيل
على وجهها. تدت للوحة التي كان من الممكن أنها أن ينتهي دورها
في هذه القصة، لولا أنها تراحت ليتدخل عصام وليصحبها برصاصته
في رأسها

كان عذب أن تقتل يوسف يومها كان عليها ألا تراجع، وهذا هو

الآن يقف إلى جوارها يتمنى لو كانت فعلتها لتقذه من كل ما حدث له بعدها.

ثم سطعت اللوحة الرابعة.. والخامسة.. والسادسة.. والسابعة.

ثم سطعت مئات اللوحات من حولهما دفعة واحدة ليحد يوسف وسوسن نفسيهما يحدقان في مئات الأشخاص من مختلف الأرمه في أسوأ لحظات حياتهم. أشخاص لا يعي وجودهم في هذه اللوحات لا أنهم كانوا مثلهم. صحاب لعبة شيء على مر العصور، وبينهم الأ...

لا بد أنهم خسروا اللعبة ودفعوا الثمن!

ومع سطوع اللوحات أعرقهما الضوء الساطع للحظات فقد في القدرة على الاستيعاب، قبل أن تظلم اللوحات كلها فجأة، ليسود الصلاه من جديد ولينعالي الصوت العايب يقول:

- مرحبًا بكما في منزلي.

فانتفض الاثنان والتفتا إلى مصدر الصوت على الفور ليسفسيهما الظلام، وقد توهجت فيه هينان صغيرتان تصاعد الصوت العذب من أسفلهما:

- ها نحن نلتقي وللمرة الأخيرة.. فالليلة...

ثم من الظلام تَدَّى لهما طفل صغير لم يتجاوز العاشرة من عمره، ذو شعر أسود فاحم وعينين لا تشي نظراتهما بسنه وقد لاح فيهما العتد الذي حرق في صوته، إذ قال - سيتهي كل شيء.

ثم وقف اطفال - الذي هو لبس طفلًا - أمهم، ليسود الصمت المطلق من حديد وقد اختلط بالرهبة والبرودة.

ها - وعند نهاية العالم.. وفي منزله.. وقف الثلاثة وقد رددت نظراتهم صدمة الحقيقة دنها.

بها لمواجها الأخيرة

أحدهم سيبقى.

والثاني سيهلك.

والثالث سيعيش في عذاب بلا نهاية.

وعلى شفتي طفل ترافقت نسمة لم تتحتمها سوسن طويلاً، لشعر مهتمة جدران الصمت التي أحاطت بهم:

- ما الذي تريده منا؟

- بل ما الذي تريدانه مني؟ إنها فرصتكما الأخيرة لتعرف كل شيء.

قالها الشيء ثم التفت إلى يوسف مبتسمًا، ليردف:

- يحسبك أن نتحدث هنا بغيري.. لقد أعدت لك صوتك.. مؤقتًا.

تردد يوسف قبل أن يحاول الصق كأيها أول مرة له، ليخرج صوته منه خشبًا عريثًا على أذنيه بعد طول غيب

- ل... لمأدا؟

ها تلاشت انتسامة الطفل من على وجهه ليحل المقت محلها، قبل أن يجيب بصوت فقد نرته العايب:

- لآسي مثلث يا يوسف. لآسي سئين الحظ.. أنت تعرف آسي جنت إليكم من عالم آخر.. لكنك لم تعرف الحقيقة كاملة بعد. أمصه لم تبدأ بوصولي إلى هنا، بل بدأت قبلها بكثير.. بكثير جدًا

ومع كلماته أحد حسد الفصل أمامهما يدوب في السلام الذي أشد كثافته من حول يوسف وسوسن، حتى شعرا به ينقض عليهما فحاة، في أن يفقدا شعورهما بالأرض من أسفلهما ليبدأ رحلة السقوط.

وهذه المرأة لم يصرخا ولم يحاولا الصراخ حتى.. لقد كان يعرف ما يحدث لهما، فهي لم تكن مرثتهما الأولى لكنها كانت الأخيرة



ضرب المعجوز عصاه في الأرض فرددت الجبال الصدى صاعرة

كان هذا أول ما رآه يوسف حين فتح عينه ليجد سوسن بجواره والحد تحيط بهما من الجانبين، وقد امتد أمامهما ممر ضيق سار فيه عجور، وقد أولاهم ظهره، وهو يصرب الأرض بعصاه، من دون أن ينتمت إليهما وكأنه لا يشعر بوجودهما على الإطلاق. أو كأنه لا يبالي بوجودهما

على الفور اعتدل يوسف جالسًا ليجد أنه احتفظ بجسده ولأول مرة ينتقل فيها إلى زمن بعيد، وأن سوسن أيضًا احتفظت بجسدها وبذعرها، وقد أحدث ترمق الحال من حولها محاولة تعرف المكان الذي تنقل به

إنها تعرف أنه المصبي المصبي السحيق وثقت بدقة، ولو كان يوسف قد زر من امرأة آسي استحصرت آسي في عذمتها أول مرة، فهذا الممر الذي بلغه الآن سبق من المرأة يسفه بكثير حدًا كما أحبرهما آسي.. لكن

أين هما؟

المشهد من حولهما كان ساكنًا لا يتحرك فيه إلا المعجوز وعصاه والمعجوز كان صحنًا، تمتد قامته لتتحور الأمتار الثلاثة، ويمتد شعره وشعر لحيته ليبلغا منتصف ظهره وصدره.. عصاه بمفردها كانت أطول منهما، وكانت تدق الأرض الصخرية من أسفلها لتردد الجبال الصدى كأنه تعرض الوحيد لوجودها هذا أن تحجب العالم عنهما وأن تردد صدى صاعرة.

وكتب اللهفة بادية في خطوات المعجوز المسرعة المتسعة، فهب يوسف وبقا على الفور، فيقول بصوته الذي أعده به الشيء مؤقتًا:

- يجب أن تتبعه.

ثم ساعد سوسن التي لم تعرض على قوله على الوقوف، قبل أن يحث لحظي ليشعرا معجور وعصاه بأقصى ما استطاعه من سرعة، وقد أعلن معرفتهما أنه حيرهما لوحيد لا يوجد سوى المعجوز والممر وسط الجبال، فإلى أين سيذهبان إذن؟

هكذا أسرع وراء المعجوز الذي واصل طريقه وقد أحدث الريح في جمر تقويمه، من دون أن يحد من سرعته، وقد أخذ يواصل صرب الأرض بعصاه، وفي كل مرة يتعالى الصوت والصدى، قبل أن يصم إليهما لهاث يوسف وسوسن اللذين تحولت حصواتهما إلى عذو حقيقي حولًا به مواكبة خطوات المعجوز العملاقة.

به المصبي.. بهم وسط حد في مكان ما على أرض.. سيكتفیان بهن الحقيقين وسبق السؤال لثالث يداعب محبتهم وهو من هذا المعجوز؟

جسده الضخم لا يعلن إلا عن أنه ينتمي إلى هذا الزمن، فالتاريخ يؤكد أنها كانت صحراً أشداء، قبل أن تحدر الحلات بفضل الحضارة الإنسانية لاحقاً.. ملابسه التي فقدت لونها لا تكشف إلا عن طول رحلته ومشغلي بكل الغبار والأتربة البادية على كل خيط في ردائه.. وعصاه التي يدق بها الأرض أكدت لهما حقيقة أن الممر يرتفع بهما وسط الحما، وهذا هو بحثهما، ولهدما يلهذان مع المجهود وقصر الأكسجين لكن من هو؟ سؤال سيضطرا إلى تحاوزه قبل أن يلفظ لهما سؤال: إلى أين هم داهيون؟، فإمامهم الآن أن يحقوا به على أمل أن تمسحهما رحلتهم لأحياء هذه الإحاث التي انتظرها طويلاً إنه حقهما بركات سيهلكا!

فقط كان السؤال الأخير الذي وجد طريقه إلى عقل يوسف لينحدره بإرادته هو: أين الشيء؟

لقد كان موجوداً في كل زمن أخذه إليه، وكان يشعر به في كل مرة لكنه.. لكنه ليس هنا وهو واثق بهذا.

لأول مرة ومدد من بعيد يشعر يوسف بغيابه، والعجيب أن هذا الشعور لم يُثر في جسده إلا قشعريرة عامصة وكأنه يستعرب العالم في عدم وجود الشيء أو.. كأنه يفتقده!

لكنه احتفظ بمحاطره هذه لنفسه، ليواصل طريقه مع سوسن في مسند بها حماس دراسة التاريخ القديم، ليمنحها الطاقة اللازمة لتفادي إجهادها ولتبحث الخطى وراء العجور، الذي لم يبدُ عليه أنه شعر بوجودهما حتى الآن فقط واصل طريقه وضرب الأرض بعصاه، وفي كل مرة أحدث الحبال تردد الصدى، وكأنها كالعجور لا تنالي بوجودهما

وفي السماء أخذت الشمس الغاربة تسابقهم إلى نهاية الممر، حتى يبعوه أخيراً - وقبل أن يفقد يوسف وسوسن قدرتيهما على المواصلة سحست - ليحدا أن العجور توقف أمام قصر لم تر له سوسن مثيلاً، وأنه تفرا عن واحد يمثله في أي من كتب التاريخ التي ألفت فيها عمرها.

قصر هائل الصحن، دوقلة لامعة عكست ضوء الشمس العارية نصبيء المكان من حولها بدون أحمر متوهج، مترج سحومة من ورقة نسمة من حوله، وقد احتلت بوبة عملاقة مدحده، ليقف لعجور أمامها مدناً، وليرفع رأسه إلى السماء كأنه يملأها عيبه للمرة الأخيرة، قبل أن يدق الأرض بعصاه بقوة، سفتح البوابة بعملاقه أمامه سامحة به بالدخول، يعب داخل القصر تاركاً البوابة مفتوحة من ورائه تنتظر يوسف وسوسن سدين تدلان نظرة صامتة.. وبمزيج من الرهبة والتردد تساءلت سوسن:

- ما الذي يتظرنا في الداخل؟

فأجابها يوسف بثقة:

- الحقيقة.

ثم تبع العجور إلى داخل القصر لتلحق به سوسن بعد أن رفعت رأسها إلى السماء لتملأ عيبيها بها.

كأنهم مرّنها الأخيرة

* * *

وفي داخل القصر وقف العجور مستنداً إلى عصاه يرمق الصلام الذي أحاط به متصراً

ومن ورائه تقدم يوسف وسوسن بحذر وإن تعالت أصوات خطواتهم مع اتساع المكان على نحو أكد لهما أن العجوز لا يشعر بهما حقًا. من المستحيل ألا يكون قد شعر بهما حتى الآن وقد أصبح على بُعد خطوات منه، وهذه الحقيقة استوعبها يوسف أولاً، ليصيف إليها حقيقة أنهما يحتفظان بحسديهما في هذا الرمن وحقيقة عدم وجود الشيء به، ليكون الناتج النهائي أمامه هو أنهما هما ليس هذا لا أكثر.

لا توجد لعبة.. لا يوجد خباز. ولن يدفع الثمن قطعة من حسده كد كان يحدث في كل مرة.

هذه المرة هما لم ليحصل على الحقيقة فحسب

لهذا لم يشعر بهما العجوز، ولهذا لم يبدُ عليه أنه رأهما حين انتفت إليهما أخيرًا بوجه قُد من التحديد والتوتر، ليرفع صوته ماديًا مدعة له يسمعا لها مثيلًا وإن فهماها على الفور:

.. لقد اتخذنا قرارنا.

فرددت جدران القصر المخاوي صوته حتى ملاء، قبل أن يُباح يوسف وسوسن بالطلام الذي كان يربص في أركان القصر يتحرك مستحيًا للبدء. ككيان مادي لا بداية له ولا نهاية تحركت كتل لطلاء من كل اتجاه لتتجمع أمام العجوز مباشرة، ولتشكل فيما يشبه وجهًا هائلًا لا ملامح له، وإن توهجت فيه عيان حدقتا في العجوز مباشرة كيان أدرك يوسف وسوسن على الفور أنه ليس الشيء، ولكنه ينمي به بصورة أو بأخرى كيان يعلن وبصرامة عن أن الشيء الذي يعرفه لم يكن الوحيد، بل إن هناك آخرين

ومن الوجه تعالى صوت لا ينتمي إلى عالمنا أجاب وبالله ذاتها: .. وما هو القرار؟

كد الوجه بمائل قمة العجوز طولًا وإن لم يستقر على حسد، وأمامه رتحف العجوز بخوف مرر ليقول: .. يجب أن نرحبوا.

قلها فنصب عف توهج العيين في الوجه المظلم أمامه، ليتعالى الصوت الرهيب غاضبًا هذه المرة:

.. هذا لن يكون.

ورتحفت جدران القصر دته مترفة رد لعجوز الذي تردد قبل أن يقول: .. بل هو قرارنا الأخير.. هذه الأرض لن تنسج لنا ولكم.. وما نحن.. وإما أنتم.

فجاء الرد في هيئة صرخة أطارت حصلات شعره وزادتها شيئًا: .. إذن نحن.

ثم فقد الوجه أمام العجوز هيئته وإن ظلت العيان المتوهجتا تُطلان من كتلة الصلام التي أخذت تنتشر في المكان، ليواصل الصوت وبالغضب ذاته ندي ارتجف له العجوز:

بعد كل ما تعتموه من تطائون بالرحيل. بعد كل ما فعلناه من أجلكم، وبعد أن عمدناكم طقوس السحر، ومحاكم بقوة تجرفون على رقص وحود. أنفقوا أنكم قدروا على الموصنة بمعدركم؟

فلن يُجب العجوز، بل أغمض عينيه محاولاً التماسك وتجاهل كثر
الظلام التي بدأت تحيط بجسده، والتي تعالى منها الصوت يقول

- لن نرحل ولن نستطيعوا إجبارنا على الرحيل.. سنبقى.. ونؤثر
الأمر فستقضي عليكم جميعاً.

ومن حول العجوز، ومن كتل الظلام التي بدأت اعتصار جسده، أحدث
أعين أخرى في التوهج محدقة فيه وتدعص دته آلاف لأعين وبدت
من الظلام فحاة وأحدث في التوهج صامتة، ليتعالى الصوت مرة أخرى
حاملة سره عث انتفض لها يوسف وسوس، قتلاً

- وهذا هو قرارنا الأخير

هنا فتح العجوز عبيه ليحبب بهدوء استكرته الأعين المتوهجة من
حوله وأصاب يوسف وسوس بالحيرة:

- وماذا لو أغلقت الثغرة بين عالمينا؟

ثم ابتسم مردفاً:

- حينها سيكون عليكم الاختيار بين البقاء هنا إلى الأبد أو العودة إلى
عالمكم بلا رجعة.. وحينها.. ستدفعون ثمن هذا الاختيار.

ولسبب ما بدا هذا المشهد مألوفاً ليوسف وسوس اللذين لم يخطئ
بحرف، سامحين للصوت الهادر بأن يتعالى صائحاً وقد فقد نبرة العث فيه
- لن نرحل.

- لا.. سأفعل لو لزم الأمر. إنني أملك طقوس التحكم في الثغرة
وأعرف ما سيحدث لكم لو سُحِتم ها.

وطبق صمت ثقيل على مكنون أخذت آلاف الأعين المتوهجة في
دور حول العجوز الذي تحفظها ليواصل لتحديق شت في العينين السنين
فترت منه سطر، وقد أخذ الوجه يتشكل أمامه من حديد، ليقول في النهاية
- لو رحلنا فمساء خذ معك كل ما منحناه لكم.. ستبدأون رحلة الانحدار
وسينتهي بكم المحال تواجدون الفناء لأنكم لا تستحقون سواه
- سنخاطر.

- لن نستطيع إغلاق الثغرة إلى الأبد.. الحواجر بين عالمينا ستبقى
ثابتة وستسمح لنا بالصور من جديد.

- لن يستدعيكم أحد منا ولن تتمكنوا من العودة أبداً.

- بل مستدعوننا نحن أعمى بكم أيها الأحق. سنعود.. وحينها..
ستكون نهايتكم.

ومن حول العجوز أحد الظلام ينشر ويتماوح ويستفض لتوهج فيه
لمريد من الأعين، لكن العجوز ضرب الأرض بعصاه معلناً بنهية، قائلاً.
- لن نسمح لكم بالعودة أبداً.

ثم بدأ العجوز في ترديد طقوس لم يسمع لها يوسف مثيلاً، وإن ميز
على العور أنها ليست طقوس الاستدعاء التي رددتها المرأة في العدة أو
لني ردها «ولادة» قبل أن يمسح جسده لشيء طقوس انتفضت لها الأعين
في الظلام، وتصدعت لها حدران القصر مذررة بالسقوط عني رأسه، لكنه
واصل ترديدها بإصرار، لتتعالى صرخة لشيء أمامه هادرة تكاد تطيح به،
ويتراقص لها الأمل في صدر يوسف وسوس و.. و..

ولكنهما لم يجدا الوقت الكافي ليُصغيا إلى الطقوس كاملة

من حولهما تعاظم الظلام فجأة كأنه يعلن لهما نهاية وجودهم في هذا الزمن، قبل أن تتلاشى الأرض من أسفل أقدامهما فجأة، ليبدأ رحلة السقوط، قبل أن يحصل على وسيلة خلاصهما كاملة.

وهذه المرة صرخ يوسف بكل ذرة في جسده.. لكنها كانت صرخة غصبا

* * *

فتح يوسف عيبيه ليحدد أنه برقد في ذلك الوادي لبارد وصرحت لارن تتردد في أذنيه.

هت واقفاً على الفور ليحدد أن سوسن م رالت بحواره، لكن العجور و لقصر وكل اللاعبين المتوهجة تلاشت، ليحل محبتهم ذلك الوادي مصد الذي تتلأل من فوقه ملايين للحوم في سماء رائقة لا تدلي بكر ما يحدث من أسفلها.. تلفت يوسف حوله باحثاً عن الأمل فلم يجده، ليصرح من حديد عاصم وقد أدرك أنهما فقد فرصتهم الأخيرة للقضاء على الشيء قبل أن تسرع له سوسن لتقاطعه صائحة:

- يوسف.. إيهما هما

فتوقف يوسف عن لصراخ لاهثاً ليستمع إلى صوت تعالى من وراء الأشجار القريبة منهم، اختلطت فيه الكلمات بصوت أعصاب تحترق، ليتبدل نظرة سريعة مع سوسن قبل أن يسرع الاثنان إلى مصدر الصوت وقد امتزج الأمل في صدريهما باليأس.

من يدري؟ ربما لم ينتهِ الأمر بعد.

لكن رحلتهم القصيرة انتهت بهما إلى حيث تجمع عدد من الرجال يمشون العجور ضحمة، وقد تجمعوا حول جثته التي رقدت ساكنة على أرض الوادي بحوار حفرة من الأعصاب التي أحدثت تحترق لتضيء المكان من حولها، وقد أظلت من ملامح العجور سكببة لم تجد طريقها إلى نفس يوسف أبداً.. وأمام الجنة أعلن أول الرجال:

- لقد رحلوا أخيراً.

فأشار النسي إلى العجور، ليقول:

- لكنه دفع الثمن.

- لقد كان يعرف أن هذا ما سيحدث المهم أنه فعلها وقبل هوات الأوان

ليستاءل الثالث:

- لكن.. هل انتهى الأمر حقاً عند هذا الحد؟

- لقد أغلقت الثغرة بين عالمتنا وعالمهم.

- لكنها ستُفتح من جديد نحن نعرف هذا ونعرف ما قد يحدث من حرب أحدهم طقوس استدعائهم.

فتعالى صوت الأول مقررًا:

- لهذا يجب أن نقصي على هذه لطقوس. من دونها لن يتمكن أحدهم من العودة أبداً.

يتبادل الرجال النظرات الصامتة، ويتهاوى يوسف على ركبتيه قريباً
وقد تصاعدت غصة مريرة في حلقه، وتقول سوسن وبذات الحرارة

- لكن أحدهم سيعود

فلم يسمعها الرجل وإن أعين أحدهم

- سقضي على الطقوس إذن وستكون نهاية وجودهم في عالم
الليدة.. والآن.

ثم مدَّ الرجل يده ليلتقط غصناً مشتعلًا من كومة الأغصان وليبني
بظرة وداع على العجوز، قبل أن يقول:

- وهذا هو قرارنا الأخير.

وببساطة ألقى بالغصن المشتعل على جثة العجوز لتشبَّ النار في
ملابسه وليتحول جسده الراقد أمامهم إلى كتلة من النيران أخذت تنعني
وتراقص باستمتاع ساخر.. كأنها تعرف أ

ثم أحاط الظلام بيوسف وسوسن فجأة لتتلاشى الأرض من أسفل
أقدامهما.

* * *

وهذه المرأة وجدنا نفسيهما فجأة في منزل صغير، بدا فيه كل شيء يشبه
ما يعرفانه في زمانهما.

كان هناك ما يشبه المدفأة، وفيها تراقصت النيران لتنتشر بعض الدفء
على ما بدا أنه يشبه منزلاً صُنع من الخشب والحجارة، وقد استقر قريتهما
ما يشبه المقعد وقد جلس عليه رجل أولاهما ظهره، يكتب على ما يشبه

الورق بتركيز شديد من دون أن يشعر بهما ومن دون أن يتوقف عن الكتابة
ولو للحظة.

جلس يوسف من دون رعة حقيقية في لوقوف محتفصاً بيأسه لنفسه،
لنكتب سوسن بظء ولينحه إلى الرجل المبهمة في أوراقه وقد توقعت
ما ستكون في نظارها لسبب ما، فلم يحثَّ الرجل توقعها لقد كان أحد
من كانوا في النوادي وكان ما يكسه بليلة التي لم تتعرفها سوسن - وإن
فهمتها - هو ملخص كامل لكل ما حدث في تلك الليلة.

لماذا كان يكتبه؟ لتاريخ

كان يكتب بتنت الددة العاصفة التي تعرفها سوسن والتي عدت منها
صويلاً لدة أن ما سترويه سيقى لدة أنت نحت التاريخ بيديك لتقرأه
الأحيل العاصفة لعلها تنعط أو تتفكر. لدة أن تحكي التاريخ.. لا كما
حدث.. بل كما ستذكره أنت.

ومن دون أن يتحرك يوسف من مكانه، ومن دون أن يبقى ولو بظرة
واحدة على الأوراق، قال:

- إنه يكتب الطقوس.. أليس كذلك؟

فأجابته الصدمة في عيني سوسن بالإيجاب.

لكم لم يبال، ولم ترده إحسانها إلا يأت، على الرغم من أنه كان يشق بأن
هدام يحدث فعلاً.. أحدهم سيكتب لطقوس لتقى وليأتي من يستخدمها
لاحقاً ليعيد الشيء إلى عالمهم.. هذا ما حدث وهذا ما «يحدث» الآن
أمام عينه من دون أن يملك إيقافه أو الاعتراض عليه حتى.

- يوسف.. يجب أن نمنعه!

قالت سوسن وكأنهما يمكن أن طريقة لمنع الرجل من كتابة نهيم،
فأجابها يوسف بانسامة تشبه النكاء، ثم أشاح بوجهه عنها ينتظر الرحيل،
فلم يطل انتظاره.

من حوله تعظم الظلام بهدوء فأعلق يوسف عينيه وترك الأرض
تتلاشى من أسفله



وعلى الشاطئ أحدثت تلك الفتاة الصغيرة تدهو غير عاتية بكرم يحميه
لها الزمن من محن وأحزان.

كانت ترتدي ما خفف من الثياب وقد تغطى جسدها برمال الشاطئ،
وعلى مسافة منها كان أبوها يجلس يتفحص بقايا ورقة متآكلة مسحتها له
مياه البحر، وعلى مسافة منهم اعتدلت سوسن أولاً حلسة تاركة يوسف
يرقد بحوارها مستريحاً برص لم يشعر به من قبل وهو الذي لم يرر الشاطئ
في حياته قط

وعلى الرغم من أن سوسن لم تتعرف الزمن الذي انتقلا إليه هذه المرة،
فمن يوسف أدرك أنهم قفروا إلى المستقبل الذي يطل بالنسبة إليهما حرة
من ماضٍ سعيد يحمل لهما ما تبقى من القصة والحقيقة.. كيف عرف
هذا؟ إنها الحبرة التي لا يمكنها إلا من تنقل عبر الزمن أكثر من اللازم،
وهو قد أصبح خبيراً في هذا المجال!

كانت الشمس تتوسط منتصف السماء هذه المرة، تبعث الدفء والهدوء
إلى الوحود، فلم تستقل سوسن أيًا منهما، بل تحامت على يوسف لتقف

تأمن لمشهد من حولها، قبل أن تنحني إلى الرجل وورقة المتآكلة بين يديه،
وقد مسحها المنطق الذي خاضعها طويلاً حقيقة تلك الورقة من قبل أن
ترها.. بها تحوي الطقوس التي كتبها الرجل للتاريخ وللأجيال القادمة،
وما هي تبلى يدي من سيستخدمها لاستدعاء الشيء إلى عالم لاحقاً.
كتب، تنقلت الورقة من منزل من كتبها إلى البحر ثم إلى يدي والد تلك
طفلة؟ إنه حسن الدعاية الذي يمكنه التاريخ والذي قرأت عنه كثيراً،
وما هي الآن تشاهده بعينها حقيقة دفعت ثمنها في زمنها.

لكن تلك الطفلة كان عازراً عن قراءة الطقوس التي كتبت بدعة لم يعد
نهاراً وحود في رمة.. مستكماً لا لحسن الدعاية لا أكثر.. وحسب انضم يوسف
إليها بجوار الرجل الذي لم يشعر بهما، قالت:

- هكذا سيبدأ الأمر إذن.. لكنه لا يستطيع قراءة الطقوس.

فأجابها يوسف بيقين من يعرف ما سيحدث تماماً:

- لكنه سيفقد الورقة لمن يستطيع قراءتها.. وحسبها..

ولم يكمل، وكأنه يحس أن يمسد الدعاية التي هم بطلاها.. فقط قرر
تجاهل الرجل والطقوس بين يديه وأرسل بطرائه إلى لطعة التي أحدثت
تدهو بالقرب منهم، ليستسه ولينذكر طفولته.. وعدته أمه يوماً ما بأن تأخذه
إلى الشاطئ، لكنها لم تف بوعده قط.. الموت داهمها أولاً ليأخذها هي
إلى شاطئ الرحيل وليتركه هو على بر الحياة القاسية.

علافته بالبحر تحولت إلى علاقة بصور له يطالعها كلما شتاق إليه،
وأمنية ها هو الشيء يحققها له وبعد كل هذه السنوات

لكن الطفلة بدأت في العناء فحاة وأحمل صوت سمعه يوسف

في حياته فانتفض، وقد أكدت له ذاكرته المخارقة أنه سمع تلك الأغنية وبالصوت الساحر ذاته من قبل.. ثم منحته ذكرياته المأخوذة في عنقه ليساعده على التذكر أسرع.

نعم.. لقد سمع هذه الأغنية وبهذا الصوت.. سمعها حين كان في الغابة ينزف من عنق أول جسد احتله في أول فصل من فصول "عند الشيء".. لقد كانت المرأة في الغابة هي من تغني ليلتها لتستدرجه إلى حيث استحضرت الشيء في جسد زوجها.. إن هذه الفتاة التي تنهر أمامه الآن هي ذاتها للمرأة في العادة، ولكنها الآن لا تزال طفلة لا تدرك أي كارثة مستتبع فيها لاحقاً!

ومع الصوت الساحر انتفض جسد يوسف ثانية، فساءلت سوسنة: فهمت ما تعنيه انتفاضته:

- يوسف.. ما الذي عرفته؟

فلم يجنبا يوسف، ولم تعد ساقه قادرين على حمله فتهاوى على ركبتيه على رمال الشاطئ، لتداهمه رغبة عارمة في الصبحك فحاة، فاستسلم لها للدوي صبحكته في المكان تحمل حواء قومه طويلاً حتى فقد قدرته على المقاومة.

إنها المرأة في العدة.

إنها المرأة في العدة.

إنها المرأة في الغابة.

هكذا تجتمع القطع كلها لتشكل الصورة النهائية، لكن سوسنة عاخرة

عن رؤيتها مثله، فهي لم تحصى ما حاصه هو، ولم تدفع لثمن عاك من حسده.. إنها لم تفهم بعد لكنها ستفهم.. متأخرة جداً ستفهم.

بحواره يجلس لرحل يحاول قراءة الطقوس، وأمامهم تلهو لطفلة غير عاثة بكل ما سيحدث لاحقاً وهي لا تعرف.. ثم تعظم لظلام من حولهما فحاة و..

فان الدكتور مجدي سرقة رجل لم يعد يملك سوى لحدود و لدهون.
- لماذا قتلتها؟

كان يجلس في غرفة مكنته المظلمة مكتفياً بصوت القمر الذي تسدل غرابه ليريد شحون، وكانت عبيد شردنين وكأنا وجهه سؤل له لدمر ع المظلم أمامه.. لكن الصوت العاثر تصاعد ليحجب:

- أنت تعرف لماذا؟

ثم مال الطفل عليه ليدخل وجهه دائرة لصوت، وليردف

- لاسي لم أعد في حاجة إليها

كان يوسف يرقد في ظلام العرفة أمامهما وحواره سوسنة التي أدركت على الفور عثر يتحدث الدكتور مجدي: اعتدلا حالسين من دون أن يحاولا التدخل، تاركين الدكتور مجدي بواصل.

- لكنها.. لكنها لم تفعل شيئاً.

فيستسم الطفل أمامه ولا يحجب.. وتحدد الحقيقة لثبية طريقها إلى عقل

سوس لتأخذ في استيعابها ببطء . إنها الآن تنظر إلى الدكتور مجدي ، وبعد أن انتفضه للمرة لأخيرة . المطرقة على الطاولة أمامه أحرقتها بأنها اسلحة التي سيحاول فيها قتل الشيء ، لكن الحوار الذي دار بينه وبين الشيء كان أهم من هذه المحاولة التي انتهت بفشله فسحبه وموته بعد أن استبعد الشيء حاجته منه . الحوار الذي استكمّله الشيء في حشد الطفل قتلًا

- ألم تكن هي من بدأت كل شيء؟

فيحيب الدكتور مجدي مدافعًا عنها

- لم تكن تعرف الذي ...

- كاذب .

قاطعه الشيء بصرامة انتلع معها الدكتور مجدي ما تبقى من كلمته بمرارة وصمت ، ليواصل الشيء :

- لقد كنت تعرف الحقيقة ، لقد رأيت كل شيء في أحلامها . رأيت كيف طردنا قومك من عالمكم ورأت كيف عدت أنا بعدها مرصداً . رأيت كيف أصبح علي أن أحوص القرون وحيداً لا أستطيع الاكتمال ولا أستطيع العودة . لقد كانت تعرف كل شيء ، ومن أجلها بحثت أنت عني ... أليس كذلك؟

فتصاعد صوت الدكتور مجدي متخاذلاً هذه المرة ، ليقول :

- لقد ... لقد كنت أحاول إعادتك .

- بل كنت تحاول القضاء عليّ .. لكن .. كيف كنت ستفعلها؟

فاستعاد الدكتور مجدي صمته المريب ، وفي المكان تصاعدت رثعة

ما سيحدث بعد قليل . دانت الرائحة التي اشتتها عصام ويوسف والتي لا نعى . لا أن الموت قريب . ثم عاد الوجه الطعولي إلى الطلام ليخفيه عن الأعين ، وليتغاضى لصوت لعاث :

- هل قررت سندال طفوس القصة عني تلك المطرقة؟

ونقلت عينا الدكتور مجدي إلى المطرقة ثم إلى الطلام الراسع أمامه ، ليحيب :

- وهل توحد طفوس لنقصاء عبيث؟

هنا حنق قلب سوس ويوسف لهمة منتظرين إحادة الشيء ، لتأتيهم أخيراً

- أنت تعرف أنه لا وجود لها

لتهوي إجابة الشيء عليهما كالصفعة . وفي أعماق يوسف وسوس تهشم أمل كانا يظنان أنهما فقداه منذ زمن طويل .

- لقد كنت أن من شر هذه الكدنة لبحث الجميع عنها وليحدوا طفوس استدعائي بدلاً منها هكذا صمت البقاء بفصل كل أحرق ردها على مَرَّ التريخ قديماً كنت أقنعكم بأنها طفوس تصيح الحلود لكن لكل زمن كذبه المفضلة .

فهرّ الدكتور مجدي رأسه بينهم قبل أن يحرص صوته متوسلاً ، ليقول :

- سوسن .. أرجوك لا تؤذيها!

فرد صمت ثقل على المكان واحتشدت دموع لامتناه في عيني سوسن ، قبل أن يجيب الشيء :

- سيأتي دورها لاحقاً.. وسنستمتع معاً.. أعدك بهذا.. لكن ليس ليلة

ثم في اللحظة التالية تعالى صوت الشيء بجوار باب الغرفة، وقد
نضاعت نبرة العبث فيه:

- سأكون في انتظارك.

وأمام عيني يوسف وسوسن خرج ابن الدكتور مجدي.. الذي هو ليس
بشيء من العرفه، يُطرق الأول رأسه في يأس دام لدقائق طويلة، قبل أن
يقصص على المطرقة الثقيلة، ليعادر مكنه سطر وينبع الشيء إلى حيث
سيحاول وسيفشل.

١٨

ذات مرة تساءل يوسف: ترى.. هل الموت مؤلم؟

عمله في صفحة لحوادث مسحه هذا السؤال ليقتضي معه ليلة من ليالي
وحده، يفكر في الأمر ويتساءل: هل الموت مؤلم؟

ومن حول يوسف وسوسن تعاظم الظلام معلناً نهاية رحلتهم

* * *

احتواهما ظلام المنزل من جديد ليدركا أن لحظة الحقيقة قد حانت
ومن أمامهما تعالت الخطوات الهادئة، قبل أن ينبدئ لهما الشيء في
هيئة الطفل حاملاً لهما أسوأ كوابيسهما على الإطلاق، ليتعالى صوته
العابث معلناً:

- ها أنتما قد حصلتما على الحقيقة كاملة.. تماماً كما وعدتكما

ثم ابتسم بقسوة لا تنتمي إلى هذا العالم، ليردف:

- والآن يأتي دور خياركما الأخير.

هناك من يقولون إنه ليس كذلك. يقولون إن الضربات لا تؤلم حقاً،
بل ما تتركه من دماء بعده هو ما يقتلك. إن الرصاصة لو أصابتك فلن
تشعر بها. إما سترحل وإما ستستيقظ لاحقاً في أحد المستشفيات لتُحد
من يخبرك بأنهم أخرجوا الرصاصة من جسدك وانتهى الأمر.

هناك من يقولون إن الموت غرق لا يؤلم. حين تمنى رثاك بالمياه
وتفقد القدرة على التنفس فلن تشعر إلا بوعبك يسحب منك سطره كأنت
تخلد إلى نوم لن تستيقظ منه أبداً.. هكذا وبكل بساطة.. الأمر ذاته يحدث
لنفس يموتون في الحرائق والدين يخفقهم اندحار قبل أن تشوي السيران
أحسادهم. كل ما يحدث لهم هو أنهم يحلّدون إلى النوم لا أكثر

من تنقب بهم السيارة لا يشعرون بشيء، ومن يهرون من أعلى يمارقون

أحسادهم قبل أن يصطدموا بالأرض، ومن يصعقون لا يحدون الرقت الكافي للنالم. بل إن هناك من يقولون إن الموت بالسرطان داته لا يؤلم مع كل المسكنات التي يسكبونها في دمائك قبل أن تحتضر.

هناك من يقولون إنه لا يوجد موت مؤلم، لكنه - وأيا كانت طريقته - مؤسف حقًا، والشيء الوحيد الذي قد يؤلم فيه هو مقدار الحزن الذي يتركه في نفوس من سيفتقدونك حين تموت!

وهذه النقطة تحديدًا يصدقها يوسف تمامًا ويدرك أنها حقيقة لا حذر فيها، فهو عانى حزنه على موت والديه المدين تسمى ألا يكونا قد شعرا بالآلم في لحظتهما الأخيرة. نعم.. يأمل ألا يكون الموت مؤلمًا وأن كل من لم يذوقوه ويتحدثون عنه بثقة مطلقة محقون.. لكن..

لكن السؤال - الذي قرر نسيانه في النهاية في تلك الليلة لينزع لوحدته - عاد إليه من حديد حين وقف أمام الطفل - الذي هو ليس طفلًا - يرمق انتسامته القاسية، ليتعالى في رأسه ثرى.. هل الموت على يدي الشيء مؤلم؟

لكن الصوت العايب تجاهل سؤاله:

- خياركما الأخير لن يكون سهلًا، لكنكما لا تملكان سواء.. وهذه المرة لن تدفعا ثمنه فحسب.

ثم تقدم الشيء منه ومن سوسن التي بدت كأنها مجرد جسد يرتحف بلا روح تسكنه، ليردف الصوت العايب:

- بل ستحصلون على المقابل.

فتعالى صوت سوء حظ يوسف في رأسه ليقول:

- يوسف.. لقد استجبت ما سبحدث؟ لكن أهو الاستتاج الصحيح؟

فأجابه يوسف في عقله:

- نعم هو.. إنه في حاجة إلينا.

ليتدخل الشيء مقاطعًا حوار يوسف الدائر في عقله:

- إن في حاجة إليكما لهذا نرككما على قيد الحياة حتى الآن، ولهذا كانت لعبتنا منذ البداية.. إنها فرصتكما الأخيرة للنجاة.

واكتسى صوته بلهفة بدت غريبة عليه، حين واصل:

- وفرصتي لأأكمل من جديد.

فتساءل يوسف في حيرة:

- أتريد العودة إلى عالمك؟

- بل أريد العودة إلى عالمكم.. مع حرحا قسرا واللمنة وبعد كل هذه القرون.. سنعود.

ثم رفع رأسه إلى طلام مره كنه يرى ما لا يره سواء، ليواصل

- ألمية سمعت شعرة من عالميا.. لكنها لن تسمح لك بالعودة إلا لو نفذ أحدكما التضحية اللازمة.

وابتسم معيذا تسديد نظراته المتوهجة إليهما، قبل أن يردف:

- يجب على أحدكما أن يقتل نفسه.

* * *

ومن وسط ذكرياته وكوابيسه وفي أعماق عقله بدأت قطعة صغيرة في التحرك ببطء آتية من كل ذكرى وكبوس تحاول التجمع لتشكيل حقيقة أدرك يوسف أنه يحتاج إليها وشده

أمامه يقف الشيء في هيئة آخر جسد حثته يشرح، فيستمع إليه يوسف بنصف انتباه:

- هذه هي التضحية اللازمة لفتح الثغرة وعلى أحدهما أن ينفذ
وحينها سيحصل على المقابل.

وهذه أول قطعة من الحقيقة تحركت في عقل يوسف:

المعجور في القصر.. لقد قتل نفسه ليمنح الثغرة وليطرد هذه الأشياء من عالما الرحال قالوا إنه كان يعرف ما الذي سبب فيه وأنه كان حيارمه الوحيد.

- موسن.. لو قتلت نفسك فسأترك والدك وسأعيد سامح إلى الحب
أعدك بأسى سأعيدهم وسأتركهم وشأنهم فليس أكون في حاحه إليهم
بعد الآن.

وهذه القطعة الثانية من الحقيقة:

الشيء بقي بوعوده.. لقد وعدهم بمواصلة اللعبة حتى النهاية ولم يخلف وعده.. ووعدهم بإجاعة أسننتهم ومنحها لهم كاملة ووعدهم بهلاك أحدهم وبقاء الثاني في عذاب بلا نهاية وهذا ما يبدو أنه سيحدث!

ثم التفت الشيء إلى يوسف الشارد أمامه، ليواصل:

- وأنت يا يوسف.. لو قتلت نفسك فسأعيدها إلى الحياة.. سأعيد

نادية.. لقد كانت الوحيدة التي أحبتك في هذه الدنيا.. الوحيدة التي احترتلك فهل ستحتر لها الحبة؟

لكن القطعة الثالثة من الحقيقة لم يكن لها علاقة بقصة حبه التي لم تكتمل قط

الشيء لا ينتقل إلا إلى أجساد الموتى. في كل مرة ينفذ أحدهم الطقوس لينتقل إلى جسد فارقه الحياة وليبقى فيه إلى أن يهلك من حديد. حينها يتحرر لبحث عن جسد حديد.

- يبدو أن هذا يكفيك إذن مدد لو أعدت الدكتور لبي وعائلتها
أيضا.. لقد كنت أنت من قتلها على الرغم من كل شيء.

يووووووووسف... أين أنت؟

إنه يذكر الدكتور لبي، ويذكر ما حدث لبيتها.. لقد قتلها دوما عن نفسه.. لم يكن هناك حيار آخر أمامه.. لكنها كانت من قتلت عائلتها وكانت تعتقد أن الشيء سيعيدهم إليها في الوقت المناسب.. لقد وعدهم بهذا، ومرة أخرى ثبت له الشيء أنه لا يخلف وعده.

لكن مهلاً.. إن القطعة الرابعة من الحقيقة بحث الحصى في عقده تحاول الالتقاء بباقي القطع:

الحواجر بين عالما مستذوب الليلة «راسبوتين» كان يحاول إعادته في الليلة الثانية والعشرين.. كان يحاول مساعدته على الاكتمال لكن ليس هنا.. بل هناك!

- لقد خسرتما كل شيء في لعبكما معي.. لكنها فرصتكما الآن

لتعويض كل ما خسرتماه وللاتهاء من هذا كله إنها محرركم الوحيد.

وهو محق، فقد حاول الحدة نفسه أكثر من مرة . وفشل.

خاض كل فصول اللعبة.. وفشل.

استسلم بموت حين حاولت سوس قتله، وحتى في هذا فشل.

والقطعة الخامسة من الحقيقة تقول:

لهذا أخذ الشيء مهما كل ما أخذ ليحبرهما على الاستحالة له، لا من باب العبث والاستمتاع كما كان بطرس. لا بد أنهما لسا أول اثنين يواحسان هذا الحيار، فلقد رأى من سبقوه في اللوحات لقد حاول الشيء كثيراً من قبل ومثله . فشل!

- لا ترفقا نفسيكما بالتفكير في مخرج آخر، فلا يوجد سوى ما مسحكاه إياه.. لو فعلها أحدكما فستفتح الثغرة وينتهي هذا كله.. ولولا منعها فسأنتق هنا.. وحينها...

و ستحالت سرة العبث في صوته إلى سرة تهديد فشعرت لها حذر في المنزل، إذ أردف:

- سدد مع الجميع الشمس

- لقطع سببتي، بدليل أنه ظل موجود حتى الآن . لا توجد ضرورة للقضاء عليه ولا طقوس للتخلص منه.

صحيح أنه بلا جسد يؤويه، وأنه يتخذ هيئة ابن الدكتور مجدي - الذي هو ليس ابنه - الآن، لكنه سيجد جسداً جديداً وأحمق يردد الطقوس بسببه إليه، وحينها س... لكن.. مهلاً.

لقطعه الأخيرة من الحقيقة تحد طريقها إلى باقي القطع لشدا لحقيقة كاملة في التشكل في عقل يوسف:

إنه يحتاج إلى جسد لينقل إليه وإلى من يردد الطقوس. جسد ميت. أو...

الحيار أم مكمل؟ ألا فمن سيفعلها؟ وتذكرا أنها لا تمسك حياراً آخر.

يعني الشيء. سؤ له ليدو، لتردد على سوس، قبل أن تكتشفها سكية من سعد لنموت وأدرك أنه لا مهرب منه، لكن يوسف بدأ وقد انتهت حفيظة من التشكل في رأسه، لنخرج على لسانه

- بل هناك حيار آخر وأنت محسني إياه من دون أن تشعر

ثم ابتسم ولأول مرة منذ أن استعاد صوته، ليقول:

- منحتني طريقة القضاء عليك.

* * *

ولكن سوس لم تكن متواجدة معها حقاً.

كنت تشعر كأنك ورفقت روحها جسدهم تتحس في ظلام المنزل، وتتحد بها بطريقتي جسدهم لحداد هل ادوقف بحور يوسف وأمام الشيء في هيئة الطفل الذي دمر حينها وحيوة أسددهم مجدي لكن ريارها لأحيرة في مرته وفي ليلة نتي حاول قتل الشيء، أعادت لها القاعدة التي شها بها أسددهم من بعيد لكن يقر التريح ولا يخرج منه بشيء مفيد... فقط من يقرأون بين السطور يتمكنون من رؤية الصورة كاملة.

وهذا ما كانت موسن تحاول فعله.. إنها لم تقرأ التاريخ هذه المرة، لكنها زارته في رحلتها الأخيرة للحصول على الحقيقة.. ومن وسط كل ما رآته وخاضته كانت موسن تحاول قراءة ما بين السطور لتحصل على الصورة كاملة، علّها تجد مخرجاً لما هي فيه.

لقد سمعت الشيء وهو يلقي عليهما بخيارهما الوحيد، لكنها لم تستحب له لأنها لم تكن هنا أمامه، ولو كانت لوجدت أن خيار قتل نفسها لنفد من تحب هو الحماسة بعينها.. فما قيمة أن تضحي بنفسها لتعيد والديها وتسمح إلى عالم يعيش فيه الشيء وأمثاله؟!

لا.. إن هذا الخيار لا يستحق التفكير فيه حتى، وكل ما عيبها الآن هو أن تقرأ السطور الحمية بين الأحداث التي مرّت بها، وأن تحاول رؤية الصورة كاملة، لتحد لمحرج الوحيد من هذه المواجهة وقبل أن تنتهي الليلة الثالثة والعشرون، ولا فسكون قرارها الأخير هو أن نواجه الشيء، لتهلك مع يوسف، فهذا - وعلى الأقل - سيعني أن الشجرة لن تفتح وأن الشيء لن يكتمل أبداً.

لكنها.. وعلى الرغم من سرعها الذهني الكامل لقراءة الموقف لم تستطع أن تحد الحل.

السطور الحمية في التاريخ تدت لها بمشقة، لتقرأ موسن فيها أنه لا يوجد أمل ولا مخرج، وأنها وفي كل الأحوال ستخرج من هذه السيرة خاسرة.. إن خرجت على قيد الحياة أصلاً!

في كل الأحوال سيقى الشيء، سواء اكتمل أو لا، وفي الحالتين لن تقل قدراته عما هو يملكه بالفعل، ولن ينقص خطره ولو بمقدار ذرة.

بن الخيار أمامها الآن و صبح - إما أن تهتك ومعها والداها ليلحقا بسمع الذي حترق حياً أمامها - من لداحل إلى الخارج - وإما أن تهلك هي لتعيدهم سيذكروا لاحقاً على يدي الشيء أو على يدي واحد ممن سيعودون من عالمه.

فما قرارها الأخير إذن؟

سؤالها هذا ساعدها على لتحقيق خارج جسده في طلام الممر ركنها بحث عن إجابة فيه، إلى أن أعده يوسف إلى جسده مضطربة ذاهلة مصدومة، حين أعلن وثقة لم تفهمها إطلاقاً:

- منحتني طريقة القضاء عليك.

حدقت سوس داهنة في يوسف الذي كان يقف واثقاً وهدوءاً أمام شيء - الذي تحدثت ملامحه الطفولية لمحنة ليصور سرّة عث مفتحة: - حقاً.. وكيف ستفعلها إذن؟

لتدحاً سوس بأن يوسف - الذي لم يعشق التاريخ قط كعشقها له - أنه يلقيه الدكتور محدي القاعدة التي نفسها بها - توصل إلى الصورة كمنه فيها، ليحبب بأحر شيء توقعته أو كان لها أن تتعديه.

- بطريقة الوحيدة التي أسكنها - سأمحك جسدي

وهما فمرت قطع الحقيقة في عقمها لتشكّل الصورة كاملة في رأسها وكأنما قفزت من عقل يوسف إلى عقلها في لحظة واحدة.

الشيء لا يتقل إلا إلى جسد ميت.. ويوسف نصف جسده مات بعد أن أخذه الشيء منه.

الشيء لا ينتقل إلا بالطقوس.. ويوسف سمع الطقوس حين رددته،
المرأة في العنة أمامه ومن بعدها «فلاد»، وهو الآن يذكرها كامنة بعد أن
أفقدته الشيء قدرته على النسيان.

الثغرة لن تفتح إلا لو ضحى أحدهما بنفسه.. ويوسف احتار أن
يفعلها ليفقدها هي.

أحدهما سيهلك والآخر سيعيش في عذاب بلا نهاية.. لكن...
هل ستنجو حقاً؟

فأنتها الإجابة بأن تخلى الشيء عن هيئة الطمس الذي احتل كوايسه
مد أن بدأ هذا كله، ليتحول إلى كتلة هائلة من الطلام انتشرت أمامهما
لتعلا المرل في نهاية لعالم، ولتتوهج فيه عيان عاصتان حدفتا في يوسف
الهادئ، قبل أن يتصاعد الصوت الهادر الذي لم يعد عاثاً أنداء، يصيح

.. لم تحرف.. لم أسمع لك؟

ليحييه يوسف ساحراً وبذات إحادة

.. حقاً.. وكيف ستفعلها إذن؟

ثم ومن دون أن يمنحه فرصة للرد أو الاعتراض.

بدأ يوسف ترديد الطقوس.

كان يوسف يدرك أنها نهايته لا محالة.

كان يدرك أن الشيء قد يسحقه ليمنحه من ترديد الطقوس، أو أنه قد
يقضي عليه بمجرد أن يحتل ما مات من جسده، لكنه.. وكما أخبره الشيء..

ثم يكس يملك الحيار.. فقط تعالى صوت سوء حظه للمرّة الأخيرة على
الإطلاق في رأسه ليقول:

.. وداعاً يا يوسف.

فلم يحبه يوسف، بل واصل ترديد الطقوس التي تعالت بصوت المرأة
في العبة وبصوت «فلاد الثالث» في رأسه.. طقوس استدعاء لشيء والتي
كنت هي طقوس المصاء عيه طوال الوقت من دون أن يدرك هذا إلا
متأخرين.. متأخرين جداً.

الطقوس التي لا يملك الشيء إلا الاستجابة لها ورغماً عنه.

أمامه تلاشت العيون المتوهجتان وإن تعالى الصوت الهادر بصرخ
معصت تصدعت له حدران المنزل.. صرخة من عالم آخر.. لكن يوسف
واصل ترديد الطقوس.

سطعت النوحات كلها من حوله فحاة، وفيها ظهر كل من حاضوا
اسعية قبله وهناكوا، لكن يوسف واصل ترديد الطقوس

مرت مئات الصور والأصوات و لذكريات في رأسه، لكنه واصل
ترديد الطقوس.

انحجر صوت الشيء نابه فارتجفت الأرض من أسفله بقوة بأرجح لها
المنزل كله مهدداً بالانهيار، ولكنه واصل ترديد الطقوس.

صرخت سوسن برعب لا حد له وقد بدا لها الأمر أنه نهايتهما معاً،
لكنه لم يسمع صرختها، بل واصل ترديد الطقوس حتى نهايتها و.. و.

وفي اللحظة التالية انتقل الشيء إلى جسده.

للحظة شعر يوسف بثقل هائل يجثم على جسده بهم بأن يسحقه. ثم
احترق الثقل جسده ليشعر به يكاد ينفجر.

وفي جسده تحول الثقل إلى طاقة لا حدود لها رفعته ليحقق في طلام المنزل، وصرخات سوسن تتعالى فلا تصل إلى عقله الذي تفجرت فيه ذكريات أكثر من قرنين من الزمان لتغيب فيها ذكرياته التي عاناها طويلاً

في لحظة مترح كيان الشيء، بكيانه، وامترح عقل الشيء، بعقله، لكشف يوسف رغبة عارمة في الصراخ، لكنه عجز عن الاستجابة لها وقد احسب أنفاسه في صدره، فأغمص عييه بقوة مستنمًا نصريح الشيء الهادر الذي تعالى من داخل رأسه، قبل أن يفتح عينيه مرغمًا، ليجد أنه استعاد الرؤية بعينه اليسرى، وليهاجأ دأب الظلام من حوله تبدد تمامًا ليكشف عن كل تفاصيل الممر الذي لو رأتها سوسس لفقدت عقلها هدهدًا.

اللوحات سطعت من حوله، نكبيها نم نكر محرد لوحات متحركة هذه المرأة تحكي له قصته وقصة سوسن وقصص كل من سبقوهما. بل كنت تبدو كأنها ثغرات في جدار الواقع تقود إلى أزمنة مختلفة حاصها شيء وانتصر ليدفع جميع من في اللوحات الثمن.

جدران المنزل كانت حية فعلاً.. كانت تنفس وتتفص وتتلوى وترتجف وكانت شقوق هائلة قد أخذت في تمزيقها لتكشف عن ضباب الغابة خارجها.

وكان هناك ذلك السلم الذي يقود إلى الشجرة.

سلم طويل بدا كأنه يمتد وبلا نهاية بدرجاته المظلمة المتوهجة وفي
فمه كنت لشعرة تمسح سطء كاشفة عن العالم الذي يتنمى إليه الشيء

عالم لو كان يومئذ قد راه قبل أن يردد الطقوس لما ردها أبداً ولما حاطر، ليحد نفسه يحدق في ملايس لعيون المتوهجة التي أطلت من الثغرة لتحقق فيه مباشرة بمزيج من اللهفة والغضب.

إنني أرى بعيني الشيء.

طافت هذه الفكرة في رأسه للحظة قبل أن تسحق مع قبض الذكريات والأفكار وصراح الشيء، ثم انتفض جسد يوسف بقوة كادت أن تهشم عظامه، قبل أن يهوي فجأة وقد تعاظم الظلام من حوله فجأة.

وكان آخر ما سمعه يوسف هو صرخة الشيء في رأسه إذ ردد:

- أيها الأحقق الآن ستدفع الثمن

وَنَعْلِي صَوْتٌ صَالِحٌ يَعْذُّ بِاسْتِمَاعِ

وَاللّٰهُ اَعْلَمُ

فوجد يوسف أنه عاد إلى مدرسته القديمة وإلى طفولته ليقيم بحسبه النجيل الضئيل، ينتظر أن ينتهي صلاح من العد ليبدأ مطاردته.

إنه يذكر هذا اليوم.. يذكر ذلك القميص الذي يرتديه صلاح..
ويذكر تلك القمعة الداكنة في ظهره ويذكر أنه كان المتسبب فيها..
ويذكر أنه اليوم الذي مات فيه صلاح بعد أن صدمته السيارة، لينتهي
به الأمر جثة ترف ويلامس فكها السعبي أدبها.. إنه يذكر هذا اليوم
وما هو بخوضه من جديد، ولكن.. ولكن الصوت الذي كان عابثاً
تعالى في رأسه يقول:

فكها، وفي صدرها كاد قلبها أن يتوقف . وأمامها كرر سامح وقد أحدث
الأبخرة تنصاعاً من حسده متوسلاً:

- اقتني يوسف.. أنقديني واقتليه

* * *

وفي غرفة الزيارة في السجن جلس يوسف أمام الدكتور مجدي وقد
- أنا هنا لأتحدث معك قليلاً.. إذا سمحت لي.

فلم يجبه مجدي، تمامًا كما توقع وكما حدث بالفعل.. لكن يوسف
قرر مواصلة دوره بصورة ميكانيكية بحتة، ليصعق رر التسجيل ولبمسث
بقدم يعرف أنه لن يحط به حرفاً واحداً على الأوراق أمامه، قبل أن يقول
- أريد أن أعرف منك ما الذي حدث في تلك الليلة بالضبط.

قالها من دون ذرة شك في مدى سخافة ما قاله، لكنها البداية الوحيدة
التي تكرم بها عقله عليه، فلم يتراجع وواصل قائلاً:

- هل قتلت ابنك بالفعل؟

ويوسف كان يذكر تمامًا ما حدث يومها يذكر ويعرف أن الدكتور
مجدي لن يجيب عن أي سؤال من أسئلته، وأنه سيلوذ بالصمت إلى أن
تأتي اللحظة التي سيبقي فيها معها حاته قبل أن يحاول الانتحار بقلمه، لكن
يوسف لم يكن يملك إلا أن يواصل المشهد حتى نهايته.

- دكتور مجدي.. هل تسمعي؟

بالطبع هو يسمعه لكنه لن يجيب - إنه مثله هنا أتى ليواصل الدور ذاته

الذي لعنه سابقاً، ويوسف يذكر ما حدث وسيحدث بالتفصيل . سيحافظ
الدكتور مجدي على صمته. سياس هو من محاولات إقناعه بالحديث .
وفي النهاية سيقرر أن يكتب إجاباته بنية عنه ليحرس بها مدير التحرير
لدي لن يقتنع بما سيكتبه أبداً وهذا ما حدث وبدأق لتفاصيل . فقط كان
صوت الشيء هو ما تعالى في رأسه هذه المرة، ليقول:

- ستعرف الموت وبكل صورته.. وستندم.

فلم يجبه يوسف، بل واصل توجيه أسئلته للدكتور مجدي أمامه،
لترند إنه حوية لا تحمل إحداث - ثم - وكما حدث تمامًا من قبل - بدأ
يوسف في إحراء الحوار مع نفسه، حتى وصل إلى اللحظة التي قال فيها:
- لا أعرف إن كان قد استيقظ أم لا بعد لصيرة الأولى، لكنني سأكتب أنه
لم يفعل - المرء من يتحمسوا فكرة أن يكون بك قد استيقظ وطل على
قيد تحبه بعد الصيرة الأولى - مجرد فكرة أنه فتح عيسى مدعورتين
وبصر بيك والدماء تنفجر من رأسه من دون أن يحرك هذا على التوقف
مثيراً لعينين حفاً . تقدمت مع الصيرة الأولى لكك واصلت صريره و

وهنا قاطعه الدكتور مجدي والمرأة الأولى، ليقول:

- لكنه لم يمت.. هضمت رأسه بالمطرفة.. لكنه لم يمت!

فترك يوسف نفسه يُصاب بالدهول مستطرً اللحظة التي سبترع فيها
الدكتور مجدي قدمه منه ليغرسه في عنقه ليشهي هذا المشهد، لكن الدكتور
مجدي توقف عن تكرار دوره، ليشترع قلم يوسف بالفعل، قبل أن ينقص
عليه بغتة ليغرسه في عنقه هو!

تري . هل لموت مؤلم؟

وفي اللحظة التي اخترق فيها القلم عنق يوسف وصلته الإحابة،
ليكتشف أنه مؤلم جدًا.. مؤلم فوق قدرتك على التخيل.

لقد شعر بالقلم يخترق جلده ويمزق أوردته وشرائنه، وشعر بدماؤه
الساخنة تتفجر من حرقه قبل أن يسقط أرضًا ليحطم الدكتور مجدي على
صدره وقد استند به حيوان مطبق، انتزع معه القلم من عنق يوسف قبل أن
ينهاه عليها ثانية ليمزق المزيد من الأوردة والشرابين.

ولم يجد يوسف الفرصة ليصرخ أو يقاوم.

دماؤه تفجرت غزيرة وتناثرت على وجه الدكتور مجدي الذي انزع
القلم.. وغرسه للمرة الثالثة..

ولرابعة..

والخامسة..

لكن يوسف لم يمت!

الدكتور مجدي واصل تمزيق عنقه بالقلم، ليشعر يوسف بألم كل
ضربة وكل نقطة دماء دارقت حسده، لكنه ظل على قيد الحياة والصوت
الهادر يتعالى في رأسه صارخًا:

- ستندم أيها الأحمق.. ستندم.

فلم يعد يوسف يملك حجرة ليحبيب بها.. فقط خرجت حشرة عبر
مفهومة من فمه مع المزيد من الدماء، قبل أن يتعاطم الظلام من حوله فجأة

* * *

واستعادت سوسن قدرتها على الصراخ فتعالت صرختها مدوية في
سلام المرل، وأمام سامح الذي أخذ يقترب منها بخطواته الراحمة

من حسده أحدث الأبحرة تتصاعد بكثافة قبل أن تتحول إلى أدحة
حقيقية امتزجت برائحة الشواء اللعينة، وفي وجهه أحدثت عيباه تنفحان
بصورة يستحيل ألا يكون قد فقد معها قدرته على الرؤية، ولكن صوته
المختنق وجد طريقه إلى فمه، ليخرج منه قائلاً:

- اقتلي يوسف.. اقتليه.

فصرحت سوسن ثابة وقد فطدت الفدرة حتى على إغلاق عيبيها لتمنع
نفسها من رؤية أسوأ كوابيسها ثانية.

صرخت.. وصرخت.. وصرخت.

وفي النهاية بلعها سامح أحياناً ليهوي أمام قدميها مباشرة، ولتثبت
لبيران في حسده فجأة لتضيء المنزل ولتترافص ملايين لطلال على
حدرانه، وقد أخذ الحسد المشتعل يتلوى أمامها للحظات ويش قبل أن
تخمد حركته وصوته تمامًا.

ثم تلاشى الجسد فجأة من أمامها ليسود الظلام من جديد.

وليتعالى صوت الدكتورة لينى هذه المرة يقول:

- يووووووووسف.. أين أنت؟

فلا يجيب يوسف الذي وجد نفسه في قبو منزلها من جديد يختبئ
وراء جثة ابنتها.

ها هي أسوأ ذكرياته تتوالى عليه واحدة تلو الأخرى مع إصابات

مبهجة، وما هو يرتجف ويحاول ألا يصدر أدنى صوت قد يكشف عن مكانه للدكتورة ليلي التي واصلت هبوط الدرج الخشبي وسكبه في يدها، مرددة:

- يووووووووسف.. أنا أعرف أنك هنا!!!!!!

فلا يحيب يوسف، بل يواصل لعب دوره حتى النهاية فقط هذه المرة كان يعرف أن الليلة ستنتهي بالدكتورة ليلي وقد عثرت عليه لتعرس سكبه في جسده.. بالطبع هذا ما سيحدث هذه المرة، فالشيء سيديقه كل أنوار الموت قبل أن يقضي عليه فعلاً.

قاوم يا يوسف.. قاوم.

قرر يوسف أن يقاوم، وأغمض عينيه في قوة تاركاً الدكتورة ليلي تقترب منه، وهي تردد:

- يووووووووسف.. لا أريد أن أقضي الليلة هنا فأنا لم أتم جيداً.

ومن الطلام خرجت الدكتورة ليلي إلى سوسن والسكين مفروس في صدرها، فلم تصرخ سوسن هذه المرة.

لقد فهمت الآن.. الشيء لا يعابثها ولا يحاول إفقادها عقلها.. بل هو في حاجة إليها.

إنه يريد منها أن تنقذه.

وبالمعل اقتربت منها الدكتورة ليلي، لتكرر ما قاله سامح ذاته:

- اقتليه.. اقتلي يوسف.

ثم انتزعت السكين من جسدها لتمد به يدها إلى سوسن.. فقط أضافت هذه المرة:

- اقتليه وسأتركك تخرجين من هنا.

وفي قبو الدكتورة ليلي قرر يوسف العودة.

إنه ليس موحوداً هب الآن. إنه يحلم. الشيء بعيد له أسوأ كوابيسه، لكن ما يحدث حوله الآن لا يحدث حقاً. إنه مجرد كابوس لا أكثر. كابوس سيتهي بموته لو استمر حتى نهايته.

قاوم يا يوسف.. قاوم.

فيقاوم يوسف ويحاول لخروج بعقله من ها وقد أحدثت الدكتورة ليلي تقترب منه وسكينها في يدها.

كان عليه ألا يدخل ها كان عليه أن يستمع إلى سوء حظه وألا يحاظر بالدحول لو كان فعلها لما كان قد حصل على المفتاح الذي استخدمه في الدحول إلى منزل الشيء، ولربما كان دوره في هذه القصة قد انتهى عند هذا الحد. لا. لا وقت لهذه الأفكار الآن.. يجب أن يعود يجب أن يصعد السلم إلى الثغرة.

قاوم يا يوسف.. قاوم.

فيقاوم يوسف ويترك جسده يسترخي على الرغم من دقة الموقف.. وسطاً أخذت الموحودات من حوله في التلاشي، ليتراقص أمل صليل

في أعماقه - وإن كان يعرف ما ينتظره في منزل الشيء - وليسترخي أكثر فأكثر ..

وهوت يد الدكتورة ليلي على كتفه، ليتعالى صوتها ظافراً هذه المرة يقول:

- عثرت عليك.

* * *

وكالمأخوذة أخذت سوسن السكين من الدكتورة ليلي.

السكين ذاته الذي عثرت عليه في سيرة يوسف ليلة أن أفدته لتحاول قتله به .. الموقف ذاته يتكرر أمامها وبأدق التفاصيل - يوسف راقداً أمامها في غيبوبته والسكين في يدها والخيار واضح .. فهل ستقتله هذه المرة ؟

تقول الدكتورة ليلي بصوت الشيء مشجعة:

- سيتهي كل شيء لو قتلته .. سيعود والداك وسامح وستخرجين من هنا .. إنها فرصتك الأخيرة.

فتشعر سوسن بالتردد ويفاجئها هذا الشعور.

إنها لم ترَ الدكتورة ليلي سابقاً، لكنها عرفت ما حدث لها من يوسف وهي الآن تعرف أنها ليست هي .. الموتى لا يعودون إلى الحياة، ومن يقف أمامها الآن هو الشيء يطلب منها أن تنقذه .. يطلب منها أن تعمل - عجزت عنه سابقاً.

تتلاشى الدكتورة ليلي من أمامها ببطء، لكن السكين يبقى في يدها ثقيلًا بارداً يؤكد لها أنه يصلح لم عليها فعله .. كل ما عليها الآن هو أن

تتحني على يوسف - تعرس النصل في عنقه .. تعمض عيניה في قوة ثم تحرك يدها بالسكين إلى الأسفل.

هكذا وبكل بساطة!

حينها سيتحرر والداها وسيعود سامح وستنجو هي و .. ولكن الموتى لا يعودون إلى الحياة، فكيف سيعيد إليها الشيء سامح إذن؟!

حتى وإن حافظ الشيء على «عدم» الترمه دالمسطق، فمن يضمن لها أن من سيعود سيكون سامح حقاً؟ لو عاد.

من قال إنه سيكون لها؟

ألم يتركها من أجل أخرى لا تعشق التاريخ مثلها؟

لماذا تشعر بالتردد إذن؟!

فتأتيها الإجابة من ظلام المنزل وبصوت الشيء:

- على الأقل سيتحرر والداك .. وستخرجين من هنا.

فتحد سوسن نفسها تحني كالمأخوذة على حشد يوسف الراقداً أمامها، والسكين في يدها.

نعم.

على الأقل سيتحرر والداها وستخرج من هنا.

* * *

وفي اللحظة التي فتح فيها يوسف عينيه وجد سوسن تجثم على صدره تهم بأن تغرس سكينها في عنقه.

وللحظة وجد أنه يذكر ذلك الموقف الذي خاضه من قبل في سبائه
وفي الليلة التي كاد عصم أن يلقي القصر عليه فيها و.. لكن لا.. لا وقت
لهذا الآن.

لهذا هب يوسف واقفاً على الفور تاركاً موسم تراجع شاهقة في
ذهول، وهي التي لم تتوقع أن يستعيد وعيه أبداً، ليستمت هو إلى صلام
الحمل الذي أصبح قادراً على احتراقه بعينه، ليطر إلى السلم المتوهج
أمامه، ويؤدي يقود إلى الشجرة التي تمصل بين عالمه وعالم الشيء
يجب أن يصعد السلم وبسرعة.

يتربح يوسف محاولاً الاتجاه إلى ما لم تره سوس، والتي بادت بلمحه
تاركة السكين يسقط من يدها:
- يوسف.

من دون أن تكمل نداءها.. فهي لم تكن تعرف إن كان عليها أن تعدد
أو أن تسأله عما يحدث. فقط بادت اسمه فلم يستحب هو لها، بل قوام
تلك القوة الكاسحة في أعماقه والتي حاولت معه من المواصللة، لينحه
إلى السلم وليصع قدمه على أول درجته، تندوي صرخة الشيء في رأسه
كانفجار ألف قبلة.

يجب أن يصعد السلم وبسرعة.. يجب.

تردد قدمه الثانية وترتجف.. ثم تستجيب له في النهاية ليخطو على
الدرجة الثانية من السلم و.. ويتعاطم الظلام من حوله فجأة.

* * *

يجد يوسف نفسه يغدو هارياً هابطاً درجات سلم قصر «يوناري»
وهو يعرف أن انسهم قد يحترق طهره في أي لحظة وهو يذكر ما حدث
بعدها.

سيشعر بالألم الحاد في صدره ثم سيدفع جسده ليسقط ولينهشم على
الدرجات الصخرية وسيشعر بكل ذرة ألم و..

ويجب أن تعود يا يوسف.. يجب أن تصعد السلم.

فيتوقف يوسف عن الهرب ويخفض عينيه محاولاً العودة.

* * *

ثم يصعد يوسف درجة جديدة على السلم الذي سيقوده إلى نهايته.
يتفحص الشيء صارخاً في جسده ويتعالى صوته في رأسه:

- لن تجبرني على العودة.. لن أسمع لك.

ليهمس يوسف كمن يحتضر:

- بل ستعود.

- لن أسمع لك.

ويتعاطم الظلام من حول يوسف.

* * *

وعلى العربة يجد يوسف نفسه والانسهم المشتعلة تتطاير من حوله
و«إليزابيث باثوري» في قصصها المعدني تضحك بجنون مطبق.

النيران تنتشر في العربة ومطاردوهما يأخذون في الاقتراب منهما
أكثر فأكثر.

* * *

ويصعد يوسف درجة أخرى على السلم.

وفي الأسفل أخذت سوسن تحديق فيه ذاهلة وكأنما تحول يوسف
أمامها إلى بطل أسطوري يخوض آخر فصول ملحمة.

لم يكن في استطاعتها أن ترى السلم كيوسف، لكنها كست تراه يقوم
وبرادة لم تتحيل أن يملكه بشر ليرفع قدمه سطء قبل أن يصعها على درجة
جديدة من الفراغ، ليصعد جسده خطوة جديدة إلى الأعلى.

والى الأمام.

رأت الألم في وجهه، لكنه صعد درجة أخرى.

رأت جدران المنزل تنتفض من جديد، لكنه صعد درجة أخرى.

رأت الظلام يتحول إلى إعصار حاول أن يطيح بيوسف، لكنه صعد
درجة أخرى.

وأخرى..

وأخرى..

وأخرى.. حتى بدأ يغيب في الظلام، فانهمرت الدموع من عينيها وقد
شعرت بما سيحدث له، لتناديه مرة أخيرة:

- يووووووووسف.

لكنه لم يجب.. ولم يتوقف.

تحول الألم إلى جزء من تكوينه، لكنه لم يتوقف.

مات بألف طريقة في ألف زمن، لكنه لم يتوقف.

رأى الهول ذاته ينتظره عبر الشجرة، لكنه لم يتوقف.

صاعداً واصل طريقه على السلم وصرخات الشيء تمزق جسده
تمزقاً، حتى أصبح على قيد خطوات من الشجرة ليثقف هناك بحدق في
ملايين الأعين المتوهجة التي أحدث ترمفه في عصب وكرامية، وليتعالى
صوت الشيء في رأسه منيراً:

- لو عبرت الشجرة فلن تعود أبداً.

فأجابه يوسف في عقله:

- وأنت أيضاً لن تعود.

- متبقى حياً.. متحياً في عذاب بلا نهاية.

- إنه الثمن الذي عليّ دفعه.

- ستكون وحيداً في عالمي.. متعاني الألم والوحدة إلى الأبد.

فتوقف يوسف وابتسم لآخر مرة في عالمه، قبل أن يجيب:

- لن أشعر بالفارق إذن.

ثم ومن دون لحظة واحدة من التردد وحاملاً الشيء في جسده.

عبر يوسف الشجرة ليتتهي دوره في هذه القصة.

يوسف الناحل سيّ الحفظ الذي لم يحب التاريخ قطّ - وإن خاض
أسوأ ما فيه - لم يعد هنا.

ثم وفي اللحظة التالية وجدت نفسها ترقد داخل سيارة عصام في
الطريق الصحراوي المظلم، والذي لم يعد مهجورًا خاليًا.

يجوارها مرقت سيارة مسرعة لتؤكد لها أنها عادت إلى أرض الواقع
المرير الذي ينتظرها، وأن القصة كلها انتهت.

لم يعد هناك شيء.

ولم يعد هناك يوسف.

كان آخر ما فعلته سوسن ليلتها هو أنها تكورت على نفسها في المقعد
الخلفي لسيارة عصام، لتهمر الدموع من عينيها وكأنها بلا نهاية.

حين استيقظت سوسن في سيارة عصام أدركت أن الأمر قد انتهى.

لقد كان آخر ما رآته هو ذلك الضوء الذي تألق فجأة في سماء المنزل
المظلم ليملأ العالم من حولها، قبل أن تدوي صرخة الشيء هادرة غاضبة
عاجزة متوسلة، لتنفجر جدران المنزل معها كحفنة من الرماد أطاحت بها
عاصفة عاتية.. ثم لم تر سوسن ما حدث بعدها.

الأرض من أسفلها تلاشت، لكنها لم تهو ككل مرة.. على العكس تمامًا
وجدت نفسها تحلق في فراغ لا وجود فيه لضوء أو ظلام أو أي صوت..
وفي أعماقها شعرت بسكينة افتقدتها واشتاقت إليها طويلاً، قبل أن تتذكر
يوسف ثانية ليستبد بها القلق واللهفة.

تري ما الذي حدث له؟

سؤالها دفعها للتلفت حولها، لكنها وجدت العدم ينتظرها ويبادلها
النظرات في كل جهة.. حاولت أن تناديه، لكنها لم تسمع نداءها.. لم تسمع
أي صوت على الإطلاق ولم تشعر به قريباً.. وبيطء بدأت تستوعب حقيقة
أنه لم يعد هنا.

- وداعاً.. سأشتاق إليكما حتى آخر يوم في عمري.

ثم ومن دون أن تضيف المزيد.

استدارت.

ورحلت.



بعد أن اطمأنت على والديها قررت الرحيل.

من دون أن تلتقيهما راقبت منزل جدها، حتى رأت والديها يخرجان منه كمولودين يكتشفان العالم الخارجي لأول مرة، فابتسمت في رضا وإن سألت من عينيها دموع اللهفة والاشتياق.. لقد كانت تعرف أنها لن يمكنها العودة إليهما أبداً.

نعم القصة انتهت، لكنها لا تزال هاربة، فعلى أرض الواقع لا يزال سامح ميتاً ولا تزال هي متهمة بقتله ويقتل عصام الذي عثروا على جثته لاحقاً.. لقد كانت هي ويوسف آخر من كانوا معه.. الهرب هو «الخيار الوحيد» الذي تملكه، ولكنها استسلمت له هذه المرة راضية.

ستختفي عن الأعين إلى أن ينساها الجميع، والزمن كليل بأن يساعد والديها على نسيانها.. المهم أنهما بخير.. وأنهما تحررا من قبضة الشيء.

يومها، وبعد أن رأتها يخرجان من منزل جدها مسحت دموعها، لتهمس لهما من دون أن يبلغهما صوتها:

سنوات طويلة مرّت على سوسن لم تنسَ فيها ما حدث أبدًا.

إلى مدينة جديدة انتقلت لتعيش باسم جديد وهوية جديدة محاولة فتح صفحة جديدة في حياتها، حاملة معها ما تبقى من ذكريات الشيء وأستاذها مجدي ومنقذها يوسف.. ولسنوات طويلة ظلت تحلم بيوسف وتساءل:

تري.. هل ستراه مجددًا في يوم من الأيام؟

سؤال لم تحصل على إجابته قط، وإن كانت تستيقظ كل مرة من حلمها لتجد دموعها تنهمر من عينيها تحمل مذاق الامتتان، فكانت تتركها تسيل على وجهها إلى أن تخلد للنوم من جديد لتحلم به مجددًا.

إن الزمن كفيل بالنسيان.

فهل ستنسى يوسف؟

وفي أحد الأيام تزوجت سوسن برجل لا يعشق التاريخ وكان هذا أكثر ما جذبها إليه.

لم تخبره باسمها الحقيقي، ولم تشعر بتأنيب الضمير لإخفاء سرها عنه، فقد قررت أن سوسن لم يعد لها وجود في هذه الدنيا.. تمامًا مثل يوسف. إنها الآن امرأة جديدة تحاول أن تقضي ما تبقى لها على هذه الأرض في هدوء، والرجل الذي تزوجته كان يحبها بحق.

وبعد عام واحد من زواجها، وفي إحدى ليالي الشتاء الباردة، كانت سوسن - التي لم يعد اسمها سوسن - تضع مولودها الأول في أحد المستشفيات، لتمر عليها ساعات طويلة من الألم والصراخ، انتهت بطفلها يطلق صرخته الأولى يعلن بها عن وصوله إلى عالمنا هذا مرغمًا.. ليبتها حمله أبوه بفخر وسعادة لا حد لهما، ليعلن:

- إنه صبي.. لقد رزقنا بصبي.

فابتسمت من كانت سوسن بإنهاك وقد التصقت خصلات شعرها بوجهها، لتقرر:

- سيكون اسمه يوسف.

ليجرب أبو الطفل اسمه بقمه:

- يوسف.. لا بأس.. سيكون اسمه يوسف.

ثم بادلها ابتسامتها قبل أن يردف وهو يحيطها بذراعه:

- وسيكون سعيد الحظ.

